رفيق شامي

أوفه ميخائيل غوُتشَان

التّقْرير السّري

عن الشَّاعر غوُته

منشورات الجمل

مكتبة
t.me/soramnqraa

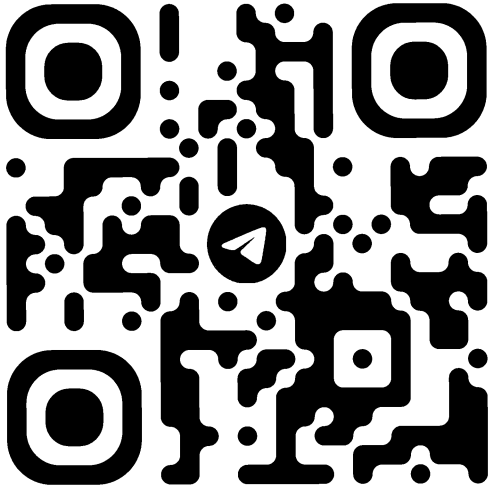

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

رفيق شامي / أوفه ميخائيل غوتشان: **التقرير السري عن الشاعر غوته**

ولد **رفيق شامي** (اسمه الحقيقي: سهيل فاضل) بدمشق عام ١٩٤٦. درس الرياضيات والفيزياء والكيمياء لكي يعمل معلماً في المدارس، غير أنه ترك البلاد عام ١٩٧١ إلى ألمانيا حيث درس الكيمياء وحاز على الدكتوراه عام ١٩٧٩ وعمل لعدة سنوات في هذا الاختصاص. صدر كتابه الأول بالألمانية عام ١٩٧٨ وتفرغ للعمل الأدبي عام ١٩٨٢. منح عشرات الجوائز تقديراً لأعماله في ألمانيا وفي خارجها ويعتبر اليوم واحد من أنجح الكتّاب في ألمانيا، وهو عضو في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة منذ عام ٢٠٠٢. ترجمت أعماله إلى ٢٣ لغة! هذا أول عمل يترجم له إلى العربية، يصدر له قريباً عن منشورات الجمل: **يد ملأى بالنجوم، حكواتي الليل**.

ولد **أوفه ميخائيل غوتشان** عام ١٩٥٢ في مدينة دورتموند. درس الأدب الألماني والإنكليزي ونال الدكتوراه ليعمل بعدها محرراً مختصاً في العديد من دور النشر. له العديد من المؤلفات الشعرية والروايات. وهو عضو في رابطة PEN في ألمانيا.

ولدت **نهى فورست** عام ١٩٤٧ في غزة، تقيم منذ عام ١٩٧٥ بألمانيا. أنجزت العديد من الترجمات إلى العربية، خصوصاً لمؤلفات الكاتب الألماني المعروف ميشائيل انده. تقيم اليوم في مونستر بألمانيا.

رفيق شامي / أوفه ميخائيل غوتشان: **التقرير السرّي عن الشاعر غوته**،
ترجمة: نهى فورست، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، العراق – ألمانيا ٢٠٠٥
رسمة الغلاف: روت ليب

Rafik Schami / Uwe-Michael Gutzschhahn: Der geheime Bericht über den Dichter Goethe
Copyright by Carl Hanser Verlag, München 1999
© *Al-Kamel Verlag 2005*
Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

رفيق شامي
أوفه ميخائيل غوتشان

مكتبة
t.me/soramnqraa

التقرير السرّي

عن الشاعر غوته
الذي اجتاز امتحاناً في جزيرة عربية

ترجمة: نهى فورست

منشورات الجمل

هكذا بدأت القصة

مكتبة
t.me/soramnqraa

في ٢٦ أيار/مايو من عام ١٨٩٠ اكتشف ثلاثة من صيادي اللؤلؤ سفينة شراعية تتهادى في مياه الخليج الفارسي على بعد عشرة أميال من جزيرة البحرين. بدت السفينة أولا وكأنها قادمة من الكويت في طريقها إلى البحر العربي، لكنها سرعان ما اتخذت اتجاه البحرين لتعود خلال فترة قصيرة وتغير اتجاهها من جديد مرات عدة، فتتهادى تارة نحو الكويت وتارة أخرى نحو الأرض الإيرانية.

ما أمر هذه السفينة الغريبة؟ تساءل صيادو اللؤلؤ وجدّفوا نحوها في الحال، ثم نادوا بأعلى أصواتهم على بحارتها، لكن لا حياة لمن تنادي. خاف الصيادون بل لم يجدوا الجرأة على الصعود إليها لحين من الزمن، وذلك بسبب ما كان قد حدث قبل حوالي العام عندما انساقت سفينة ماركو بولو إلى شواطئ عُمان بطريقة مشابهة غريبة: طاقم مقتول بكامله وحمولة باقية على حالها دون مساس. مع العلم أن سفينة ماركو بولو في زمانها كانت تعتبر أسرع سفينة شراعية في العالم. وحتى يمكن إنقاذ حمولتها في

ذلك الوقت، كان من الضروري سحبها إلى شاطئ ميناء العاصمة مسقط، وشحن سمادها على سفينة أخرى، لتحمله بدورها إلى الميناء المقرر له.

ولما كانت الكوليرا قد انتشرت على متنها أيضاً، وسببت وباءً فظيعا في عُمان، أصبح الناس في جميع مناطق الخليج يرون في كل سفينة تتأرجح فوق الماء دون هدف، رمزا للموت.

من هنا وقف صيادو اللؤلؤ الثلاثة حائرين ما بين الخوف وحب الاستطلاع، وترددوا كثيرا قبل أن يستجمعوا شجاعتهم ويصعدوا إلى ظهر سفينة بلاك برنس ليقفوا على ما حدث بها.

وهالهم ما رأوا: سفينة مهجورة لطخت الدماء كل ركن منها. أصابهم الذعر وغادروها هاربين، وبأسرع ما يمكن بلّغوا شرطة خفر السواحل البحرينية عن سفينة الأشباح الشراعية، فما كان من الشرطة إلا أن قبضت عليهم في الحال واتهمتهم بنهب السفينة وقتل كامل طاقمها عمدا لتغطية جريمتهم.

على وجه السرعة اتجه روبرت وايتهايد قائد خفر السواحل مع طاقمه على متن قارب بخاري إلى عرض البحر. وكم انزعج عندما اكتشف أن السفينة المنكوبة لم تكن إلا بلاك برنس التي يعرفها تماما، فهي إحدى سفن الملاحة المنتظمة التي تبحر عادة على خط بريطانيا العظمى والخليج الفارسي والذي يمتد أيضاً إلى الهند أو أستراليا.

تأثر القائد جدا من منظر بقع الدم المنتشرة هنا وهناك والتي يرف عليها الذباب ويحوم. لكن رغم البحث المستمر لم يعثر رجال وايتهايد على أيّ جثة.

أوضح سجل يوميات السفينة أن قائدها يدعى بنيامين برجز، وأنه كان قد دوّن آخر ملاحظاته في ٢٢ أيار. لم يكن هناك ما يوحي بوضع غير عادي على السفينة، ففي قمرة القائد كانت المائدة مجهزة لثلاثة أشخاص، وفي مطبخ السفينة عُثر على كثير من الخضروات الطازجة وعلب اللحم، ووجد أن مخزون المواد الغذائية يكاد أن يكون كاملا، بل وكافيا لستة أشهر أخرى على أقل تقدير. لكن ما دعا للاستغراب، هو اختفاء أحد قوارب الإنقاذ، والاسطرلاب، والكتب الخاصة بالملاحة.

واصل وايتهايد ورجاله تفقّد السفينة، فاصطدموا في أماكن متفرقة منها بما يدل على أن طاقمها قد ترك عمله مهرولا دون رويّة ولا تفكير، وفوجئوا بتمثال السفينة ملطخا بالدماء أيضاً، وتساءلوا من يا تُرى حاول في يأسه التشبث بهذا التمثال قبل أن يُقذف به في البحر؟ وهذه الدماء، دماء من؟ لم يكن بالسفينة ما يشير إلى سبب لحدوث مذبحة فظيعة كهذه على متنها، فالتلف فيها كان طفيفا لا يزيد على بعض الشقوق في الأشرعة والحبال نتيجة ضربات بالسكين، وعن بعض الخدوش في الخشب، وجميعها نشأت عن قتال ما أغلب الظن. إلا أن الأهم أنه رغم وجود كوتين مفتوحتين في السفينة، لم تمس البضاعة المشحونة إطلاقا، وكانت تشتمل على: ١٥٦٠ برميل ويسكي من بريطانيا و٣٠٠ بالة بلح من العراق و٥٠٠ كيس فستق حلبي من سوريا. وقد تم تحميلها على بلاك برنس في ميناء الكويت في ١٩ أيار بهدف شحنها إلى الحاكم العام البريطاني في الهند.

يبدو أن كابتن السفينة كان رجلا ثرثارا، فهناك نوع من

المبالغة والشرود وأحيانا تباهٍ زائد بالنفس في تدوين يوميات السفينة، مع أن هذه اليوميات بصفة عامة لم تتطرق إلا إلى السفينة نفسها وإلى الطريق وإلى الأحوال الجوية مع بعض الاستثناءات البسيطة.

وأول ما لفت انتباه وايتهايد في التسجيلات، بل وما شغله إلى حين، تلك الملاحظة الخاصة بالمسافرين الوحيدين على السفينة: النبيلة مارتا فون زوتنر وابنها توماس ابن العشرة أعوام، حيث كتب الكابتن: «انه شرف لي أن أتناول معهما وجبات غذائي يوميا. فهي من نبلاء هانوفر كما أنها عقيلة اللورد مورلي، الموظف البريطاني الكبير في ادارة الهند. أما الصبي فهو بسنواته العشر شيطان لا يهاب الخطر ومستعد دائما للعراك ويحبه طاقمي جدا، وهو بشقاوته يذكّرني بالملاح القديم الأسطوري بوللي فروبس الذي تعلمت المهنة على يديه.

بعد أن قطعنا قناة السويس تعكر مزاج النبيلة، وأصبحت لا تكف عن لعنة الهند وليس من النادر لعنة زوجها أيضاً. ومع أنني لا أتكلم اللغة الألمانية إلا أنني أفهم لعنات السيدة، كما ألاحظ زيادة تجهمها كلما اقتربنا من الهند. أما ابنها فهو غير مبال، يتريض هنا وهناك في السفينة، ويحس بسعادة غامرة عندما يفلح في اخافة رجالي الأشداء بظهوره لهم على حين غرة...»

وفي مكان آخر جاء في اليومية: «وكما نفعل في كل عام سنأخذ طريقا غير مباشر إلى بومباي يمر أولا بالكويت، حتى يتسنى لنا تسليم هديتنا إلى آل سعود، وفي الوقت نفسه تحميل سفينتنا بالبلح والفستق الحلبي وزيت الزيتون، لشحنها إلى الحاكم العام.

في الواقع أننا لا نشعر بالارتياح، لا أنا ولا طاقمي، ونحن نمر عبر مضيق هرمز في الخليج الفارسي. صحيح أننا نبحر تحت حماية العلم البريطاني وتاج عظمة الملكة فيكتوريا الأولى، لكن هل من باب الصدفة أن تسمى منطقة الساحل هنا بشاطئ القراصنة! إن رجالي يعزّون أنفسهم بأن البحرية البريطانية تملك أسرع زوارق بخارية بل واثنين من زوارق الطوربيد كما يقال. ومع ذلك فالقراصنة كالموت تماما، لا صوت لهم ولا قدرة عليهم ولا يحترمون إلا الشيطان. . .»

وفي تدوين آخر حول المسافرَين الغريبين قرأ وايتهايد: «لقد أشرق وجه النبيلة بشكل ملحوظ منذ أن أخبرتها ونحن على مائدة العشاء أننا سنتجه أولا إلى الكويت ونقضي بها ثلاثة أيام، قبل أن نكمل الطريق إلى بومباي. . .

إنني لم أكن أعرف قبل الآن أن السيدة الألمانية تتحدث أيضاً اللغة العربية إضافة إلى الإنجليزية والفرنسية. لقد أخبرتني اليوم بفخر أنها تعلمت العربية وهي طفلة صغيرة على يد صديق قديم لوالدها.

وما إن وصلنا الكويت حتى تركت النبيلة السفينة، وحلت ضيفة على الأمير محمد الصباح، الذي هو بالتأكيد ليس أحد محبي الخير لبريطانيا. . .

وفيَ أثناء إقامتنا هناك رأيت النبيلة وابنها يمتطيان جواديهما يوميا ويتنزهان، فأمير هذا البلد يحرص على أن يُشعر النبيلة دائما بأنها ضيفة على الرحب والسعة كامرأة وكألمانية ولكن على أي

حال ليس كزوجة لورد بريطاني، فيرسل لها مجموعة حراس ذوي لباس أبيض، تمتطي فرسانا أصيلة، لتقوم بمرافقتها وتوفير الحماية لها. وكنت أنا البريطاني الوحيد الذي سُمح له بحضور الحفلات المسائية الخاصة في ليلتين كانتا أشبه بليالي ألف ليلة وليلة.. شهدت فيهما كرما للضيافة لم أشهدهُ في أي مكان آخر، بل كدت لا أتعرف على النبيلة بلباسها الشرقي، وهي تجالس العرب وتقضي معهم الوقت الممتع، تغني وتشرب وكأنها رجل. وفي مسائنا الثاني في الكويت اتجهت نحوي وهي تقول باللغة الإنجليزية بسعادة: «بنيامين، هذا هو وطني.»

تبيّن من يومية السفينة أن بلاك برنس أقلعت من الكويت في يوم ٢١ أيار/ مايو، الصافي المشمس، وتبيّن أيضاً أن وجه المرأة عريقة النسب عاد في اليوم نفسه إلى تجهمه من جديد. أما في يومية ٢٢ أيار فقد انقطعت الكتابة فجأة أثناء تسجيل ملاحظة تتعلق بعملية إصلاح في مقدمة السفينة.

وهكذا تم نقل السفينة المهجورة بلاك برنس إلى البحرين، وفي غضون ثلاثة أيام فقط تم تعيين طاقم جديد لها لتكمل رحلتها إلى بومباي أخيرا. هذا بعد أن حصل اللورد مورلي على وعد أكيد من المسؤولين البريطانيين في الخليج ببذل كل ما في وسعهم للتحقيق في موضوع اختفاء النبيلة وابنها.

وفعلا بدأت عملية بحث واسعة، وقام مندوب رسمي عن حاكم البحرين يرافقه موظفون في المخابرات البريطانية بزيارة جميع الشيوخ وأمراء الجزر والشواطئ المحيطة. استمرت عمليات التحري المختلفة ثلاثة أعوام كاملة، لم تسفر في النهاية عن أية

نتيجة. كذلك ثبت عدم صحة الشكوك التي أثيرت حول الأمير محمد الصباح بأنه وراء خطف النبيلة، وذلك بعد أن تسلل جاسوس على مستوى عال إلى حريم الأمير وفتش كل زاوية به ولم يجد أثرا للمفقودة.

أما اللورد مورلي فقد سافر بنفسه إلى الخليج وطلب المساعدة من صديقه وصديق بريطانيا، مبارك الصباح، أخي شيخ الكويت، الذي لبى طلبه في الحال، وراح يحاول اكتشاف مكان المفقودين بكل الطرق الممكنة، فوعد بمكافأة كبيرة ووسّع عملية البحث لتصل إلى بغداد، لكن محاولاته باءت بالفشل. هذا بينما بقي مورلي على اقتناعه أن ما حدث كان عملية قرصنة، لذلك شهد بنفسه عمليات تعذيب فظيعة أمر بها الأمير مبارك في حق عده من كبار القراصنة العرب إلى حد جعلهم يتذللون ويطلبون العفو، بل ويعدون الأمير بتسليمه كل ما سرقوه، لكن دون أن يستطيعوا العثور على السيدة المختفية.

بالتدريج توارى حزن مورلي وراء غضبه المتزايد بسبب المهانة التي تعرضت لها بريطانيا من جراء هذا الحادث. ومن الجدير بالذكر ان منطقة الخليج تعتبر منذ ما يزيد على أربعمائة عام جزءا من الامبراطورية العثمانية، هذه التي يتزعزع حالها حاليا وتفقد قوتها تدريجيا، بينما يزداد نفوذ بريطانيا في المنطقة بدأب واستمرار، نفوذ يظهر واضحا في استعراض قوتها العسكرية في الخليج. فيا لها من طامة أن يحدث لبريطانيا حادث كهذا في هذه الظروف بالذات، وأن يتعرض بحارتها للذبح والقتل مباشرة تحت العلم البريطاني! كان مورلي يعرف تمام المعرفة أن الجزر الكثيرة

المنتشرة في الخليج، والصحراء الداجنة الصعبة الاجتياز الممتدة على طول الشاطئ العربي لتوفر أكثر من مأوى جيد للقتلة، مما يعني أن كشف النقاب عن هذه الحادثة ليس إلا نوعا من المعجزة. . ولكن هذا ليس زمن المعجزات. بعد خمسة أعوام أقفل ملف قضية بلاك برنس نهائيا بوصفها «حادثة بحرية غير قابلة للتوضيح»

ولكن ماذا حصل أيضاً في ٢٦ أيار/مايو، اليوم الذي لمح فيه صيادو اللؤلؤ الثلاثة بلاك برنس؟ في ذلك اليوم نفسه وفي الساعة نفسها تقريبا، اكتشف رجلان من شرطة ساحل جزيرة حلم، التي تبعد ثلاثين ميلا بحريا عن البحرين، مركبا يتجه نحو شاطئ الجزيرة، وتأكدوا بالمنظار أن من يقوده امرأة.

ما إن وصلت هذه المرأة إلى شاطئ الجزيرة حتى شعرت بالأمان وتركت المجداف يقع من يدها، تعبة منهكة بعد أربعة أيام صعاب. إنها مارتا فون زوتنر التي تكره زوجها، والتي لم تستطع أبدا التعود على الحياة في بومباي، حتى أنها لم تترك فرصة للهروب إلى أوروبا الا واستغلتها، لكن في كل مرة في طريق عودتها إلى بومباي كانت تحس باختناق شديد، يجعلها تعاني في الليل من ضيق شديد في التنفس.

كانت مارتا قد قضت أياما رائعة في مدينتها الألمانية هانوفر قبل أن تبدأ هذه الرحلة . . رحلة العودة التي تدنو بها يوما بعد يوم من الهند ومن زوجها شارلز مورلي، البارد برودة الثلج. لكن ما إن دخلت السفينة مياه الخليج حتى تغير مزاج مارتا السيّئ وانقلب إلى آخر يغلب عليه الانشراح والسعادة، وقضت يومين

رائعين في الكويت، لتعود بعدهما مضطرة ومسلوبة الإرادة إلى ظهر سفينة بدت لها كسجن.

ومع الريح المناسبة راحت بلاك برنس تمخر في المياه بسرعة، هذا في الوقت الذي كان يزداد فيه ألم مارتا ويصبح أقوى من أي وقت مضى، لأنها لم تعد ترى لها خلاصا بعد الآن. وفي تلك الليلة وصل يأسها إلى أشده، حتى أنها وقفت على حافة السفينة وفكرت في إلقاء نفسها في المياه القاتلة. لكن.. ماذا لو فعلت ذلك.. ماذا سيكون مصير ابنها توماس؟ إنها لا تستطيع أن تفتح قلبها لأحد، فالكابتن بنيامين رجل غامض وثرثار يلعب دور الرجل النزيه، لكن هل هو نزيه فعلا، وقد سمعت بأذنيها حركة رجال يحملون صناديق كبيرة على مراكب تأتي من الشاطئ العربي في ليلتين متتاليتين.

ثم حدث ما حدث. في ذلك المساء كان الثلاثة ينوون تناول طعام العشاء سويا كما اعتادوا. ساعة واحدة قبل موعدهم صمم توماس ان يتفقد غرفة الشحن ويعد براميل الويسكي فيها. لكن الكابتن لم يسمح له بالنزول إليها دون مرافقة. ولما كان جميع البحارة منهمكين في العمل، ألحّ توماس على أمه كثيرا، حتى وافقت أن تنزل معه إلى قاع سفينة لم تكن قد دخلته قبل الآن، مليء بالبراميل والأكياس حتى حافته. فجأة حدثت رجّة قوية هزت السفينة بشدة وأمالتها إلى اليسار، أعقبها صراخ وصخب سمعه توماس وأمه فوق رأسيهما. في البداية شكّت مارتا في عملية قرصنة، ثم اعتقدت بأنها حركة تمرد أو عصيان، إلى أن وصلت إلى مسامعها أخيرا بعض الكلمات والجمل العربية في

صيغة أوامر، تتخللها ولولة الطاقم المذعور، وصرصرة البحارة في صوت واحد كالكورس، في محاولة منهم تمثيل دور حملان وديعة تكسب قوتها فقط من عملها على السفينة، ولا دخل لها بموضوع الأسلحة إطلاقا.

فجأة وضُح لمارتا ما يحدث فوقها على سطح السفينة وضوح الشمس: أدرك البحارة أن من يواجههم ليس قراصنة طماعين، لكنهم ثوار يقومون بعملية ثأر ضد السياسة البريطانية وضد بلاك برنس بالذات.. السفينة التي لا تكف أبدا عن تزويد أصدقاء بريطانيا بالأسلحة تحت ستار التجارة بزيت الزيتون والبلح. والجدير بالذكر أن حربا لا ترحم كانت تدور رحاها في ذلك الوقت في وسط الحجاز، بين قبيلة الرشيد التي يدعمها الألمان والأتراك من جهة، وبين قبيلة آل سعود من جهة أخرى، وهي التي أذعنت لبريطانيا تماما وأصبح التاج البريطاني يزودها بالأسلحة بطريقة سرية لكنها فعالة. هذا وقد لعب الكابتن بنيامين برجز دورا رئيسيا في عملية نقل هذه الأسلحة.

ومن مخبئهما في قاع السفينة خلف براميل الويسكي سمعت مارتا فون زوتنر وابنها توماس صوت الكابتن برجز صائحا يا إلهي قبل أن يسقط على الأرض، فهو أول من اغتيل تبعه اغتيال بقية الرجال وقذف جثثهم جميعا إلى الماء. ولم تمض إلا دقائق معدودة حتى شعر الاثنان بحركة سمك القرش حول السفينة، وباصطدامه بهيكلها مرة بعد الأخرى وهو في قمة نشوته في هذا الحفل الدامي.

ومن جديد سمعت مارتا خطوات وصياح همجي، فأدركت

أن المنتقمين لا بد وأنهم ضبطوا في هذه اللحظة بحارا مختبئا يطلب الرأفة والرحمة. . . دقائق معدودة وساد الهدوء مرة أخرى.

وأيقنت مارتا أن دورها وتوماس قد جاء، وأن المعتدين سيكتشفونهما حالا. أخذ قلبها يدق بشدة، وأحست بضرباته تصل إلى عنقها بصوت أعلى من كل الخطوات وضجيج الصيحات حولها.

فعلا نزل أحد الرجال وفحص قاع السفينة فحصا سريعا، ثم نادى على الآخرين معلنا خلو القاع من الأشخاص وأكمل طريقه.

أطبق صمت ثقيل ثقل الرصاص على مارتا وابنها.

وأخيرا سألها توماس بصوت هامس، هل عليه أن يتسلل إلى أعلى. أجابته مارتا بالنفي وبقيت الليل بطوله تسترق السمع، إذ خيِّل إليها باستمرار أنها تسمع وطء أقدام. وهكذا لم يغمض لها أو لابنها جفن حتى بزوغ الفجر، عندما تجرأت وصعدت بحذر الى أعلى. كم هالها المنظر الفظيع الذي رأته أمامها. . . سفينة ملطخة بالدماء. . مهجورة. . . تتحرك فوق الماء وتتمايل دون من يقودها.

أدركت مارتا في الحال أن واجبها الآن هو إنقاذ نفسها وابنها، فرجعت إلى توماس مباشرة وتكلمت معه كما لو كان صديقا راشدا، وحدثته بصراحة عن زواجها التعيس مع أبيه، ورجته أن يفهم رغبتها في عدم العودة إلى الهند نهائيا. فأعرب لها توماس أن أمنيته الوحيدة هي البقاء معها ومرافقتها إلى أي مكان ترغب في الذهاب إليه.

بسرعة أخذت مارتا الاسطرلاب والكتب الخاصة بالملاحة وبعض الطعام وكمية كبيرة من الماء وراحت تجدف مع ابنها في اتجاه الهدف الذي أصبح واضحا تماما أمام عينيها.

كانت المرأة النبيلة متأكدة أنه لو وجدت قطعة من الأرض في مأمن من الجيش البريطاني القوي، فهي بلا شك جزيرة حلم الواقعة في الخليج الفارسي... هذه الجزيرة الصلبة الإرادة والتي لم تعرف الحكم الأجنبي في تاريخها، وتعتبر منذ القدم ملجأ للمرتدين والمطلوبين، بسبب صعوبة وصول السفن الكبيرة إلى شواطئها، علاوة على أنها جزيرة قليلة النباتات، غير مضيافة.

ومع ذلك يحاول سكانها بطاقة تفوق كل وصف انتزاع ما يلزم لحياتهم من أرضها. إنها أرض مالحة تتعرض لفيضان مياه البحر بانتظام، مما حدا بهم منذ مئات السنين إلى إقامة السدود ضد البحر، حتى باتت سدودهم مع مرور الوقت أكثر سدود العالم تقدما.

كانت حلم محل أساطير وخرافات، فكثير من قصص الشاطئ العربي تحكي عن غرابة أطوار سكان هذه الجزيرة، بل وتؤكد تحالفهم مع الشيطان تحالفا يجعلهم لا يهزمون. في الواقع كانت قد جرت فعلا محاولات كثيرة من قبل العرب والفرس واليونان والرومان والعثمانيين لسحق شعب الجزيرة الصغير، لكن العواصف كانت بقدرة قادر تعصف دائما بسفن المعتدين وتحطمها على صخور الجزيرة.. تلك التي تبدو في كل مرة، وكأنها ترتفع من الماء لتوها، لتشق مقدمة السفينة المعتدية.

كان قد حدث أن الأسطول البحري للخليفة الناصر، المعروف بطموحه، غرق هناك في عام ١١٨٢ وهو يحمل على متنه ثمانية آلاف رجل، لم يكن قد نجا منهم إلا عدة مئات من الجنود، رجعوا أدراجهم إلى بغداد خائفين ومنهكي القوى. هذا دون أن يضطر المدافعون عن الجزيرة الكبيرة حلم إلى إطلاق سهم واحد في اتجاه هؤلاء المعتدين. بعد هذه الهزيمة المهينة أصدر الخليفة الناصر أمرا بقي مفعوله ساريا مئات السنين من بعده: «عليكم أن تنسوا جزيرة حلم نهائيا وتمحوها من ذاكرتكم. لم يعد لها وجود.»

وفعلا نسيها العرب والفرس والعثمانيون أيضاً. وحتى في الوقت الذي زاد فيه التأثير البريطاني في الخليج بقيت جزيرة حلم رسميا تابعة لنفوذ استنبول، رغم أنه لم يحدث قط أن وطئتها قدم موظف عثماني.

وأرادت الكويت أن تحذو حذو حلم ولا تخضع لا لحماية استنبول ولا لحماية لندن، وحاول الامير الداهية محمد الصباح أن يبقى مستقلا، لكن الكويت غير حلم بل وعلى العكس منها، فهي ذات موقع جيد وثروات معدنية جعلتها مغرية للبريطانيين. وهكذا اعتبرت بريطانيا جزيرة حلم هي المنطقة الوحيدة المحظورة عليها في الخليج.

كانت النبيلة مارتا تعرف كل هذه التطورات، فمنذ أن تعلمت اللغة العربية في طفولتها وهي تتابع تاريخ العرب وموقفهم الصعب. وكم تتمنى الآن أن تلجأ وابنها إلى الكويت، إلا أن أخا الحاكم الكويتي، الأمير مبارك الصباح، كان يعتبر صديقا حميما

لبريطانيا ويتفاخر بذلك بنفاق واضح يظهر في تعليقه صورة الملكة فيكتوريا في صالونه.

إذن لم يبق من مكان يوفر النجاة لمارتا وتوماس غير جزيرة حلم.

عجبت شرطة سواحل الجزيرة كل العجب من تلك المرأة التي تخبرهم باللغة العربية بكل فخر، أنها هنا في مهمة سرية، وتود مقابلة سلطان الجزيرة بأسرع وقت ممكن. لم تتوانَ الشرطة في مساعدتها ومساعدة ابنها في الصعود إلى مركب بخاري تابع لخفر السواحل، شق طريقه بهما مارا أولا بالعاصمة ذكرى، دون أن يفصح هناك عن وجود أغراب عليه، ثم أكمل إلى مرفأ خاص بقصر السلطان زكي بن فهيم الخليجي، وهو مرفأ لا يسمح للعامة بالدخول إليه.

أما القصر الأبيض لؤلؤة الخليج فهو بحد ذاته مدينة صغيرة خاصة يتوفر فيه كل ما يلزم لحاكم الجزيرة ولوزرائه وجميع الخدم والحراس... قصر يبدو وكأنه من بقايا ألف ليلة وليلة.

وفي القصر أعرب السلطان، حاكم الجزيرة وسكانها الثلاثمائة ألف نسمة، عن موافقته على استقبال النبيلة مارتا وابنها. وما إن نطقت مارتا بأول جملة، حتى أسرت قلب السلطان زكي بل وعقله أيضاً، فطلب منها في الحال أن تقبل العمل كمربية لولده الوحيد، وأكد لها أن الإقامة في القصر ستوفر لها حياة جيدة وكريمة وحرة، فنساء حلم كن النساء الوحيدات في المنطقة العربية اللواتي ينعمن بحقوق متساوية مع الرجال.

لم يكن يخفى على السلطان ما سيتهدد الجزيرة من أخطار إذا

ما تم اكتشاف أمر لجوء النبيلة إليها. فبريطانيا من جهتها لن تتردد حينئذ لحظة واحدة في الهجوم على الجزيرة بحجة ملاحقة القراصنة.

لذلك لم يتوانَ السلطان بمكافأة رجلي خفر السواحل مكافأة كبيرة، حلفا مقابلها على القرآن، ألا ينبسا بكلمة واحدة عن وصول المرأة وابنها، وأي خيانة لهذا العهد ستعني الموت لكليهما.

ولتحاشي أي خطر آخر أطلقت مارتا على نفسها من اليوم الأول لوصولها اسم سيدة، وهو معنى اسم مارتا في أصله الارامي العبري، واصبح اسم ابنها توما وهي الترجمة العربية لتوماس. هذا وقد منح السلطان كلاً من مارتا وتوماس مرتبة النبلاء.

أما على المستوى الرسمي، فقد أعلن القصر أن النبيلة اسمها سيدة من والدين، أحدهما عربي والآخر هولندي، قد وصلت الجزيرة بغرض تدريس ولي العهد حكيم اللغات الأجنبية. ومما يؤسف له أن زوجها المستشرق الهولندي قد توفي في طريق رحلتهما إلى حلم.

كان حكيم ذو الاثني عشر عاما ولي العهد في الجزيرة آنذاك، صبيا يختلف في طباعه كليا عن ابن مارتا، فهو هادئ يتمتع بالصبر والجلد، مغرم بالجلوس بالظل وبقراءة الكتب. أما توماس أو توما كما يناديه الجميع الآن، فقد وجد جنته هنا بين البحر والفرسان الأصيلة، وأصبح في غضون سنوات قليلة من أمهر فرسان الجزيرة، بل ومعبود كثير من النساء والرجال. لكن رغم الاختلافات بين حكيم وتوما، إلا أنهما سرعان ما أصبحا

متلازمين، ينادي كل منهما الآخر اخي، بل ويكمل واحدهما الآخر كنصفي صورة واحدة. وبالطبع أتقن توما اللغة العربية وأصبح يتكلمها بطلاقة وكأنه كان قد ولد في الجزيرة، بينما تعلم حكيم باجتهاد اللغتين الألمانية والإنجليزية.

أما الحاكم فقد كان أسعدهم جميعا، واعتبر سيدة هدية السماء له. وكم فرح عندما تعرفت سيدة على أفضل دبلوماسييه صالح بن عقل وأحب واحدهما الآخر.

ومن هنا بدأت سعادة مارتا. وبعد وقت قصير جدا لم تعد حياتها الزوجية السابقة مع مورلي إلا مجرد ذكرى بعيدة لها، ويعود الفضل في ذلك بالطبع إلى زوجها صالح، الرجل اللطيف ذي الثقافة العالية. وحيث إنه كثيرا ما كان على سفر في تلك الفترة التاريخية، بغية دراسة الأوضاع السياسية الخاصة بالجزيرة، اضطرت مارتا إلى تدبير كثير من أمورها بنفسها، كما أنها وجهت كل عنايتها إلى الاهتمام بالأوضاع التعليمية والصحية في حلم، فوضعت حجر الأساس لأول روضة أطفال وأول مستشفى عصري في الجزيرة، ليصبح اسم النبيلة سيدة مرادفا للخير والدأب والمثابرة بين سكانها.

عندما سافر زوجها في إحدى المرات في مهمة سرية إلى برلين عهدت إليه، بعد الاتفاق مع السلطان بالطبع، بحمل رسالة منها إلى أمها وأختها، تطمئنهما فيها عليها وترجوهما تجديد الأوراق الشخصية الخاصة بها وبابنها، مع رجاء خاص وهو عدم السؤال عن مكان إقامتها.

وما إن وصلت الرسالة إلى الأقارب في هانوفر حتى تنفسوا

الصعداء، وقاموا على الفور بتجديد الوثائق اللازمة. وبعد ستة أشهر جاءهم رسول خاص من برلين واستلمها منهم، دون أن يبلغهم أكثر من أن دبلوماسيا أجنبيا قد كلفه بهذه المهمة. ومنذ ذلك الحين أصبحت مارتا تراسل أمها وأختها بانتظام، وتتغنى في رسائلها الطويلة بحياتها السعيدة في الجزيرة الفردوسية، وبتوماس الذي أصبح علامة صغيرا يعرف الكثير عن أهم أعمال الشعراء الألمان وعمره لا يتجاوز السبعة عشر عاما.

ومرت السنون على هذا الحال. ولو لم يمت السلطان فجأة في صيف ١٨٩٧ عن عمر يناهز الثمانية والخمسين عاما إثر ذبحة صدرية، لأصبحت هذه الجزيرة الجنة بعينها على الأرض. وكم كانت كبيرة خسارة النبيلة سيدة بموت السلطان زكي، الرجل الرشيد، الوقور والكريم.

كان ولي العهد حكيم قد أكمل حديثا عامه التاسع عشر، وذهنه مليء بالأفكار والخطط والآمال تماما كصديقه الحميم توماس، إلا أن موت الأب المفاجئ بعثرها كلها، وأصبح على حكيم، السلطان الجديد، أن يجهد نفسه بأمور سياسية لم تكن قط موضع اهتمامه حتى ذلك الحين.

إلا أن توما لم يترك صديقه، بل وقف بجانبه مخلصا كمساعد ومستشار، يناقشه باستمرار ويتباحث معه حول الوضع السياسي العالمي، وحول الحياة في الجزيرة، وحول أفضل الطرق التي عليه كحاكم جديد أن ينهجها حتى يؤمن مصالح وسلامة شعبه الصغير. ومرت السنوات الثلاث الأولى سريعة كالبرق، أحس توما فيها بالرضى عن جهوده في مساندة صديقه قولا وفعلا.

في الصباح الباكر من يوم ٢٢ أيار/مايو عام ١٩٠٠ قصد السيد محمد الخطيب، السكرتير الخاص للسلطان، عدة وزراء وبعض الحكماء من الرجال والنساء، ودعاهم جميعا لحضور اجتماع سري هام في حضرة السلطان في مساء ذلك اليوم نفسه.

امتلأت قاعة الاستقبال بالمدعوين وغمرتها همهمة قلقة. حيّا توماس جلالة السلطان بمودة حارة ثم أخذ مكانه المخصص على يمينه، بينما جلس على يسار السلطان كاتب القصر عبد الله الفردوسي، وهو علاّمة قدير يُعدّ أسطوريا في قوة ذاكرته وسرعته بالكتابة.

وهذه كلمة السلطان الشاب التي باشر كاتب البروتوكول بتسجيلها: «بسم الله الرحمن الرحيم. إنني لا أكلّ عن التفكير، أي مجهود كبير علينا بذله، حتى نحمي وطننا من الغرق في دوامة البحر الهائج. إن العالم في تغير.. العالم هو البحر وإيقاعاته هي الأمواج.. وزمننا ينذر بأمواج عالية. صحيح أنه من الممكن قطع المسافة من جزيرتنا حلم حتى الأرض اليابسة ثم العودة إليها سباحة، وأنا شخصيا أعرف عددا من أبطال السباحة الذين يحققون ذلك بنجاح في حالة طقس جيد، لكن ما العمل والطقس لم يعد جيدا ومناسبا، والأمواج باتت تتراكم وتعلو كالجبال. إن من يتجاهل تقدّم العالم يحكم على نفسه بالضياع، تماما كمن يقفز إلى البحر في جو عاصف وهو يقنع نفسه ويقنع الآخرين: أنني أصل دائما إلى الشاطئ سالما.

لكن الأمواج العالية لن ترحمه، إنها ستعمل منه كرة ملعب، وستدفنه في أعماق بطنها. ألم يكن من الأفضل له في هذا الطقس

السيّئ أن يأخذ سفينة متينة ذات شراع قوي، قادرة على العوم به فوق الأمواج في خط سير واضح والوصول به إلى ضفة الأمان؟

إني أرغب وأتمنى أن نبني هذه السفينة معا وأن نثبت أشرعتها سويا، لكن وحتى لو أنجزنا ذلك، لا أستطيع ان أجزم لكم أننا سنصل إلى الضفة الأخرى سالمين.

إن الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار، والبريطانيون يمدون أيديهم إلى بلاد العرب التي تعوم على بحر من البترول. وها قد أضحى جنوب إيران، وكل من اليمن وعُمان ومسقط والبحرين وقطر ومعظم مناطق الشاطئ العربي في أيدي البريطانيين وتحت احتلالهم، مما حدا باللورد كورتسن، الحاكم العام البريطاني وحاكم الهند، وصف الخليج الفارسي بأنه بحيرة داخلية بريطانية. إنكم بالتأكيد على علم أن أمير الكويت محمد الصباح المعروف بمعارضته لبريطانيا، كان قد قُتل مع أحد أهم مستشاريه في عام ١٨٩٦، وحل محله في الحكم أخوه مبارك، الذي قام بتوقيع معاهدة سرية مع البريطانيين قبل وقت قريب، كما أعلمتني مخابراتنا.

أما الألمان فهم يحاولون من جهتهم العمل لصالح العثمانيين ومساندتهم عن طريق إعطائهم القروض وتزويدهم بمستشاري الجيش ومساعدتهم في بناء السكك الحديدية. وهم يهدفون من وراء ذلك إلى ضمان مساعدة العثمانيين لهم في تحقيق خططهم الخاصة. وقد حصل الألمان في السنة الماضية على عقد لمد خط السكة الحديد من استنبول حتى الخليج مرورا بالأناضول وشرق بلاد العرب، على أن تكون الكويت هي محطته النهائية. والهدف

من وراء هذا الخط البري هو تحاشي القوة البحرية البريطانية من جهة، وربط ألمانيا مباشرة ببلاد العرب من جهة أخرى.

إنها بالتأكيد فكرة عظيمة، فالقطار الشرقي السريع يربط حاليا كل من باريس وشتوتجارت وميونخ وفيينا وبودابست واستنبول، ولو نفّذ الخط الجديد، فلن نحتاج نحن في الخليج إلا إلى سفرة قصيرة لنرتبط مباشرة بأهم العواصم الأوروبية، وبالتالي فكل ما ينتج في باريس وبرلين وفيينا أو بودابست يمكن أن يتوفر لدينا بعد أسبوع واحد فقط.

قبل سنتين قام القيصر الألماني فيلهلم الثاني بزيارة الشرق للمرة الثانية، حتى يبرهن لاستنبول أن الألمان أصدقاء يعتمد عليهم. وبالطبع غضب الإنجليز بسبب التقارب بين العثمانيين والألمان وبسبب مشروع مد السكة الحديد، ورأوا أن قوتهم في الخليج أصبحت مهددة.

ونحن.. نجد أنفسنا الآن واقفين وسط صراع العمالقة. وأعيد مرة أخرى: إن جزيرة حلم تقع في حلبة صراع عنيف. وسيصبح الخليج القلب النابض للمدنية بسبب موقعه وموارده المعدنية. إننا في الماضي قدمنا أربع ديانات عالمية وفي الحاضر نقدم الطاقة للآلات.

إن الأوروبيين سيأتون لا محاله. لا أقول هذا رغبة مني، لكن تطور الأمور يشير إلى ذلك. يجب علينا أن نكون على استعداد تام، أن نأخذ منهم ما يناسبنا ونترك ما لا يناسبنا. بهذه الطريقة فقط ستتوفر لنا قوة كافية تمكننا من فتح الباب أمام العالم أجمع والترحيب به.

يتضح من هذا كله الأهمية الكبيرة لتطوير مينائنا. . إننا نرفض الاختباء وراء شعاب البحر التي يتعذّر المرور فيها، بل نهدف الوصول بموانئنا إلى أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا لتكون بمثابة إشارة ترحيبنا بالعالم كله.

وكموانئنا، يجب أن تتفتح نفوسنا أيضاً. لذلك قررت أن أرسل أفضل طلابنا إلى جميع أنحاء العالم حتى يجمعوا المعرفة والخبرة، وسنبحث معهم بعد عودتهم إلى البلاد أفضل الطرق التي يتحتم علينا أن نشقها لبناء وطننا.

وعلى حد تعبير المربية سيدة، اذا أراد الإنسان أن يتعرف على شعب ما، عليه أولا أن يقرأ أدبه. إنني مثلا أستطيع أن أقول إنني أعرف كيف يعيش ويحس ويفكر الناس في أمريكا وفرنسا، هذا مع أنني لم أزرهما أبدا. فمن خلال رواية جيدة يتفتح أمام عينَي القارئ كل ما يتعلق بهذا البلد أو ذاك.

ولهذه الأسباب كلها قررت إرسال عشرة باحثين إلى أهم الدول الأوروبية: ألمانيا، بريطانيا، فرنسا، روسيا، أسبانيا، برتغال، المجر، سويسرا، إيطاليا، والسويد، على أن يقضوا هناك عاما كاملا يعرضون بعده توصياتهم حول أهم شعراء وفلاسفة هذه الشعوب أمام لجنة سرية تحت إشرافي. وستقوم هذه اللجنة باختيار أفضل هؤلاء الشعراء والشاعرات، حيث سنقرر تدريس أعمالهم في مدارسنا وجامعاتنا في المستقبل حتى يتعرف أطفالنا وفتياننا على ثقافات العالم المختلفة ولا يكونوا بمعزل عنها.

لقد عزمنا أن نبني بعلومنا قنوات وسدودا، وليأت بعد ذلك الطوفان. القنوات ستنقل كل ما نحتاج إليه إلى حيث الحاجة إليه

شديدة وهامة، والسدود ستحمينا من كل ما لا نحتاج إليه. وإلا لن نكون في وضع يسمح لنا بفهم الأوروبيين.

يجب على أطفالنا وفتياننا أن يعرفوا من هم هؤلاء الأغراب. يجب علينا احترامهم لكن في الوقت نفسه مواجهتهم بثقة. قد يعتبر معارضونا أن هذه مجرد أحلام غير ممكنة التنفيذ، لكن علينا ألا ننسى أن الحقائق في البداية تكون دائما مجرد أحلام. وحتى تنمو الجذور الأولى لهذه الاحلام وتتمدد، سنبدأ اليوم قبل الغد بتشييد مركز الحكمة الكبير لكل الشعوب. وسيكون مطابقا لنموذج بيت الحكمة الذي بناه الخليفة المأمون في بغداد قبل أكثر من ألف عام.

وسيقوم بيت الحكمة لدينا باستضافة مترجمين يعملون فيه ويتبادلون الخبرات. وسندفع لهم المرتبات العالية، لأن عملهم سيكون شاقا وحساسا وعلى أكتافهم تقع مسؤولية كبيرة. وقد كان الخليفة المأمون، المشجع الأكبر للعلوم على وعي بذلك، ونحن نسير على نهجه.

وسيكون العلامة طاهر عارف مسؤولا عن هذا البيت. ومن المعروف أنه عالم مشهور وجدت أعماله إقرارا واستحسانا في باريس وروما ولندن، لكنه رغم ذلك قرر العودة إلى جزيرته الصغيرة.

إنّ الحظ يقف بجانب جهدنا في جزيرتنا، لأنها دائما وأبدا تعامل الأغراب معاملة ودية وفي الوقت نفسه تستفيد من مخالطتهم لها. ومن بين هؤلاء الأجانب الذين يعيشون برغبتهم بيننا ويعود

أصلهم إلى دول أوروبية أحضر لي وزير الإعلام صباح هذا اليوم قائمة بأسماء سبعة رجال وثلاث نساء، سيغادروننا قريبا إلى بلاد لغتهم الأم، ويقدمون لنا بعد رجوعهم نماذج عن أفضل ما أنتجه الفكر في تلك البلاد. ومن ضمنهم سيكون أخي توما نفسه إذ سيذهب إلى المانيا. ونطلب من الله أن يساعدنا جميعا لنصل إلى الضفة الأخرى عبر هذا الطريق.»

تقرير الأمير توما
حول صلاحية شعر
يوهان فولفغانغ فون غوته
للبلاد الشرقية

هذا التقرير كُتب بعون الله
من قبل عبد الله الفردوسي
كاتب قصر حاكم جزيرة خلم
السلطان حكيم بن زكي الخليجي
باركه الله وحفظه

الليلة الأولى

التي دار فيها الحديث عن آلام
الشاب فيرتر وعن الحب المطلق

مكتبة
t.me/soramnqraa

ودّع توما الجميع في الجزيرة وشق طريقه الطويل إلى برلين حيث قضى هناك سنة كاملة. ولما عاد إلى البلاد احتاج إلى حافلة نقل صغيرة لكي تحمل له جميع الكتب والدفاتر التي جمعها في ألمانيا وأحضرها معه إلى جزيرة حلم. قام سلطاننا المحبوب شخصيا باستقبال الأمير توما في الميناء واحتفل بقدومه بكل تشريف وتكريم، وقضى المستقبلون معه أمسية جميلة لم يتوقف فيها الأمير عن سرد مغامراته في ألمانيا، وهي مغامرات كان من الممكن أن يُكتب حولها كتاب كبير خاص بها، غير ان جلالة السلطان حكيم بن زكي الخليجي لم يرغب في تدوين أية ملاحظة في ذلك المساء.

قبل أن يمثل توما أمام اللجنة توفرت له فترة تحضير لمدة نصف سنة، وهي بالتأكيد ليست فترة طويلة، فاللجنة صعبة ومتشددة، وقد رفضت حتى الآن أكثر من نصف الشعراء المقترحين من الدول الأخرى. مما حدا بالمحاضرين جميعا أن يدركوا أن السلطان ولجنته يأخذون الأمر بجدية تامة، والأجدر

بهم أن يحاولوا عرض أعمال شعرائهم ومفكريهم بطريقة أكثر إقناعا.

وكان السلطان يعيد على مسامع من يتحدث أمام اللجنة الكلمات التالية: «أحسن استغلال وقتك وأقنعنا. هناك آخرون يريدون عرض أعمال شعرائهم ومفكريهم. لذلك لن يأتي دورك مرة أخرى هذا إذا جاء قبل أن يمر نصف عام. إننا نسمح لك في هذه الحلقة باستعمال مختلف الوسائل للتغزل بالمحبوب الذي انتقيته، على أن تتحاشى شيئا واحدا، ألا وهو أن تسبب لنا الملل.»

وأعاد الكلمات نفسها على مسامع صديقه الحميم الأمير توما عندما جاء دوره. وهذا هو البروتوكول الذي كتبته بكل أمانة وإخلاص.

وقف الأمير توما وسط الصالة الزرقاء الصغيرة، وجلس حوله أعضاء اللجنة في نصف دائرة توسطها السلطان في المكان المقابل للأمير مباشرة. وهي لجنة مكوّنة من اثني عشر عضوا، أربع نساء وثمانية رجال علاوة على السلطان حكيم الذي يديرها ويمثل عضوها الثالث عشر. أما أسماء الأعضاء فتبقى سرا كما بقيت في التقارير السابقة حتى يتسنى لهم التعبير عن آرائهم بحرية كاملة.

بدأ توما بالحديث:

الأخ العزيز والحاكم العادل حكيم،

حضرة السيدات والسادة العلماء أعضاء اللجنة،

إنه لشرف لي أن اعرّفكم على أحد أعظم المفكرين الألمان. فمن أراد ان يفهم الروح الألمانية، عليه أن يقرأ على الأقل غوته ونيتشه وهاينه وشوبنهاور. وقد أحضرت معي بجانب أعمال هؤلاء الأدباء الكبار أعمال أدباء آخرين أيضاً. وإذا أذنتم لي فسأعرضها عليكم على مدى السنوات القادمة بالتدريج.

واليوم سأبدأ بأمير هؤلاء المفكرين والشعراء يوهان فولفغانغ فون غوته.

إن حياة الشاعر العظيم يوهان فولفغانغ فون غوته غنية ومتعددة النواحي، حتى أن تجسيمها وتوضيحها لكم نوعا ما يحتاج مني سبع ليال كاملة على أقل تقدير، ومع ذلك لن تكون حصيلتكم في النهاية أكثر من هيكل للحقائق وليس الأرضية الكاملة لشعره. ولكن كيف لي أن أقف أمامكم وأتحدث سبع ليال كاملة عن تاريخ حياة الشاعر، دون أن أتطرق إلى أعماله الكبيرة الشهيرة؟ بالتأكيد ستحثونني عندئذ على الخوض فيها، خصوصا أنها صلب موضوعنا. أما إذا أردت أنا اختصار سيرته وسردها في مساء واحد، فسأسيء بالتأكيد لغوته ولكم، لأنه سيكون من المستحيل عليّ حينئذ إلقاء الضوء على جميع جوانب حياة الشاعر الحافلة، ولن تكون النتيجة أكثر من تقرير جاف يمحو كل لون من حياته الساطعة.

لذلك أفضل أن أقفز مباشرة إلى إنتاجه الأدبي وإلى محيط أشعاره، فأترك أمواجه تحملكم وإلى عمقها تخطفكم. فأشعار غوته جلية واضحة على الدوام، حية وباقية على الزمن.

بعد أن أفرغ كل ما في جعبتي من ثمار هذا المفكر الكبير،

وأنهي تقريري الكامل عنه، سأسلم كاتب التقرير بعض الوثائق التي تتحدث عن حياته، والتي تحتوي على أهم تواريخ ومنجزات هذا الرجل العظيم.

العمل الأول الذي سأقدم لكم به غوته هو رواية آلام الشاب فيرتر.. رواية شهرت الشاعر الشاب بين ليلة وضحاها، وموضوعها البحث عن الحب المطلق الذي لا مجال لتحقيقه.»

ضحك السلطان قائلا: «يا الله، لا بد أن قلب غوته كان ينبض بطريقة شرقية، فأكثر من نصف أشعارنا تدور حول الحب الفاشل. انظروا مثلا إلى قيس وليلى اللذين انشهرا من خلال قصة مجنون ليلى.. قصة عانى الحب فيها ومنع، لا لشيء إلا لأن قيس تغنى بجمال حبيبته بصوت عال، مما أثار حفيظة أبيها ورأى فيه عارا جعله يزوج ابنته من غير حبيبها قيس... هنا فقد قيس عقله وهام على وجهه يغني لحبيبته حتى مات بائسا. ثم جاء اليوم الذي لم يعد أحد يعرف اسمه الحقيقي، فلقّب بالمجنون.. مجنون ليلى.»

أشعلت هذه الكلمات عند أعضاء اللجنة ذكرى ألف ليلة وليلة، لما تحويه من قصص مشابهة حول الحب المطلق والحب الممنوع، فاختلطت الأصوات في القاعة ولم أستطع أنا كاتب التقرير سماع جملة واحدة مفيدة، لكن من لفت نظري كان الأمير توما وهو يقف وحيدا والابتسامة تعلو شفتيه...

دعا السلطان الأعضاء إلى الهدوء، إلا أن العواطف باتت هائجة ولم ينجح رجاء السلطان إلا إلى القدر الذي أتاح لي التقاط

الكلمات خلال تشابك الأصوات.

قالت عالمة شابة: «إن معاناة الرجال فقط هي التي تُكتب وتُوصف بإسهاب، وهذا ما يزعجني دائما حتى إنني قمت أثناء دراستي أكثر من مرة بجمع أبيات شعر تتحدث عن عذاب الطرف الآخر في مثل هذه المآسي وهي المرأة، ووجدت انها لا تزيد على العشرة بالمائة.»

فعلّق علامة أعمى كبير في السن بصوت موسيقي: «الله هو العالم، ربما تكون النساء هن الجنس الأقوى عندما يتعلق الأمر بالعقل، بينما نفوس الرجال في حقيقتها ليست سوى مخلوقات شاكية.»

رد أحد الرجال الشباب صائحا: «حسنا.. حسنا، لكن دعونا الآن نستمع إلى الامير توما وهو يحكي لنا عن الحب الفاشل بلسان غوته.»

هدأت حلقة الرجال والنساء.

وبدأ توما: «إن رواية آلام الشاب فيرتر هي أحد أهم أعمال المعلم الكبير. بل لو كان عليّ أن أقف امام هذه اللجنة في الوقت الذي عاش فيه غوته، لقلت على ما اعتقد، إنها أهم أعماله على الإطلاق. وفعلا اعتبرها الناس كذلك، وربطوا اسمه بها فترة طويلة. حتى أن الامبراطور الفرنسي نابليون الأول عندما قابل الشاعر وهو في قمة مجده، خمس وعشرين سنة بعد إبداع الرواية، بادره فورا بمناقشتها، مما جعل غوته يتبين راضيا أن نابوليون «لا بد أنه درس الرواية دراسة كاملة مستفيضة». وفعلا كان كتاب آلام فيرتر من أحب الكتب إلى نابليون، له مكان

محفوظ في مكتبة الميدان بجانب مؤلفات كتّاب الثورة الفرنسية فولتير وروسو اللذين حظيا باحترام وحب الامبراطور.

لقد أسر غوته بكتابه فيرتر جيلا بأكمله، ليس فقط في ألمانيا، بل في جميع أنحاء أوروبا. وما يثير الدهشة أن الشاعر عندما كتب هذه الرواية في فبراير / مارس عام ١٧٧٤، لم يكن عمره يزيد على خمسة وعشرين عاما وكتبها في مدة لا تزيد على الأربعة أسابيع. كان قد بدأ في تحضيرها سنتين قبل ذلك، في فترة عانى فيها هو نفسه من قصة حب فاشلة. وعلى ذلك من السهل تفسير سرعة صياغة الرواية على الورق برغبة غوته في التحرر من ذكرياته الخاصة. إنها بلا شك إنجاز رائع، خصوصا أنها لشخص لم يكن قد نشر قبلها غير مسرحية واحدة وعدد من الأشعار.

لم يكن ممكنا نشر فيرتر بين الناس بالسرعة التي يتمنونها. ومع أن المؤلف أصدر طبعتين جديدتين مصححتين في العام نفسه، إلا أنها لم تلبِّ الطلب الشديد على الرواية أيضاً، فظهرت طبعات مسروقة أرضت- رغم أخطائها الكثيرة- حب الاستطلاع لدى القراء، خصوصا أن قصة غوته تصدرت المناقشة في كل المحافل والصالونات الأدبية.

فيم العجب إذن وقد ألَّف غوته قصة مسّت الروح وبلبلت الفكر وكان لها مفعول ضربة أيقظ بها الشاعر مجتمعه من سباته... مجتمعاً كان يشعر بالرضى عن حاله، ويؤمن بالعقل وحده طريقا للتقدم، ويحيل أي أحاسيس أخرى إلى دواليبها. وكما هي العادة في مثل هذه القضايا، فالثائرون على الآباء هم

الأبناء، وهم من جاءت رواية غوته في صالحهم تماما، لأنها تحكي قصة حب مطلق لا حدود له، لا تعترف بشروط المجتمع، بل تتبع وتسمع صوتا واحدا هو صوت القلب.

سأسرد الرواية في خطوطها العريضة، وآمل أن يحالفني النجاح في نقلها إليكم لتعيشوا أحداثها ولو قليلا. ان فيرتر يستحق كل انتباهكم.»

أخذ توما استراحة قصيرة حتى يشرب من الشاي الذي فاحت منه رائحة النعناع العطرة وملأت كل أنحاء القاعة، بينما بدت اللجنة مترقبة متلهفة لسماع قصة فيرتر، بعد سماع المقدمة المشوقة. ولحسن الحظ لاحظ المحاضر ذلك، فأخذ من الشاي رشفة واحدة فقط، وأعاد القدح إلى مكانه في الحال مما أحدث صوت ارتطام خفيف. وبدأ مباشرة:

«كان فيرتر شابا تائها دون هدف، يقضي يومه دون إنجازات أو أهداف تذكر، يرسم أحيانا لكن ليس بجدية فنان حقيقي. رزقه موفور، وبالتالي كان بإمكانه أن يتجول في العالم ويتأمله كما يحلو له. وأثناء هذا التجوال يداخله دائما إحساس بالحرية والتحلل من كل الارتباطات مع الماضي: «**تسألني هل ترسل لي كتبي؟ وأنا أناشدك الله أن تعفيني من هذا النير! فلا حاجة بي لمن يقودني ويثيرني ويبث الحرارة في نفسي لأن فؤادي يختمر من تلقاء نفسه.**»

هذا ما يكتبه فيرتر إلى صديقه فيلهلم، وهو الصديق الوحيد الذي يبقى فيرتر على اتصال معه أثناء رحلته ويوافيه بأخباره بانتظام. وتشكل رسائله له بمجموعها حوالي نصف الرواية.

وفي رسالة أخرى يكتب إلى فيلهلم: «**نجحت في عقد صلات شتى، لكني لم أجد مجتمعا بمعنى الكلمة. إنهم في معظمهم يكدون في معظم الأوقات للحصول على قوتهم. أما القسط اليسير من الحرية المتاح لهم، فيزعجهم بحيث يجتهدون بشتى الطرق كي يتخلصوا منه. إنه قدر الإنسان!**»

يحاول فيرتر أن يتهرب من هذا القهر الاجتماعي، فيسخر من الناس التي لا تتباهى إلا بعلومها، بينما تهمل الأحاسيس، الجوهرية في نظره، ولا تعطيها أدنى اهتمام. فيعارضهم بقوله: «**إني أعود إلى داخل نفسي وأجد عالما.**»

وعندما يأتي الحديث عن الحب، يسخر فيرتر أيضاً من الأحاسيس المزيفة لأهل المجتمع البرجوازي ويستعمل لذلك كلماتهم الخاصة: «**أيها الشاب الوقور! الحب شيء طبيعي، لكن يجب أن تحب بطريقة حكيمة. قسم ساعاتك، خصص جانبا منها للعمل وامنح ساعات راحتك واسترخائك لمحبوبتك. إحسب مقدار ثروتك، ومن فائضها لا يمنعك أحد من تقديم الهدايا إليها، ليس في أوقات متقاربة بل بالمناسبات مثل عيد ميلادها أو عيد اسم عمادها.**»

فحتى في رسائل فيرتر الأولى يظهر حنينه وتحرّقه إلى الحب الحقيقي واضحا، الحب الذي سيعطي حياته معنى وسيصبح مقياسها الوحيد. وكما ترون يخلق غوته من فيرتر إنسانا معجونا بالأحاسيس، مفتقدا للعزيمة وشدة البأس.

أخيرا تجد أحاسيس فيرتر الهائمة هدفها في لوته (واسمها الكامل شارلوته) ابنة الشريف أمتمان. وهي فتاة ذات ستة عشر

ربيعا، ترعى إخوتها الأحد عشر الأصغر منها رعاية أمينة مخلصة، وكان هذا وعدا أعطته لأمها وهي على فراش الموت.

هكذا يقع فيرتر العاطفي في حب فتاة بالذات دون غيرها.. فتاة تتمتع بشخصية عملية حازمة وتحمل مسؤولية كبيرة، أي على العكس منه تماما. لكن هل في الحب مشورة وعقلانية! استفهام ينطبق على فيرتر في معنى مزدوج صعب، فلوته ليست فتاة عملية فقط، لكنها مخطوبة أيضاً «**لرجل فاضل جدا، سافر لتسوية أحواله التجارية وتشغيل أمواله ضمانا للرزق**» كما يسمع فيرتر.

لم يشغل فيرتر باله بهذا كله، إنه إنسان محب حتى الثمالة وكل ما يرنو إليه هو قرب لوته، ولهدفه هذا يمشي المسافة الطويلة إلى بيت عائلتها أمتمان ليزورها يوميا، كما لا يجد أدنى صعوبة في تجاهل العريس الغائب ألبرت. لكن ماذا عن لوته؟ إنها تحس بانجذاب نحو فيرتر أيضاً، فهو يحسّسها بشبابها وجمالها ويحيطها بحبه الهائم.

وحتى يسهل فيرتر الأمور على لوته يجلس مع إخوتها الأطفال ويلعب معهم دون أدنى حساب للعادات الاجتماعية. فغايته الوحيدة أن يكون بجانبها دون أن يضايقه نشاطها البتة... شتان ما بين طباعه وطباعها، فهي شديدة البأس، نشيطة ودائمة الحركة باستمرار، تجدها مرة هنا وأخرى هناك، تخدم عائلتها الكبيرة أمتمان أو تساعد صديقة تحتضر.

في أحد الأيام يذهب الاثنان لزيارة قسيس يسكن مع عائلته خارج المدينة، في بيت تظلل ساحته الكبيرة شجرتا جوز معمرتان تتشابك قممهما وتتعانق وكأنها مظلة حية. ما إن يراهما فيرتر حتى

تصبحا في عينيه رمز الحب الذي يهفو إليه ويتمناه.

ستة أسابيع كاملة تدوم فيها هذه السعادة يعود بعدها ألبرت. ويقرر فيرتر بقلب محزون أن يغادر.

ويكتب لصديقه: . . . . **«لم أطق أن أراه متملكا لهذا الكمال هنا. أأقول متملكا؟ . . حسبي هذا يا فيلهلم. الخطيب هنا! وهو شاب وسيم فاضل لا يملك المرء إلا أن يستلطفه. من حسن حظي أني لم أكن موجودا عندما التقيا»!** هل تحسون بالجرح العميق الذي تتحدث عنه هذه السطور؟ إن فيرتر يصيغ ذلك صراحة في رسالة جديدة إلى صديقه فيلهلم بعد تسعة أيام فقط: **«أتراك تطلب إلى مخلوق تعس تذوي حياته ببطء تحت وطأة داء خفي كاد أن يجهز على حياته دفعة واحدة وعلى الفور بطعنة خنجر قاضية؟ أوليس الاختلال أو السوء نفسه الذي ينهك قواه ويستنزفها خائفا أن يجرده في الوقت نفسه من الشجاعة اللازمة للإقدام على ذلك؟»**

فيرتر في يأسه وقنوطه يطلب من ألبرت أن يعيره مسدسين لحاجته إليهما في رحلة: خطة فرار إلى الجبال.

وفي حضور ألبرت يصوب فيرتر فوهة المسدس إلى صدغه مازحا، لكن كيف لألبرت أن يفهم إنسانا يمكن أن يكون من الحماقة، بحيث ينهي حياته بنفسه.

يصيح فيرتر: **«أنتم يا أهل الفهم السليم ! تقولون ببساطة هذا تهور! سكر! جنون! فأنتم أيها الأخلاقيون تبالغون في الهدوء والانضباط وتحتقرون المخمورين والمتهورين وتمرون عليهم مرور الكرام وتشكرون الرب كالفريسين لأنكم لستم مثلهم. أما أنا فقد**

سكرت وغاب رشدي أكثر من مرة، وعواطفي لم تكن بعيدة أبدا عن التهور، لكني لا أندم على ذلك أبدا.»

تلمسون هنا العقدة التي تخترق الرواية بأكملها: يتعذر على ألبرت، الرجل الحازم العاقل، أن يتجاوب بتعاطف مع طبيعة فيرتر الهائمة أو أن يسلّم بمثله العليا في الحب المطلق.

مع ذلك لم يكن ألبرت هو الذي يُبعد فيرتر عن البيت. لا، العكس هو الصحيح. ألبرت كان أقرب إلى البحث عن صداقة فيرتر، حتى أنه يهديه في عيد ميلاده «**أحد الأشرطة الوردية التي كانت شارلوته تزين به ثوبها في أول مرة وقع نظري عليها والتي طلبته منها عدة مرات.**»

لكن الحب الجارف الذي يلهب قلب فيرتر لا يعترف بحلول وسط. فما دام ممنوعا من حبها حبا مطلقا، ويفتقد أي حق عليها، يقرر أن يتركها لحالها، حتى وإن تمزق قلبه لوعة وألما، فيخرج هاربا دون كلمة وداع واحدة.

وهكذا ينتهي الفصل الأول من فيرتر.»

توقف توما عن الكلام ومدّ يده مباشرة إلى قدح الشاي، فلا بد أن ريقه جف تماما من السرد الطويل. لكن لحظة عطشه هذه بدت لنا نحن المستمعين غير مناسبة على الإطلاق، لأننا كنا نتابع بكل حواسنا، ما سيصير إليه أمر فيرتر؟ وهل أخذ معه مسدس ألبرت؟ ولحسن الحظ ومع اضطراب القاعة، لاحظ توما بسرعة ما يؤرقنا، فأعاد القدح إلى مكانه وأوضح: «أرجو من اللجنة أن تغفر

لي عدم انتباهي. لا، لم يأت ذكر المسدسين إلا باختصار أثناء الحديث بين ألبرت وفيرتر الذي ذكرته سابقا. وللعلم لم يقم فيرتر بالهرب إلى الجبال. وحتى عندما يقرر لنفسه الابتعاد عن لوته وألبرت، لم يجرؤ أن يطلب السلاح من ألبرت مرة أخرى، لا سيما أنه أراد أن يحفظ ما يرمي إليه سرا عنهما.»

أحسسنا بالارتياح، وجادت اللجنة على محاضرنا باستراحة يستحقها، ولا أنكر أنني كنت في حاجة إليها أيضاً، حتى أريح يدي التي شنجتها الكتابة. لكن توما لم يطل استراحتة أكثر مما ينبغي لحرصه الشديد أن يبقى الجزء الأول لقصته حاضرا في آذان وأذهان مستمعيه عندما يباشر بسرد الجزء الثاني:

«لكن ما عسى فيرتر أن يفعل في عالم ارتحله بهذا التهور.. لا يعرف هدفا آخر غير الحب، ولا حب صوب عينيه غير حبه للوته؟ إنه يعاني ويتألم منذ أن ترك لوته مع ألبرت. وعندما يحل الخريف دون أن يطرأ تحسن يذكر على حاله الصعب، يقرر الالتحاق بالحرب علّه يخلف وراءه ما يؤلمه، فيقصد جنرالا يعرفه، ينصحه على الفور بالعدول عن مشروعه، وقد لمس افتقاده الكامل لكل حماس للحرب.

هل ترون هنا كيف أن فيرتر يفشل أيضاً عندما يحاول التصرف بطريقة عملية حازمة؟ إن الحب هو قوّته الدافعة، وبدون الحب يضحى إنسانا تائها لا هدف له ولا غاية. ويكتب إلى فيلهلم: »**إلى أين أنوي الذهاب؟ سأفضي إليك وحدك، أراني مضطرا للبقاء هنا أسبوعين آخرين، بعد ذلك أعتقد أنه من الخير**

لي أن أزور مناجم الفحم، لكني أضلل نفسي هكذا.. إنني في الواقع لا أريد إلا أن أحيا بالقرب من شارلوته، هذا كل شيء. إنني أهزأ من قلبي ولكني أفعل ما يمليه علي.»

من المؤكد أن فيرتر لا يفتقر فقط إلى بيان الرؤيا والهدف، بل يستسلم كلية للتيه الذي يعيشه، لاعتقاده الراسخ أن هذا التيه جزء لا يتجزأ من حبه المطلق. فبعد أن يقضى عدة أشهر بعيدا عن لوته وألبرت، يتغير تفكيره ويأخذ اتجاها مغايرا عن قبل إذ يرى في نفسه الشخص الوحيد الذي يملك الحق الحقيقي في لوته. **«هل لي أن أعترف يا فيلهلم؟ ولم لا؟ من المؤكد أنها كانت ستكون أسعد حظا معي مما هي معه. ألبرت ليس الرجل الذي يرضي رغائب مثل هذا القلب.. إنه يفتقر إلى حساسية شفافة.. نعم يفتقر إلى... افهم كما تريد.»**

كما أنه لم يعد ينصف ألبرت، بل يترك العنان لخياله.. ويتصور ماذا سيحدث لو مات ألبرت. ويقول: **«إني لأعجز أحيانا عن فهم كيف تستطيع أن تحب رجلا آخر، بل وكيف تجرؤ أن تحب رجلا آخر، في حين أنها الوحيدة التي أحبها.. من كل خلجات قلبي.. حبا تاما.. لا أعرف سواها ولا أملك في الدنيا غيرها.»**

وفي الوقت نفسه يؤمن أنه يجب أن يحصل على ما يعتبره حقه مهما كلفه الأمر، وأن روحه ستبقى مريضة ما دام لم يعرف عشقه الارتواء. لكن كيف له أن يشفي هذه الروح وقد أصبح حلمه مستحيلا بعد أن تزوج شارلوته وألبرت، ولم تعد معشوقته تعيش في بيت عائلتها أمتمان، بل مع زوجها.

ويقرر فيرتر زيارتهما، وهناك يوقن على الفور أنه لم يعد له مكان عندهما، وأن ألبرت هذه المرة أقل سعادة بحضوره عن السابق. فيهرب إلى بيت القسيس البعيد، ويفاجأ باختفاء شجرتي الجوز الرائعتين، ويسمع أن زوجة القسيس الجديد أمرت بقطعهما لحجبهما الضوء عنها، فتسوء حالته النفسية ويحس بقلق في روحه، ويسيطر على ذهنه تفكير واحد فقط: ما طول المدة التي سيتمكن فيها لوته وألبرت من سد الفجوة التي ستمزق حياتهما بموته.

إن فيرتر يعرف في قرارة نفسه ويدرك تماما أنه ليس ثمة وسيلة متوفرة أمامه يستطيع من خلالها كسب حب حياته وأمله الكبير.

«ما أشد ما أعاني لأنني فقدت سحر حياتي الأوحد، فتلك القوة الفعالة الناشطة القدسية التي كانت تخلق العالم من حولي، لم يعد لها وجود.»

ويلمس أيضاً كيف تتعقد الأمور بالنسبة إلى لوته. لكن من الذي يلح الآن على أن يختفي فيرتر يا ترى؟ لوته أم ألبرت؟ لا فرق. لوته تخشى أن يتحطم زواجها على يد فيرتر إذا بقي على مقربة منها مدة أطول. لذلك ترجوه أن يبقى بعيدا، على الأقل في الأيام السابقة لعيد الميلاد. وإذا كان يرغب في مشاركتهما فرحة الاحتفال بالعيد، فليأت إليهما في ليلته وليس قبلها. ولكن كيف لفيرتر أن يستوعب طلب لوته ويبتعد عنها في الأيام السابقة للعيد، وقد تبين له أن ألبرت سيكون غائبا أثناءها! هل يعقل أن تكون لوته وحدها في البيت، ويتحتم عليه ألا يزورها؟ ألم يتمنَّ منذ

زمن طويل أن يحالفه الحظ في يوم من الأيام ويحظى بلقاء معشوقته وحدها؟ كيف له أن يتحمل قنوطا أكثر؟ هل عليه أن يكون أكثر مراعاة وأكثر انصياعا؟ أيجب أن يتكيف مع اللياقة البرجوازية التي ينبذها؟ ماذا يفعل وانجذابه الشديد إلى لوته يجعله يتجاهل رجاءها، بل يعتقد أن حبه وهواه اللانهائي يحتمان عليه رفضه. وبينما هو لا يزال عندها يحدث ما هو أكثر.. قبلة تلهّف عليها طويلا.

لوته تهتف بصوت مخنوق وهي تشيح عنه: «**فيرتر! هذه هي المرة الأخيرة يا فيرتر! لن تراني بعد الآن.**» كيف لها في لحظة كهذه أن تتصرف على نحو آخر، حتى وإن كانت تحبه. لوته قبّلت فيرتر أيضاً وضغطت يده على صدرها. لكن إذا كان مراد لوته إنقاذ حياتها الزوجية، فيجب عليها أن تودع فيرتر وداعا لا رجعة فيه.

منذ زمن وفكرة الموت تراود فيرتر وتشغل تفكيره، وها هي الآن تتملكه وتسيطر عليه وليس من مجال لكبح جماحها. فكم تأمَّل ووعد نفسه بالراحة النفسية وبالتحرر من جميع القواعد الدنيوية من خلال حبه العميق للوته، لكن منذ أن عاد لزيارة حبيبته وزوجها ألبرت في الخريف، وهو يعيش عكس ما تهفو إليه نفسه .. يعيش حبا فاشلا يجعل استمراره في الحياة مستحيلا. إذن لن يحرره ويخلصه من عذاب هواه إلا الموت.

في النهاية يكتب فيرتر رسالة إلى ألبرت يطلب منه مرة أخرى نفس ما طلبه في نهاية الفصل الأول «**أتقبل أن تعيرني مسدسيك آخذهما معي في رحلة أنوي القيام بها؟ عش سعيدا يا ألبرت!**»

ألبرت وقد رجع من سفره ولاحظ على لوته أن ثمة شيئاً حدث في غيابه، كلفها هي دون غيرها بتسليم المسدسين إلى فيرتر. فهل هناك لفيرتر أجمل من رهن الحب هذا؟ «**أنت يا روح السماء تؤيدين ما أعزم عليه. وأنت يا شارلوته تقدمين لي هذه الوسائل المميتة بنفسك. لقد كانت أمنيتي أن أتلقى منيتي من يديك. وها هي رغبتي قد تحققت.**»

ويطلق فيرتر النار على نفسه. وتنتهي بذلك رواية غوته آلام الشاب فيرتر.

وسكت توما. رفعت رأسي عن أوراقي أنا كاتب البروتوكول، وبنظرة سريعة على أعضاء اللجنة لاحظت مدى تأثر مشاعرهم من قصة الحب الحزينة، ومدى ما يبذلونه للتحرر من أجوائها والعودة إلى الواقع، لكنهم لم يتركوا صمتهم فترة من الوقت.. صمتا مطبقا لا تتخلله نحنحة، ولا صوت كأس يرفع إلى فم.. وكأن فيرتر الميت مسجى في وسط القاعة.

أخيرا رفع السلطان صوته وشكر توما على محاضرته.

علق علامة كبير في السن: «قدر مؤلم حقا. ومع أننا ندرك تماما أن فيرتر لا ينتصح وأن وجهته هي لولب الموت، فقد أحببناه ونأسف لمصيره المحزن. وفي رأيي أن عبقرية غوته تتجلى في نجاحه في إظهار هذا التناقض، كما وتتجلى أيضاً في عرضه لوجه آخر من الرواية، وهو أن فيرتر قد يكون فعلا نموذجا لابن

عصره، إلا أن الخضوع التام وغير المشروط للحب، ليس بالضرورة أن يكون ألمانيا أو عربيا بل من أي ثقافة أخرى.»

ثم أكمل: «هذا يذكرني بالأعمال العظيمة «مصارع العشاق» لمؤلفه جعفر السراج أو «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العُشّاق» لمؤلفه العالم العلامة الشيخ داوُد الأنطاكي. فلا تزال إحدى قصصهما ماثلة في ذهني، وهي التي هزت مشاعري في ذلك الوقت تماما كما أحسها تهتز الآن بعد حكاية فيرتر. لكني أظن أن الوقت ليس كافيا الآن لسرد قصة جديدة.»

ردت إحدى السيدات: «لقصة جميلة نجد الوقت دائما.» وتمتمت أصوات أخرى مؤيدة، بالإضافة إلى رجاء السلطان الشاب بقوله إلى العلامة: «أنعم علينا بقصة من قصص ذلك الزمان القديم أيها المعلم.»

أجاب العلامة: «رغبتكم أمر لي يا صاحب الجلالة.» وبدأ: «إنها قصة تحكى بأساليب وطرق مختلفة، لكن مسارها في الواقع واحد لا يختلف. كان هناك بدوي ضاع جَمَلُه. بحث البدوي عنه وقتا طويلا ولم يجده، لكن الظلام حل، وأحس بالتعب والجوع، لذلك ما إن لمح راعيا مع قطيعه الكبير، حتى ذهب إليه ليقضي الليلة عنده. استضافه الرجل بكرم، وتسامرا معا أمام النار بعضا من الوقت حتى نعس البدوي وذهب إلى الخيمة لينام. فجأة استيقظ على وشوشة وهمسات تشير إلى أن امرأة بصحبة الراعي، وأنها بقيت عنده حتى بزغ الفجر حيث غادرت مسرعة. عندما أشرق الصباح أراد البدوي العودة إلى قبيلته، إلا أن الراعي رجاه أن يمكث معه في هذه الأرض المقفرة يومين آخرين، حتى يكتمل

حق الضيافة التي كان يتمتع بها كل غريب في بلاد العرب في ذلك الزمان.

احتفى الراعي بضيفه وأكرمه خلال النهار كله. لكن مع حلول المساء لاحظ البدوي اضطرابا على الراعي، فقد أصبح يسير ذهابا وإيابا، ويتكلم بقلق، وينظر بين الحين والآخر إلى الاتجاه الذي كانت المرأة قد جاءت منه. وعندما سأله البدوي عنها أجابه الراعي: «إننا نحب بعضنا البعض منذ كنا أطفالا، إلا أن اباها رفضني لفقري وزوجها رغما عنها من رجل غني. فتركت بلدتي وتبعتهما على أمل أن أبقى قريبا منها. ولما كان زوجها لا يعرفني، استطعت أن أدخل في خدمته كراعٍ وأقضي وقتي مع الخراف في الخارج. منذ ذلك الحين ونحن نتقابل سريا. واليوم وعدتني أن تأتي في المساء، لكنها لم تحضر حتى الآن وأخشى أن يكون قد أصابها مكروه.» وطلب الراعي من البدوي أن يبقى مع الخراف بينما هو حمل سيفه وذهب يبحث عن حبيبته. وبعد وقت قصير رجع الراعي حاملا المرأة ميتة بين ذراعيه إثر تعرضها لهجوم أحد الأسود. سجى الراعي المرأة على الأرض وأسرع راجعا إلى حيث وجدها، ليعود بعد حين حاملا في يده رأس الأسد الميت، ورماه بكل قوته على الأرض ولعنه. وبحنان شديد انحنى على معشوقته وقبلها وبكى بكاء مرا. ثم رجا البدوي رجاء آخر، وهو أن يساعده في دفن حبيبته. وما إن انتهيا حتى طعن نفسه بسيفه.»

قال علامة متقدم في السن ومختص في الشعر الأندلسي: «أتعرفون ما كتبه خبير كبير في الحب وهو الشاعر الاندلسي ابن

حزم: الحب مرض عضال، ومن يصاب به لا يبحث عن الشفاء.»

تنهد علامة شاب بدين قائلا: «آه.. الحب.. الحب مرض يسبب الأرق ويشتت الذهن. إنه حيوان متوحش يسكن في القلب ويفترس اللحم من العظم. وإن أكره ما أكرهه أن الإنسان منا لا يستطيع أن يستغني عنه. إنني أقول ذلك ليس بصفتي خبيرا بالشعر الجاهلي، ولكن بصفتي محب فاشل في حبه. إن أخي يضحك عليّ دائما لأنه يعرف معبودتي ولا يجد فيها شيئا مميزا، لكنه لا يملك لا عيني ولا أذني ولا قلبي أيضاً.»

«نعم، لكننا لا نلاحظ عليك أي أثر للحيوان المفترس»! قال السلطان ذلك وهو يصوب نظره على الحجم الزائد للرجل. ابتسم الجميع بينما أجاب الرجل بجدية: «هذا يعود إلى أن الحيوان المفترس محبوس في قلبي بطريقة تمنعه من الوصول إلى اللحم. فماذا يفعل؟ إنه يفترس القلب، وستشهد قريبا يا صاحب الجلالة أنه لن يكون لدي هنا «وراح يدق بيده على صدره» شيء بعد ذلك وسأمشي خالي القلب.» ثم ضحك وقهقه بنفسه على خاطرته هذه.

انسحبت اللجنة للمداولة، لكن وقبل أن تكتمل النصف ساعة رجع أعضاؤها من الرجال والنساء إلى أماكنهم.

وتحدث السلطان: «لا شك أنك ستفهم وتقدر يا توما، أنه ليس كل ما جاء على لسانك حول الرواية وجد قبولا لدينا. كنا نحبذ أن نتعرف على شخصية قوية وعملية في الأدب أيضاً،

خصوصا في هذا الوقت الصعب. ومع ذلك فاللجنة تعترف بالقوة المطلقة لهذا الحب الذي يهب فيرتر نفسه له.. الحب الذي لا يحتمل بجانبه شيئا إذا أراد ألا يمارس خيانة نفسه. هذه قصص تتمكن من قلوب البشر، ونحن خير مثال على ذلك على ما أعتقد.» هز أعضاء اللجنة الباقون رؤوسهم موافقين على كلام السلطان الذي أكمل ضاحكا:

«وسيسعدنا أن نكون كلنا آذاننا صاغية لشاعر يعطينا مثل هذه النظرة العميقة في نفس إنسان نادر في طبيعته. فاستعد يا توما لتلقي علينا غدا محاضرة جديدة عن غوته وسنتابعها بالتشوق نفسه الذي خالجنا اليوم.»

الليلة الثانية

والتي دار فيها الحديث حول فيلهلم مايستر وحب المسرح

عزيزي الصديق والأخ،

أعضاء لجنة الحكمة المحترمين،

في الليلة السابقة حدثتكم عن قصة غوته آلام الشاب فيرتر وفي هذه الليلة اليوم سأعرض عملا آخر يُظهر وجها فضيا جديدا لشاعرنا. فيلهلم مايستر رواية ضخمة يبلغ عدد صفحات جزئها الأول وحده ٦٠٠ صفحة. أود في البداية أن أشرح كيف تطورت مادة مايستر الكاملة، وكم من الوقت عمل الشاعر بها. بدأ غوته بكتابة الجزء الأول منها في عام ١٧٧٧ وعمره ٢٨ سنة ثم هجرها في عام ١٧٨٦، ليعود ويستأنف كتابتها بعد ثماني سنوات بتشجيع من فريدريش شيلر، حيث أدخل تعديلات كثيرة على الفصل الذي كان قد كتبه سابقا، ثم واصل كتابتها حتى أنهى الجزء الأول «سنوات تعلم فيلهلم» أخيرا في عام ١٧٩٦، أي بعد حوالى عشرين سنة.

لم يكن غوته بذلك قد استنفد كل مادته. فاشتغل على تأليف جزء ثانٍ وهو «سنوات تجوال فيلهلم» وأصدره في النهاية بعد ٢٥

سنة أخرى في عام ١٨٢١. لكن المادة لم تبارح ذهنه، فعدل الجزء الثاني من جديد، وأصدر نصه النهائي بعد ثماني سنوات أخرى أي في عام ١٨٢٩، ثلاثة أعوام فقط قبل وفاته. أي أن المادة الكاملة لهذه الرواية عاشت ٥٢ سنة من التطور منذ البدء بها وحتى الانتهاء منها.

وحتى أكون صادقا: إني لا أجرؤ فعلا على الخوض بالجزء الثاني سنوات التجوال، فهو عمل ابداعي لا أزال أحتاج الوقت الطويل لاستيعابه برمّته، لذلك اسمحوا لي أن أركز على الجزء الأول فقط لاطلاعي الواسع عليه.

توقف توما برهة، تناول رزمة الأوراق الكبيرة التي أمامه، والتي تحتوي على ملاحظات كثيرة وعدة نقاط أساسية وبعض المختصرات. تصفحها بسرعة وكأنه يريد أن يطلع عليها مرة أخيرة ويستعيد في ذهنه أهم محطات الرواية. أما أنا، كاتب التقرير، فما إن لمحت رزمة الأوراق حتى بشرت نفسي بمساء مجهد، بل وخفت على رسغي. وكم كانت سعادتي كبيرة عندما أعلن توما أنه سيحصر تقريره في سنوات التعليم ولن يتحدث عن سنوات التجوال، وأن الأعضاء موافقون على اقتراحه. ألا يستحقون هم أيضاً أن يعودوا إلى بيوتهم في ساعة ليست متأخرة، ويسترخوا على صدور زوجاتهم وأزواجهم ويعبروا لهم عن حبهم الدائم!

بهزة من رأسه أشار السلطان إلى توما بالبدء. سارع توما واحتسى جرعة من الشاي، وباشر الحديث بمجرد أن أعاد الكأس إلى مكانه:

«عندما نتعرف على فيلهلم مايستر يكون شابا عاطفيا شغوفا كل الشغف بالمسرح، وبالمسرحيات، وقبل كل شيء بممثلي وممثلات المسرح. يعشق ويهيم بماريانا، إحدى الفنانات، ينتظرها مساء بعد مساء حتى تخرج بعد العرض من المسرح.

أما والد فيلهلم فيجب ألا يعرف أبدا أن ابنه يقضي لياليه معها. فهو رجل أعمال بارد، فخور بامبراطوريته الصغيرة التي أسسها بنفسه، وبعلاقاته التجارية التي تمتد بعيدا إلى خارج البلاد. أما الفن فلا يلعب أي دور في حياته لأنه ليس طريقا لكسب المال وهو مقياسه الوحيد.

هذا بالضبط ما يستفز فيلهلم ويدعوه لمعارضة أبيه، فهو ذو شخصية مغايرة تماما، ومنذ أن شاهد مسرح العرائس في طفولته وهو يحاول أن يمثل ويلعب مسرحا بالقدر الذي يفهمه. انه متحمس غير متخصص، يتوق إلى اللحظة التي سيدخل فيها إلى عالم المسرح الكبير. منذ أن تعرف على ماريانا وهو يتخيل أن الباب المغلق الذي انتظر أمامه طويلا ينفتح فجأة، بل ومن خلال حبيبته يكاد يحس وكأنه ينتمي بنفسه إلى المسرح.

إن حب فيلهلم لماريانا هو تحقيق جارف لكل أحلام شبابه المتخمرة من جهة، وتعبير عن تمرده ضد أبيه ومحاولة منه الابتعاد عن برودته وحبه للمال من جهة أخرى.

فيرتر في وقته احتج على برودة الإحساس عند جيل الآباء، ووهب نفسه للحب المطلق كمقاومة للتفكير الواقعي العقلاني كما نعرف. فما كان يمثله حب لوته إلى فيرتر، شبيه بما يمثله الولع والجنون بالمسرح إلى فيلهلم. أما ماريانا فهي في الواقع بالنسبة له

ليست أكثر من تجسيد رائع لعالم المسرح الذي يهفو اليه ومدخل لهذا العالم. مع ذلك فعندما يعلم فيلهلم عن طريق الصدفة أنه ليس الحبيب الوحيد، وأن ماريانا لا تجد مانعا في أن يصرف عليها تاجر غني، يهوله فعلها، ويتكدر، بل ويتركها دون أن يفاتحها بالأمر، ولو فعل، لعرف على التو أنها تنتظر طفلا منه، ولا يكتشف ذلك إلا بعد فوات الأوان. هكذا تتردى ماريانا إلى الهاوية، كسيرة الفؤاد وحيدة، ذنبها أنها أحبت فيلهلم حبا غير محدود، بينما هو أنفه وقابله بالرفض والإعراض.

في هذا الوقت بالذات يرسله والده في أول رحلة تجارية له. يغادر فيلهلم محبطا ويتنقل عبر البلاد صامتا، يجمع مال أبيه دون أن يهمه البتة. وبعد وقت قصير على ترحاله يلتقي باثنين من الممثلين الفاشلين، كانت فرقتهم المسرحية قد انحلت لإفلاسها، بينما بقيت ديكوراتها وخشبة مسرحها وأزياؤها محفوظة في بنك الرهونات. ما يلبث أن ينضم إلى ثلاثتهم ممثلون آخرون لم يحالفهم الحظ... كومٌ فاشل من الممثلين يشك فيلهلم منذ البداية بمطابقتهم لما دأب على الحلم به حول المسرح. لكن كيف له أن يفارقهم، وولعه بالمسرح يستيقظ فيه من جديد، ويشعر في قرارة نفسه أنه الوحيد القادر على إعطاء هؤلاء الممثلين فرصة جديدة، لأنه يملك من المال ما يلزم لحل رهن ديكور المسرح والأزياء في بنك الرهونات، ولا أحد غيره.

ومع يقين فيلهلم أن صفقته مع مجموعة الممثلين قد تكون خاسرة، يرضى بها تحت الضغط المتزايد منهم، رغم تردده فيما إذا كان سيستمر مع هؤلاء الممثلين أم لا، فهم يكوّنون فرقة غير

متجانسة، تبحث في الدرجة الأولى عن مورد رزق، ولا تشاركه الولع بالمسرح وما وصلوا إليه فنياً كان رديئاً للغاية. ولكن ماذا يفعل هو نفسه؟ انه يبعثر مال أبيه بدل تنفيذ المهمة التي كلفه بها، دون أن يحسم أمره ويأخذ قراره. ويحدث أخيرا أن يحسمه له لقاء على غير ميعاد: أثناء حضور عرض تقدمه إحدى فرق الشعوذة في تلك المنطقة يكتشف فيلهلم طفلا غريب الخلقة، نصفه صبي ونصفه بنت، ذا ملامح جنوبية. يحس فيلهلم بعطف شديد تجاه هذا الطفل وفي قنوطه يشتريه من أحد المشعوذين، «**عندما راح أحدهم يبذل الجهد في جر الطفل المثير من البيت، ثم ضرب هذا الجسم الصغير بالسوط دون أدنى رحمة**». لكن إنقاذ ميغنون، وهذا هو اسم الطفل يعني في الحقيقة تبذير ثروة والده التي كان على فيلهلم أن يديرها بعناية. لكن كيف له أن يترك طفلا مسكينا كهذا لمصيره؟

وكما أحس فيلهلم بالمسؤولية تجاه مجموعة الممثلين الخسيسين الصغيرة، يحس بها هنا تجاه الطفل ويتصرف مدفوعا بعاطفته، فحتى لو كانت عنده الآن نية السفر عبر البلاد وتنفيذ صفقاته التجارية، كيف يتسنى له ذلك ومعه طفل؟ إذن يقرر أن يبقى مع أصدقاء المسرح. . . قرار لا يمكن القول إنه غير محبب إلى نفسه، فالاعتناء بميغنون بحد ذاته يعطيه احساسا بالراحة. بعد حين ينضم إليهما عازف الكمان والجنك الكفيف ويكون مع ميغنون عائلة فيلهلم، وبهذا يصبح فيلهلم في وضع جديد يجبره من الآن فصاعدا على البقاء مع المسرح الصغير.

وتحصل الفرقة على دعوة للتمثيل في قصر قريب، فيرافقها

فيلهلم رغم بقاء تحفظه تجاهها. وما إن يقابل سكان ذلك القصر، حتى تصبح هذه المقابلة بالنسبة له أهم من عرض الفرقة الافتتاحي أمام جمهور المسرح هناك، فهو لا يقع فقط في حب صاحبة القصر، لكنه يتعرف أيضاً وهذا هو الأهم على مسرحيات شكسبير، وخصوصا التراجيديا هملت، فيتحمس لها كثيرا ويشعر أن كل معرفته عن المسرح حتى هذا الحين ليست ذات أهمية تذكر بالمقارنة بها. وهي قطعة تدور حول هاملت ابن ملك دانمركي كبير، هذا الملك الذي وقع ضحية قتل من أخيه الذي خدعته معه زوجته.

وتفرض روح الملك المقتول على ابنه هاملت أخذ الثأر، لكن هاملت يجد نفسه ضائعا في تمزق داخلي ما بين الألم والغضب، ما بين تأنيب الضمير الأخلاقي والشك بالنفس. وكم يحس فيلهلم معه لأن شخصية هاملت تعكس طبيعته هو وما يعانيه هو نفسه من تردد واضطراب في الإرادة. فتستولي على ذهنه فكرة واحدة: إذا أراد ان يبقى مخلصا للمسرح، عليه أن يقوم بإخراج مسرحية هاملت. لكن، مع من؟ أمع فرقته هذه؟ وهل سيحقق النجاح معها؟ من جهة أخرى هل لديه إمكانية أخرى؟

وتأخذ منه فكرة عرض هذه المسرحية كل مأخذ، حتى أنه يزيح عن ذهنه كل الشكوك التي راودته بشأن إمكانية تحقيقها.

وتنتهي مدة عقد الفرقة الزائرة في القصر، فتهدد مشاكلها اليومية بالعودة إلى الظهور من جديد. ويزداد حال الفرقة المسرحية الصغيرة سوءا عندما تتعرض لاعتداء من قطاع الطرق أثناء رجوعها إلى المدينة، فتسرق، وليس هذا فحسب بل تتمزق

ديكوراتها وأزياؤها المسرحية لتصبح عن بكرة أبيها غير صالحة للاستعمال، وهي تلك التي اشتراها لها فيلهلم منذ فترة قصيرة فقط. ويحمِّل الممثلون في ثورة غضبهم فيلهلم مسؤولية ما حدث، بحجة أنه نصحهم بأخذ هذه الطريق الأقصر والأكثر خطرا. أما فيلهلم، الوحيد الذي يصاب بجروح خطيرة من جراء الاعتداء، فلا يتذكر من تفاصيله سوى أن شابة قوية أنقذته، إلا أن توبيخ الممثلين له يسبب له الاستياء، وفي نوبة كبرياء يتنازل عن جميع حقوقه تجاه هؤلاء الأنانيين.

نعم... شتان ما بينه وبين أبيه الذي يسعى إلى ديونه بواقعية مجردة من العواطف عندما يؤمن بحقه فيها، فحتى الآن لم يُنمِّ فيلهلم في نفسه برودة رجل الأعمال، بل العكس هو الصحيح، إنه يختبئ وراء أحاسيسه، فالمرأة الغريبة القوية التي أنقذته، والتي اختفت فجأة كما ظهرت، لا تزال تشغل كلّ تفكيره دون النجاح في نسيانها. غير أنه مجرد أن يسترد صحته إلى حد ما، حتى يستحوذ عليه شغفه بالمسرح من جديد... شغف يجبره على توثيق ارتباطه بالفرقة الصغيرة أكثر من ذي قبل، بل وعلى مساعدتها في بناء نفسها مرة أخرى، بحيث تتمكن من القيام بتمثيل هاملت.

في هذه المرة يقف الحظ بجانب فيلهلم، إذ يقابل مدير المسرح المعروف سيرلو وشقيقته الممثلة أوريلي، التي ما إن تؤمن أنها تمثل نفسها بالدور الذي تلعبه، حتى تؤدي عملا رائعا مقنعا. إن أوريلي وسيرلو مختلفا الطبيعة تماما: سيرلو حصيف

بارد، يعلم بلا ريب أنه لن يحقق صفقته الكبيرة مع فرقة فيلهلم، بالأخص فيما يتعلق بقدراتها الفنية، لكنه يدرك في الوقت نفسه أنه من خلال هذه الفرقة سيصبح في موقف مناسب يساعده على التخلص من فناني فرقته القديمة، الذين يطالبونه بأجور أعلى. أوريلي جريحة القلب تعيش سجينة مأساتها لأن الرجل الذي أحبته تركها من أجل امرأة أخرى، ولا تجد من متنفس ليأسها إلا التمثيل على خشبة المسرح. وتكون أوريلي في النهاية هي من يساعد فيلهلم في إقناع سيرلو تمثيل هاملت، لأنها ترى نفسها في شخصية أوفيليا، العشيقة المرفوضة. أخيرا يقتنع سيرلو بتقديم المسرحية ويتولى فيلهلم إخراجها بالإضافة إلى الدور الرئيس فيها.

يدب النشاط في فيلهلم مرة واحدة، وبدأب شديد ينفذ القطعة حسب تصوره الخاص، بل يعطي نفسه كمخرج مركزا أكبر من دوره كممثل لهاملت، وفي النهاية يخلق من المسرحية قطعة لا تعكس بالضرورة طموح سيرلو في تقديم مسرحيات سهلة الهضم لجمهور بليد يرفض كل جديد. ولا يقف نشاط فيلهلم عند هذا الحد بل يصل إلى مطالبة الممثلين بمراعاة ضبط النظام والمحافظة على مواعيد البروفات... عقدة وتفتقت على ما يبدو. إنه يعرف مأربه، يتصرف حسب رأيه ورغبته، ولا يستجيب فقط لمطالب الآخرين. وهكذا يصبح وقته موزعا ما بين عمله كمخرج للمسرحية وكممثل لدور هاملت فيها. فأين العجب إذن أن يمثل عرضها الأول له قمة مهنته المسرحية، وأن يقيم بعد العرض احتفالا رائعا يحضره كل العاملين.

إلا أن الفرج لم يفتح سوى كوة صغيرة لفيلهلم، وحظه لا يزال ذا عمر قصير. ففي ساعة متأخرة من تلك الليلة نفسها يحترق المسرح مع ديكوراته. ميغنون تهرول إلى فيلهلم صائحة: أنقذ حبيبك فيلكس! قول غريب لم يعره فيلهلم انتباها خاصا، لأن همه الوحيد في تلك اللحظة إنقاذ الصبي الصغير فيلكس من النار.. فيلكس الذي يعرفه فقط كابن غير شرعي للممثلة أوريلي. وعندما يتبين لاحقا أن عازف الجنك حاول أن يقتل فيلكس، يدرك فيلهلم أن العازف شخص مجنون يجب الحجز عليه، وكم يصعب عليه فراقه، فلقد أحبه وأحب قصائده الدرامية المحزنة حبا جما.

لكن كيف ستسير الأمور بعد هذه الأحداث؟ صحيح أن المسرحية ستعود للعرض في اليوم التالي، لكن الحريق يُحدث تغييرات جوهرية على الأوضاع والعلاقات في المسرح: الممثلون ساخطون وسيرلو في حاجة إلى مال جديد. لذلك لا يتورع سيرلو بعد فترة وجيزة فقط عن التفكير مع بعض أفراد فرقة فيلهلم في فرصة تحسين وضع هذا المسرح المفلس عن طريق عرض قطع مسرحية سطحية تافهة. وفعلا يقرر هؤلاء توقيف عرض هاملت لصالح الأوبرات الشعبية، مما يوفر لسيرلو فرصة عظيمة للتخلص من كل من هو غير محبوب لديه - بمن فيهم فيلهلم.

وتكون أوريلي أخت سيرلو من ضمن ضحايا أخيها. انها تتحطم بسبب قصتها الخاصة الحزينة، وتموت على أثرها، فلا يبقى أمام فيلهلم إلا أن يتولى العناية بفيلكس بجانب اعتنائه بميغنون، لأن الباقين إما اختفوا أو أصبحوا من مؤيدي سيرلو.

وهكذا لم يعد هناك ما يربط فيلهلم بهذا المسرح، ويقرر المغادرة. يذهب ولا يشغل ذهنه سوى تنفيذ وصية أوريلي الأخيرة بالبحث عن الرجل الذي هو في نهاية الأمر سبب ألمها المميت وتقديم شكوى ضدّه. يجب عليه أن يثأر لأوريلي كما وجب على هاملت أن يثأر لوالده. إنه الفصل المسرحي الأخير الذي يقوم به فيلهلم وهو يترك المسرح. إلا أن هذا الفصل يؤدي به وعلى غير المتوقع باختلاف الحال عند هاملت إلى حياة جديدة ستذبل فيها عاطفته وحبه للمسرح.

يرحل فيلهلم عن المسرح الذي خانه - رحيلا مشابها لخروج العنقاء المشهور من الرماد - ويلتقي على غير موعد بجماعة جديدة مغايرة تماما: مبدؤها العمل الجماعي الهادف - مبدأ معاكس لفرقته السابقة حيث الفرد فيها لا يفكر إلا في نفسه ولا يعطي الأولوية إلا لمصلحته الخاصة.

وأثناء بحثه عن عشيق أوريلي السابق يلتقي بجارنو الذي يعرفه من قبل - فهو من نبهه إلى شكسبير عند لقائهما في حديقة قصر الأمير. وفي أحد الأيام يشرح له جارنو المبادئ الأساسية لجمعية البرج: «**إن معظم الناس وحتى العظماء منهم لهم حدودهم. كل فرد من المجتمع يقدر صفات معينة سواء تلك التي يتمتع بها بنفسه أو يتمتع بها غيره، فيفضلها عن صفات أخرى، ويتمنى لنفسه منها ما ليس متوفرا لديه. إن الإنسان يتمتع بقابليات ومواهب متعددة (. . .) من أقل الصنائع اليدوية بدائية، وحتى أعلى ممارسات الفن الذهني. من تأتأة وتهلل طفل وحتى أجمل تعبير لبق لخطيب أو مغنٍّ. من أول عراك للصبيان وحتى القدرة**

على الإعداد والتجهيز العسكري الجبار للاحتفاظ بالبلاد أو احتلال غيرها. من أبسط أنواع الرضى والحب السطحي وحتى الغرام الشديد والعصبة الجدية. ومن الشعور الحقيقي للواقع المحسوس وحتى أقل فكر وأمل للمستقبل الفكري البعيد. هذا كله وأكثر منه موجود في الإنسان ويجب تدريبه، إنه ليس في فرد واحد فقط بل في أناس كثيرين. إن كل فطرة في الإنسان هامة ويجب تطويرها.

هناك إنسان يفضل الناحية الجمالية فقط، وآخر يفضل الناحية العملية فقط، والناحيتان معاً يكونان الانسانية. (. . .) انه عملك يا فيلهلم أن تختبر وتختار، وعملنا أن نقف بجانبك.»

كم يُعجب فيلهلم بجمعية البرج، فهي جمعية تفسح حرية واسعة للفرد وتلقي عليه في الوقت نفسه مسؤولية كبيرة. . . ويقودها لوثاريو. . نعم بالذات لوثاريو، العشيق الذي خدع أوريلى. لكن افتتان فيلهلم بمبادئ الجمعية يجعل مهمة الثأر التي جاء من أجلها تفقد كل قيمة. فحتى ذلك الحين كانت فكرة كهذه، وهي الطموح إلى العمل الجماعي، ثم تشجيع كل عضو على حده، بحيث يصبح مفيدا للجماعة وفي الوقت نفسه سعيدا راضيا بوضعه، فكرة غريبة عليه. ففي فرقته السابقة، فرقة سيرلو، لم يكن العضو يرى إلا نفسه، ولا يفكر بتاتاً في تطوير قدراته بحيث تخدم عمل الفرقة ككل، ووصل الحال بأوريلي التي تملّكها الحقد على لوثاريو أن تعاقب كل واحد من فرقتها بهذا الحقد، بل وتلعب أدوارها من خلال ولعها به. إنها لم تكن تعيش إلا مأساتها الخاصة، دون أن تقبل أو تحترم حقيقة أن لوثاريو وجد السعادة عند حبيبة أخرى.

يبدو هنا تفكير غوته الجديد ملموسا، وهو تفكير شغل الشاعر الكبير منذ ذلك الحين، وراح يشغله دائما من جديد.

فيلهلم نفسه لم يكن يتصرف دائما تجاه فرقته المسرحية بخلفية تفكير اجتماعي على نهج جمعية البرج. صحيح أنه كرس نفسه للمسرح، لكنه فشل فشلا ذريعا في تربية ممثلين يقدسون الفن ويقدرونه. وإن دل وقوفهم في صف سيرلو ضده على شيء، انما يدل على محدودية ما يحمل هؤلاء الممثلون من إحساس وإدراك للفن. فمسرحية هاملت في الواقع بقيت قطعة فيلهلم ولم تصل إلى مستوى إنتاج عمل جماعي للفرقة بأكملها.

وقد نهج فيلهلم هذا الأسلوب نفسه عندما أخذ ميغنون، بدافع من العطف فقط، لتعيش معه، ثم عازف الكمان وأخيرا فيلكس أيضاً، دون أن يبذل الجهد في رعايتهم، بل كثيرا ما تركهم لحالهم. تصرف مشابه إلى حد كبير لما كان منه في الماضي، عندما أهمل حبيبته الأولى الممثلة ماريانا وتركها بسبب كبرياء مجروح.

وفي جمعية البرج يعثر فيلهلم فجأة وعلى غير المتوقع على آثار حبيبته ماريانا من جديد. ويضطر أن يسمع كم عانت، ويعلم كم تألمت حين هجرها خصوصا وأنها كانت حاملا منه. لكن ماريانا استطاعت - على عكس أوريلي - أن تتجاوز كره فيلهلم، وتحزن عليه في هدوء حتى توافيها المنية وهي تضع ابنهما المشترك فيلكس. إذن كانت ميغنون على حق عندما هتفت أثناء حريق المسرح: «فيلكس هو ابن فيلهلم.» والآن وقد ماتت ماريانا، يحس فيلهلم بالذنب... ولا يعرف كيف سيستطيع أن

يتغلب على هذا الماضي، إنه على وشك اليأس.

هنا تبادر جمعية البرج بعملها الفعلي وتساعد على توضيح رؤية ما يعجز الشخص نفسه عن رؤيته، فالجمعية على بينة بطرق الحياة المليئة بالسرية، وما تجهله منها تحاول اكتشافه. وهي هنا في حالة فيلهلم تبذل قصارى جهدها لتعيد إليه حب الحياة مرة أخرى، فتسند إليه مهمات خاصة بها، وتحاول أن تقربه من امرأة تشد أزره وتعينه على التغلب على حزنه على ماريانا. وفعلاً، وبعد طول بحث يجد فيلهلم، ناتالي، المرأة المكافحة القوية، التي أنقذت حياته أثناء الهجوم المفاجئ على فرقة المسرح، والتي بدا حينها أن العثور عليها مستحيل.

ها هو حظ فيلهلم يصبح قريب المنال. ناتالي ليست فقط حبيبته المنشودة، ولكنها أيضاً ذات طبيعة نشطة تؤهلها للقيام بتربية ابنه فيلكس ورعايته أكثر منه. ومع أن جمعية البرج نسقت كل هذه الأمور أحسن تنسيق فإنها من ناحية أخرى تركت الحرية لكل منهما أن يعمل حسب رغباته وأمنياته.

لا يقتصر تطبيق مبدأ جمعية البرج في المجال الخاص، لكن في المجال السياسي أيضاً، حيث تتمثل الفكرة في التعهد بالعمل الجدي في المجتمع وتسوية الفوارق الاجتماعية فيه. فيلهلم من جهته يحاول الاندماج في هذه الحياة ويتمنى أن يصبح إنسانا يخدم المصلحة العامة أيضاً.

وستكون جهود فيلهلم هذه موضوع الكتاب الثاني الذي يدور حول فيلهلم مايستر «سنوات التجوال» وقد قارب فيلهلم الآن على الانتهاء من «سنوات التعليم». صحيح أنه لا يزال غير لبق

ويتصرف بلخمة، إلا أنه يعيش العشق من جديد في إطار علاقة سعيدة تحيطه وتنعش حياته من كل النواحي. وكما قال جارنو، إن حياة فيلهلم المشتركة مع ناتالي وفيلكس تجعل منه لأول مرة إنسانا كاملا.»

انخفض صوت توما مع اقترابه من النهاية. إنها قصة مزدحمة بأحداثها وليست بسيطة المسار والبنية كما هو الحال في فيرتر. وبشهادة الجميع فإن تطوراتها غير متوقعة، الوداع والبداية الجديدة فيها يحدثان بطريقة مذهلة، وبناؤها القصصي رائع.

أرادت اللجنة على الفور أن تعرف من توما سبب نظرة غوته السلبية إلى المسرح. فأوضح أن سبب هذه النظرة يعود فقط إلى غياب قوة إقناع أعضاء هذه الفرق المسرحية، والى افتقادهم للحماسة وربما إلى ولع حقيقي بالمسرح، يكون بمثابة دافع وحافز لهم إلى طموح فعلي من أجل الوصول إلى الأفضل وتقديم تمثيل مسرحي عظيم.

أنصت السلطان إلى إجابة صديقه، ثم استفهم منه عن شخصيات أخرى لمح عنها في سرده، بيد أن قيمتها في القصة بقيت غامضة: «قل يا توما ماذا عن عازف الجنك وبالأخص ماذا عن ميغنون؟ الطفلة التي تحدثت عنها بإسهاب في فقرة ما ثم ما ندر أن ذكرتها، وإذا حدث بكلمات قصيرة فقط. ألم تمثل ميغنون في نظر غوته حالة تحتاج حلا؟»

أجاب توما: «بلى، إن عدم دخولي بتفاصيل قصّتَي ميغنون وعازف الجنك يعود إلى اختصاري في الموضوع فقط. في

الحقيقة هناك قصة كبيرة خاصة بهما، وإذا شئتم، أقصها سريعا وأنهي بها تقريري لهذا المساء.»

(رحبت اللجنة المجتمعة باقتراح توما، وهذا يعني لي أنا كاتب البروتوكول أن أبدأ مباشرة بمتابعة عملي.)

«لوقت طويل لم يكن يعرف عن ميغنون سوى أنها من ايطاليا، وأنها لم تولد في فرقة المشعوذين حيث اشتراها فيلهلم. إنها طفلة هادئة وصامتة، عالمها هو الغناء، ومن خلاله فقط يمكنها التعبير عما يجول في نفسها ويجيش في صدرها من اشتياق وآلام:

أتعرف ذلك البلد؟ حيث يزهر الليمون،
ويلمع البرتقال الذهبي،
بين أوراق خريف داكنة اللون
من السماء الزرقاء تهف رياح خفيفة،
الريحان هادئة وورق الغار يقف عاليا،
أتعرفه الآن؟
إلى هناك! إلى هناك!
يا ليتني يا حبيبي أذهب معك!

أتعرف ذلك البيت؟ سقفه محمول على الأعمدة،
صالته تلمع، حجراته تشرق،
لوحات رخامه منتصبة تنظر إليّ:
ماذا فعلوا بك، أيها الطفل المسكين؟

ألا تعرفه الآن؟
إلى هناك! إلى هناك!
يا ليتني، يا حامبني، أذهب معك!

أتعرف ذلك الجبل؟ طرقاته بين السحاب،
البغل يبحث فيه عن طريقه في الضباب،
صغار التنانين القديمة تعيش في المغارات،
صخوره تتدحرج ويغرقها الطوفان.
ألا تعرفه الآن؟
إلى هناك! إلى هناك!
يكون طريقنا! يا أبي، فدعنا نرحل إليه!

إن شخصية ميغنون مشابهة لشخصية فيلهلم كما عرفناها في بداية الرواية، إنسانة تتحكم بها عواطفها بينما ينقصها التعقل والتفكير المنطقي. لا شك أن فيلهلم قدم لها مساعدة كبيرة عندما حررها من المشعوذين، لكن المشكلة أنها بقيت له بعد ذلك مجرد شخصية عزيزة على هامش حياته، تدبر أمورها بنفسها. إنه في الواقع لا يجد قاسما مشتركا معها، خصوصا أنها تمتنع عن التمثيل في المسرح. كما أنه لا يلحظ أبدا أنها منذ ترعرعت واشتد عودها وهي تحبه، وتحس بالفزع في كل مرة تدخل فيها امرأة أخرى في حياته. إن ميغنون تقضي معظم أوقاتها مع عازف الجنك الذي يشابهها باستخدامه الغناء وسيلة للتعبير عن آلامه وعذابه، كما أنها لا تتوانى عن الاعتناء بفيلكس وتقديم كل حب له، لكنها لا تحس

بالانتماء إلى جمعية البرج إطلاقاً، بل وبازدياد نشاط فيلهلم المفاجئ تزيد غربتها عن الجمعية أكثر وأكثر، حتى تدمرها تماما.

فيلهلم من جهته يبقى على جهله بكل ما يختص بميغنون وبشعورها وبما يدور بخلدها حتى يسمع قصتها بالصدفة من ماركيز له علاقة بعيدة متشعبة مع جمعية البرج، ذلك بعد موتها بفترة قصيرة. فيتبين له أن قصة ميغنون وثيقة الصلة بقصة عازف الجنك... قصة حزينة لاشتباك مفزع بين الخطيئة والمصير.

كان أوغسطين، الأخ الأكبر لهذا الماركيز، قد قرر في شبابه أن يصبح راهبا، لكن قبل أن ينفذ مأربه يلتقي بسبيراتا الشابة ويقع في حبها حتى الثمالة، ومن هذه اللحظة يترك فكرة الدخول إلى الدير، بل وعندما يصل أوغسطين خبرا فجائيا يقول إن سبيراتا ليست في الحقيقة إلا أخته، سر بقي خفيا عنه وعن الآخرين طويلا، لا يعيره المحب اهتماما، بل يعتبره دسيسة للتفريق بينه وبين حبيبته. وفعلا لا يحقق الخبر غرضه ويفرقهما، بل يحدث العكس، وتنتظر سبيراتا طفلا منه. ويقال إنه لدرء الفضيحة والمهانة عن العائلة يقرر المطران تخدير أوغسطين وخطفه إلى الدير فاقد الوعي. سبيراتا لم تعلم بكل ما حدث، وتبقى مطمئنة نوعا ما لأنها لا تزال تستلم رسائل من أوغسطين المختفي. وبعد أن تلد طفلها يخبرها الآخرون أنها ولدت ميغنون في الخطيئة، ويجب عليها أن تبتعد عن أوغسطين. تخاف سبيراتا من جزاء الله وتُوافقهم. وعندما تختفي ميغنون في نهاية الأمر دون أن تترك أثرا، وتعتبر ميتة، تعتقد سبيراتا أن موت الطفل ليس إلا خلاصا له من خطيئته الموروثة. لكن ما إن تسمع عن الأسطورة التي

تحكي أن البحر الذي يعتقد أن ميغنون قد غرقت به، يلفظ عظام موتاه غير المذنبين، لا تتأخر بالبحث عن عظام طفلتها بغية التأكد أن الله سامحها، فتجد عظاما تكون في الحقيقة عظاما حيوانية قامت صديقة لها بوضعها هناك حتى تستطيع سبيراتا الإيمان بخلاص ابنتها. لكن الذي يحدث أنه في صباح أحد الأيام، وبينما الصديقة تعرض على الطبيب في غرفة مجاورة لغرفة نوم سبيراتا، الصندوق المحتوي على العظام، تصحو سبيراتا، مؤمنة إيمانا تاما أنها تحررت من كل الخطايا، فقد رأت في حلمها أن الرب حفظ العظام عنده ومنحها الغفران. وما أكد قولها فقدان العظام وعدم ظهورها.

وتنتشر إشاعة هذه الأعجوبة الوهمية في المنطقة المحيطة، فيحج الناس إلى سبيراتا ويعتبرونها قديسة. وتصل الإشاعة إلى أوغسطين فيهرب من الدير ويبحث عن سبيراتا، وما إن يعثر عليها حتى تكون قد وجدت أخيرا راحتها الأبدية، فيفر هاربا وتضيع آثاره.

بسرعة تتضح العلاقات بين أفراد المجموعة الصغيرة المحيطة بفيلهلم: عازف الجنك هو أوغسطين والد ميغنون، لكن لا هو ولا ميغنون كانا على علم بقرابتهما الشديدة هذه. في النهاية يموت أوغسطين أيضاً نتيجة خطأ لا أريد الآن أن أدخل في تفاصيله. لكن السؤال يبقى مطروحا، لماذا حاول أوغسطين قتل فيلكس أثناء الحريق الكبير؟ يقال إن أوغسطين أثناء إقامته في الدير كان يرى في أحلامه باستمرار أن ثمة صبيّاً يطارده ويتلهف لقتله، فخاف أن يموت قبل أن يجد ميغنون، بل كاد هذا الخوف أن

يجعل منه قاتلا. عند هذه النقطة أود أن أنهي قصة ميغنون.»

صمت توما وصمتنا جميعا في تأثر. فبالله عليكم كيف ستستطيع اللجنة بعد هذه النهاية المحزنة أن تنتزع نفسها من التفكير بمصير ميغنون وتناقش قصة مايستر فيلهلم!

أخيرا قطع السلطان الصمت المطبق وسأل: «لقد أخبرتنا يا توما أن جمعية البرج وضعت في أولوية اهتماماتها ربط جميع الأفراد بخطتها الاجتماعية الكبيرة. من الطبيعي أنه لم يكن لميغنون أن تنمو وتكبر دون رعاية، لكن الواضح أيضاً أن فيلهلم لم يعتنِ بهذه البنت العناية الكافية. ألم يكن من واجب جمعية البرج إنقاذ ميغنون؟ لماذا يتركها غوته تموت هناك بالذات، في دائرة هذه الجمعية»؟

فكر توما قليلا ثم أردف: «ربما هذا بالذات ما يدعو للاستغراب من هذا الشاعر والإعجاب به في الوقت نفسه، فهو لم يمنح جمعية البرج الحكمة المطلقة، بل جعلها تفشل بين الحين والآخر. أي أنها أيضاً لا تنجح دائما في تنظيم شامل وفي خلق عالم مثالي متكامل. فهذا ما لا يستطيعه إنسان. إن شاعرنا غوته أعطى باستمرار أمثلة تؤكد هذا الموضوع.»

وقع هذا التحليل من السلطان موقعا كبيرا عبّر عنه بقوله: «إن هذا ليشير إلى عظمة حقيقية.»

علق علامة كبير في السن: «تبدو لي هذه الرواية كتمثيلية جبارة تدور حول الحظ والسعادة، حول الحب والخيانة، ولكن

قبل كل شيء حول الحقيقة. إن غوته يبين أن الطريق التي يختارها الإنسان قد تسير به أحيانا خلال مستنقعات الخطأ.»

بانتهاء هذه المناقشة انسحبت اللجنة للاستشارة. أما توما فقد بدا تعبا مرهقا، وكأنه لا يزال يحمل هذه المادة الصعبة فوق أكتافه. قبل منتصف الليل بقليل رجعت اللجنة إلى القاعة وأحضر الخدم المشروبات المنعشة ورفع السلطان كأسه قائلا: «لنشرب معا على شرف الشاعر الذي ستسعدنا أشعاره غدا مرة أخرى، فلنشرب على شرف غوته.»

الليلة الثالثة

التي خصصت لذكاء ومصير
الثعلب راينكه

في المساء حضر أعضاء اللجنة وبدأ توما تقريره:

«أخي العزيز حكيم،

حضرات السيدات والسادة،

كم أشعر بالسرور لأن اللجنة لا تزال تعطيني فرصة الحديث عن شاعري. يسعدني في هذا المساء أن أتناول جانبا من جوانب غوته المتنوعة يدخل البهجة في نفوس الشرقيين خاصة، ألا وهو سرد الحكايات الخرافيه والأسطورية. ومما لا شك فيه أن الثعلب راينكة تعتبر قمة القصص الخيالية التي كتبها غوته لوفرة ما فيها من المهارة والحيلة.»

قاطعه السلطان بقوله: «من الغريب أن جميع الرواة في العالم متفقون على تصوير الثعلب دائما بالحيوان المكار. كان لوالدي صديق غير عادي، صياد سمك بسيط، حرص والدي على زيارته مرة في الشهر، فكان يذهب إليه متنكرا بحيث لا يتعرف عليه أحد غير صياد السمك نفسه. في يوم من الأيام حكى الصياد لوالدي

قصة خرافية لا يزال لها تأثير في نفسي حتى اليوم. هل تعرفون يا ترى أسطورة أبطالها أسد وذئب وثعلب؟»

سألته عالمة متخصصة في التاريخ: «ما أكثر هذه الأساطير، أيها تعني»؟

وعلق عالم آخر: «لا أعتقد أنني أذكر واحدة تدور حول أسد وذئب وثعلب في وقت واحد.»

تعالت أصوات النساء والرجال في القاعة قائلة: «إروها لنا أيها السلطان».

باشر السلطان قصته: «في يوم من الأيام اشترك أسد وثعلب وذئب بقتل أحد فحول الجاموس وما إن باتت الغنيمة ممددة أمامهم، حتى نظر الأسد إلى شريكيه نظرة ريبة وطمع، ضامرا في نفسه ألا ينالا من الغنيمة شيئا. ولم يكن الشريكان الآخران أكثر تواضعا.

وقال آمرا: «أيها الذئب! اقسم الغنيمة بيننا.»

عوى الذئب من فرحته، وأراد أن يتملق ملك الغابة حتى يضمن نصيبه، فصاح بدهاء: «آه يا ملك البراري والصحراء.. يا ملك الحيوانات وأقواها.. حاكمها ورأسها المفكر والكريم.. نصيبك بالطبع من الغنيمة رأسها.. رأس الجاموس الرائع، بينما نصيب الثعلب هو ذيلها، ليس فقط لأن هذا الخبيث الحقير له من الذيل أكثر مما له من الرأس، بل لأنه أيضاً أقلنا نحن الثلاثة قوة وذكاء. أما أنا فلا يسعني إلا أن أقبل بالبقية التافهة من الجاموس.»

تحفز الأسد غضبا وبضربة من كفه قتل الذئب، وجلس يلعق هذه الكف بهدوء، ثم نادى على الثعلب قائلا: «يا رفيقي الذكي، تعال وقسم الغنيمة بيننا»!

أما الثعلب، وقد أصبح خائفا على حياته، فقد استجمع كل قواه الباقية وقال مبتسما: «آه يا ملك الحيوانات، الغنيمة بكاملها لك. أما أنا.. فتكفيني متعة عيني بمراقبتك وأنت تفترسها.»

«ذكي.. ذكي»! زأر الأسد مرتشفا لعابه بشره، ثم تساءل ضاحكا: «ولكن قل لي يا ثعلب، من أين لك هذه الحكمة»؟

أحس الثعلب بالأمان وأجاب: «الذئب يا مولاي. هذا الذئب الميت همس لي بها توا.» وبارتياح ضحك ضحكته الخبيثة، وفي الوقت نفسه، ودون أن يلاحظه الأسد الطماع، انتزع من الجاموس قطعة لحم كبيرة بعد الأخرى حتى شبع.»

«قصة رائعة»! صاحت إحدى السيدات.

وقال توما: إنها فعلا رائعة.. بارك الله لسانك يا حكيم. ما أروع أن تملك البشرية كل هذا الكم من قصص الحيوانات.

غوته أيضاً بدأ منذ طفولته بقراءة الأساطير وسماعها، خصوصا قصص الراوي اليوناني القديم ايسوبوس. ومع أن وجود هذا الرجل غير مؤكد أصلا، إلا أن اليونان نسبوا معظم قصصهم الخرافية إليه. وهي أساطير دارت في معظمها حول الأسود والحمير والصقور والأيائل والبوم - وفي الدرجة الأولى حول الثعلب الداهية.

ومع مرور الوقت احتل الصراع بين الثعلب والذئب مكان

الصدارة في هذه القصص. ولا شك أن الثعلب راينكه إحدى أشهر متنوعاتها. وكان غوته قد اطلع على مادة هذه الأسطورة القديمة في طفولته، لكن شغفه بها ازداد بشدة بعد حضوره قراءة لها في مجتمع البلاط عام ١٧٨٢، حيث كتب عنها:

«أيكون فعلا قد قام شاعر بغنائها قبل مئات السنين؟ كيف يكون هذا ممكنا؟ إن مادتها بالتأكيد هي مادة الأمس واليوم.»

اتخذ غوته نص الشاعر جاتشيد قاعدة لمادة أسطورته، وكتب مسودته الأولى والمؤلفة من اثني عشر مقطعا غنائيا خلال ثلاثة أشهر فقط، اضطر الشاعر بعدها مباشرة للذهاب إلى الحرب، فأخذ معه نسخة منها إلى الميدان وصححها هناك.

لكن يا ترى ما هو الجديد في صياغة غوته لأسطورة الثعلب راينكه؟ جميع الصيغ السابقة عرضت الثعلب دائما كمجرم عديم الكرامة. أما غوته فقد قلب هذا الوضع قليلا وجعل جميع الحيوانات عدوة له، فأكسبه نوعا من العطف. كما أن الثعلب يفطن إلى سر قوة الدهاء، ويستخدمها ضد أعدائه. أي أن الشاعر في النهاية عرض الثعلب كمكار لا يخلو من كل جوانب الضعف الإنسانية المعروفة لدينا.

ونجد أن غوته في بداية الملحمة، أي في أشعارها الأولى مباشرة أشار بوضوح إلى أن الثعلب رغم حجمه المعروف بضآلته، لا يترك حيوانا إلا ويتشاجر معه، مما يدل على أنه متفوق عليهم جميعا حيلة وذكاء.

عيد العنصرة، هذا العيد الجميل، قد جاء، اخضرت الأرض وأزهرت
في الحقول والغابات، على التلال والارتفاعات، في الشجيرات في الأسوار الملتفة
تتمرن العصافير على نشيد رائع سعيد، بعد أن تشجعت من جديد.
في كل سندس تنبت من الأرض زهور برائحة ذكية،
والسماء تلمع باحتفال هادئ والأرض تتلون بألوان بهية.

الملك واسمه نوبل، يجمع بلاطه، ويستدعي كل مساعديه
بسرعة كبيرة، وبأبهة عظيمة، يأتي من هنا وهناك
من كل الزوايا والجهات، شباب كثيرون فخورون،
لوتكا الرهو، وماركارت العصفور وكل الأفاضل الآخرون.

ويخطط الملك مع هؤلاء البارونات أجمعين
يأن يجعل البلاط مهيبا لاحتفال عظيم، وأمرهم باستدعاء الرعية، كلها مع بعضها، كبيرها وصغيرها.
يجب ألا يتخلف أحد منها! مع ذلك تخلف واحد،
إنه الثعلب راينكه، المكار، الذي قام بأعمال مشينة كثيرة امتنع بسببها عن الحضور إلى حفل القصر. مثلما يهاب الضمير السيئ النية

الضوء والنهار، يهاب الثعلب الأسياد المجتمعين.
فكل سيد منهم يحمل شكوى عليه، فهو لم يترك أحدا
إلا وأساء إليه،
إلا واحدا، حافظ على الود، هو جريمبارت الغرير، ابن
أخيه،

لكن الذئب إزيجريم بدأ يعرض شكواه، وفي صحبته
كل أقربائه وأصدقائه، وكل ذوي الخير والبر،
تقدم إلى الملك، وأمامه قال الكلمات القانونية:
مولاي وسيدي الملك! اسمع أقوالي وشكاوي.

أسطورة غوته هذه ربطت الفكاهة بالشعر وابتعدت عن الوعظ. كما أن اختيار نوع من الأوزان الشعرية المسمى هكساميتر يعتبر بحد ذاته غير عادي لأسطورة، لأن هذا الوزن كان يستعمل عادة في أشعار المديح للأعمال البطولية في بلاد الإغريق القديمة. غوته بدوره استخدمه لثعلب مكار.. استخدام لم يعد طريفا فقط، بل كاد أن يكون استفزازا. هذا مع أن غوته في الوقت نفسه غيَّر من الشكل الكلاسيكي الصارم للهكساميتر، مما أعطى أبياته الشعرية رنينا خفيفا.

لكن الشاعر تعرض للنقد لهذا السبب بالذات وهو عدم مراعاته للتركيب الصحيح للهكساميتر، ولو أن ذلك في الواقع دليل على قدرته الفائقة على التعامل الحر مع الأشكال التقليدية، في الوقت الذي فشل فيه بعض الشعراء والنقاد المعروفين مثل

أوغست فيلهلم شليجل وغيره فشلا مؤسفا عندما أرادوا نظم الهكساميتر الخطأ بدقة.»

(هنا يتوجب عليّ أنا كاتب البروتوكول المسكين أن أعترف آسفا، انني في الحقيقة لم أتمكن من مجاراة توماس في شرحه حتى النهاية، وأسمح لنفسي أن اعترف أيضاً أنني دونه علما وذكاء فيما يختص بفن الهكساميتر)

وواصل توما حديثه: «للأسف لم تحظ خرافة الثعلب راينكه في زمانها على اهتمام المجتمع، بل ذهب بعض النقاد إلى رفضها تماما، هذا في الوقت الذي أحبها المفكر العظيم، فريدريش شيلر، الأديب وصديق غوته المعاصر، وتحمس لها جدا.

لكن السؤال الآن، لماذا اختار غوته هذا الصورة الأسطورية التي تتحدث بألسنة الحيوانات؟

كان غوته قد اشمأز من الويلات التي صاحبت الثورة الفرنسية وحاول أن يتقوقع على نفسه: «**لكن أنا أيضاً حاولت أن أنقذ نفسي من هذه الويلات المروعة، بأن أعلنت أن العالم بكامله ليس أهلا للاحترام. في هذا الوقت بالذات وبصدفة غريبة وقع الثعلب راينكه بين يدي.**»

وما إن بدأ غوته بكتابة الثعلب راينكه حتى تسلى وأحس بالسلوان كما تبين له لاحقا. لقد سمى اسطورة - راينكه التوراة الدنيوية غير المقدسة وقال عنها: «**كانت لي بمثابة عزاء وسعادة في البيت وخارجه**». إلا أن الأسطورة تبلورت وأصبحت في

النهاية عملا يحمل رأيا سياسيا، لا يقتصر على إظهار خيانة الثورة للشعب فقط، ولكنه أيضاً يتهم الحكومات بوجه عام بالطمع الشديد. بذلك يمكن القول إن كتابة هذه الأسطورة أعادت غوته إلى مجرى الأحداث السياسية مرة ثانية، ولم يعد هناك أي أثر لعزلته وانطوائه.

ماذا تحكي الأسطورة؟

الثعلب راينكه هو الوحيد الذي تغيّب عن حفل استقبال بلاط الأسد نوبل، لأنه خشي شكاوى جميع الحيوانات التي تضررت منه ومن دهائه. كان الشاكون هم أعداء راينكه اللدودين: الذئب ازيجريم، والدب براون، والقطة هنسة. فأرسل الملك الدب ثم القطة لإحضاره، إلا أن الثعلب نصب لكل منهما مكيدة نجا الاثنان منها بأعجوبة. أخيرا نجح الغرير جريمبارت في تحريك راينكه عن موقفه وإقناعه بالحضور إلى البلاط الملكي. وفي البلاط حدث فعلا ما كان الثعلب يخشاه: ألقيت عليه التهم وصدر عليه الحكم بالموت. لم يفقد الثعلب شجاعته، والأهم أنه لم يفقد صوابه، بل ولم يطلب الرحمة حتى بعد أن أصبح واقفا على سلم المقصلة التي نصبها له أعداؤه، فهو على دراية بالأسد، وعلى علم بشدة طمعه وفظاعة شكه بالدساسين الذين أضنوه وهددوا سلطته. لذلك فكر راينكه أن ما عليه الآن إلا استغلال خوف ملك الغابة من تهديد خطر الدساسين الوهمي، واستغلال طمعه في الحصول على معلومات جديدة فأنشد برباطة جأش:

الحمد لله، لم أعانِ من جوع لهذا السبب؛

بالسر ودون أن يعرف أحد اقتربت من كنزي العظيم،
الذي هو من ذهب وفضة. هناك في مكان أمين
أحفظه سرا، وبه ما يكفي ويزيد. تا الله
لن تكفي عربة صغيرة لنقله، ولو بسبع نقلات.

راح الملك يسترق السمع، عندما جاء الحديث عن الكنز،
من أين أتيت؟ انحنى إلى الأمام وسأل،
قل! إني أعني الكنز. أجابه راينكه:
ولماذا أخفي هذا السر عنكم، وهو لن يساعدني؛
وأنا لن آخذ من هذه الأشياء القيمة شيئا معي.
لكن كما تأمرونني، فسأحكي لكم كل شيء عندي؛

من أجل الحب والمعاناة يجب أن يخرج ما في قلبي أخيرا إلى النور
والله لن أخفي عليكم هذا السر الكبير، مدة أطول،
كان الكنز قد سرق، وكان المتآمرون كثيرون،
على أن يقتلوك يا مولاي الملك! وفي الساعة نفسها
لو لم يسرق الكنز بمهارة، لحدث ما حدث
لاحظ يا مولاي السيد! حياتك وكل رفاهيتك
تعتمد على الكنز الذي ما إن سُرق، حتى جلب ويا للأسف
مأزقا كبيرا لوالدي، اضطره في ذلك الصباح الباكر نفسه

أن يقوم بسفرة حزينة، بل ربما تؤدي لأضرار أزلية
لكن، يا مولاي الملك، حدث هذا من أجلكم!

فزعت الملكة وهلعت عندما سمعت الحديث المروع،
عن السر المحير، وراء قتل زوجها،
ووراء المؤامرة، ووراء الكنز وكل ما قال.
إني أستجوبك يا راينكه، صاحت الملكة:
فكر وضع في حسابك! رحلة العودة الطويلة، لا تزال أمامك،
اترك روحك تعترف، خبّرني بالحقيقة الكاملة،
واسرد عليّ كل ما يتعلق بالقتل والمؤامرة الشائنة.
أما الملك فجلس: مستعيذا بالصمت!
يا راينكه، آمرك بالنزول! تقدم واقترب مني،
أريد أن أسمع منك الموضوع بكامله، فهو الآن يهمني
راينكه، الذي راح يُستجوب، شعر بالسلوى
نزل هو من على السلم، بينما أعداؤه بدوا في قمة الغيظ؛
وتقدم واقترب من الملك والملكة في الحال،
فراحا يسألانه بهمة واجتهاد، كيف واجه هذه القصة.

هكذا نجا راينكه من الموت هذه المرة. حكم عليه بالبراءة وأطلق سراحه. هذا في الوقت الذي زج بأعدائه في السجن وفي مقدمتهم الدب براون والذئب ازيجريم. لكن راينكة بعد أن حصل على حريته لم يأخذ طريقه إلى روما ويحج للبابا حتى يتحرر من

ذنوبه وخطاياه، كما وعد الأسد، بل غيّر مساره واتجه إلى بيته دون أن يعير الحيوانين المعنيين بمصاحبته في رحلتة إلى روما، الأرنب لامبة والجدي بيلين، أي اهتمام لعلمه بذكائهما المحدود. وما إن وصل الثلاثة إلى بيته حتى هجم الثعلب أولا على الأرنب الساذج وعضه في عنقه أثناء غيبة قصيرة لمرافقه الآخر، فوفر بذلك لعائلته عشاءً فاخرا دسما. ثم جاء دور الجدي، بأن احتال عليه الثعلب وأوكله بمهمة توصيل حقيبة إلى ملك الحيوانات بحجة أنها مليئة برسائل سرية هامة موجهة إليه. حملها الجدي إلى الأسد، الذي ما إن فتحها حتى أكله الغيظ إذ لم يجد بها غير رأس الأرنب لامبة. أدرك الأسد على الفور أن الثعلب خدعه، فثارت ثائرته ليس على الثعلب فقط، لكن على الجدي الأحمق أيضاً.

ودون أن يدري وجد الجدي نفسه متهما بالاشتراك مع الثعلب في عملية قتل الأرنب. وصدر حكم بالبراءة على كل من الذئب والدب، بينما حكم الملك على الجدي، بأن يبقى هو وأولاده وأحفاده وكل سلالته ضحايا الذئاب إلى الأبد. ولم ينتظر الذئب طويلا، بل انقضّ على الجدي بيلين في الحال وقتله.

وبأمر من الملك سارعت جميع الحيوانات إلى ملاحقة الثعلب، إلا أن هذا المكار تحايل عليهم المرة تلو المرة، واستطاع أن يدافع عن نفسه في البلاط تارة بعد الأخرى، وأن ينقذ عنقه من المقصلة مرارا وتكرارا بمساعدة اللبؤة. ولما لم يكتف الذئب ازيجريم بحصوله على البراءة ودعا الثعلب إلى مبارزة ثنائية، أسفرت عن هزيمة مهينة له، فهم الملك هذه اللغة وقرر أن

يستفيد من دهاء الثعلب وعيَّن راينكه مستشارا للدولة. وهكذا عاش الثعلب في القصر مع زوجته وعائلته حياة مريحة خالية من الهموم.»

استراح توما استراحة قصيرة ثم اقترح على مستمعيه أن يلقي عليهم عينات شعرية أخرى يختارها من هذه الملحمة التي ترجمها بكاملها إلى العربية بنفسه، حتى يتسنى لهم الإحساس بلغة غوته.. وبجمالها الرائع، وبغناها بالكنايات والصور. هذا بالطبع إذا لم يكن لديهم مانعا. رجاه السلطان بحرارة أن يفعل، فراح توما يلقي أبياتا شعرية من هنا وأبياتا أخرى من هناك، متحاشيا المقاطع الطويلة، فسحر الحاضرين وزادهم فتنة وإعجابا بالملحمة.

وبمجرد أن انتهى قال بصوت عال: «لهذا السبب... لهذا السبب سيداتي وسادتي أرجو أن تفهموني عندما أقول: هذا العمل الذي يمثل روح غوته الشمولية هو بالتأكيد جزء لا يتجزأ من الكنز الشعري الذي نريد توفيره وتقديمه إلى أبنائنا.»

انسحبت اللجنة للاستشارة في الصالون الأخضر الصغير. وما إن عادت حتى بلَّغ السلطان بوجه متهلل مسرور صديقه توما بأن الأعضاء أحبوا الثعلب راينكه، وسيكون سرورهم عظيما لو أكمل الحديث عن شاعره غوته في اليوم التالي.

الليلة الرابعة

وفيها يقدم توما يدا مليئة بالماء ليشرح ما يحمل البحر في طياته

«أخي العزيز،

سيداتي وسادتي المحترمين،

إعجابكم أمس بملحمة الثعلب راينكه أدخل البهجة إلى قلبي، فرجعت إلى بيتي سعيدا، وتناولت طعاما خفيفا، حتى أكون قوي البدن والعقل وأنا أقوم بتحضير أشعار غوته التي ستكون موضوعي التالي. وفجأة أحسست بتعب شديد وبتخدير يجري في عروقي، قررت على أثرهما الاستلقاء قليلا وأخذ قسط من الراحة. هنا تراءى لي حلم غريب.. ولكن هل كان ذلك حلما يا ترى؟ أليس من الممكن أن روح غوته.. الشاعر الذي يرافقني منذ طفولتي، ومنذ وقت ليس بالقصير يشغلني صباحا ومساء، إنما يريد أن يساندني في مهمتي الصعبة هذه والمليئة بالمغامرات؟

إننا نعلم أن الأحلام قابلة للتفسير، لكن أسبابها ستبقى خفية عنا نحن البشر، ما دمنا عاجزين عن معرفة ما يحرك ويقلقل نفوسنا أثناء النوم.

كنت مستلقيا على تلك الكنبة التي أهديتها لي قبل سنتين يا أخي العزيز، وأستعد للقراءة. لم تكن الكنبة في مكانها المعتاد في غرفة القراءة، بل في حديقة غريبة تحت شجرة صفصاف. فجأة ظهر أمامي شبح مضيء، خفت وهالني فزع شديد وهممت أن أنهض بسرعة، إلا أن الشبح رفع يده بطريقة أقرب إلى الخجل والتردد وأشار إليّ فقط بما معناه أن أبقى في مكاني، واقترب مني وابتسم، وإذا به فولفغانغ فون غوته، رجل في حوالى السبعين من العمر، يبدو بنظرته الحزينة طيبا طيبة فياضة.

«أيها الشاب، إنك تبذل من هذا المنبر جهدا رائعا لنشر أعمالي والدفاع عنها، كيف يمكنني أن أساعدك وأشد من عضدك؟»

قلت برهبة واحترام: «أستاذي العظيم، ما أنا إلا تلميذ بسيط يحاول أن يتعدى على إنجازاتك ويشرحها، وأنت خير من يعلم نتيجة ذلك، فكم أخشى أن أصبح كصبي الساحر في أحد أشعارك.»

هز غوته رأسه وقال: «سأراقبك ولن أصرف النظر عنك.»

قلت خائفا: «لكن.. لكن أعمالك واسعة كالمحيط، فكن قائد مركبي المتواضع وساعدني لأصل شاطئ الأمان.»

قال ضاحكا: «لا تخف وتخيف نفسك بنفسك. أعمالي تهدف إلى إسعاد الروح والقلب وليس إلى إرهابهما. اغطس يدك في الماء واغرف منه ملئها.»

عملت بنصيحته وغرفت بيدي من ذلك المحيط. قال بحزم:

«انظر تماما إلى حفنة الماء التي في يدك، إنك ستجد فيها كل المحيط.»

صحوت. لكن ذهني بقي مشغولا بمعنى كلماته طوال الساعات الأخيرة الباقية من الليل، ولم أدرك معناها الشامل والكامل الا مع طلوع الفجر.

فأنا فعلا لا أملك إلا أن أقدم لكم بعض قطرات من بحر غوته الشعري، مع ذلك آمل أن يفتح اختياري نافذة على أعماله الكاملة. على الرغم من تشجيع أستاذي لي، أحس وكأنني صبي الساحر في تلك القصيدة التي كتبها غوته في شبابه، والتي سأبدأ بها محاضرة اليوم:

صبي الساحر

أيكون معلم السحر العجوز
قد مضى من ههنا!
إذن فعلى أرواحه الآن
أن تعيش رهن إرادتي!
لقد عرفت كلماته وأعماله
كما عرفت عاداته،
وبقواي الذهنية
سأقوم بأعجوبة أيضاً.

فلتمج! فلتمج

بضع مسافات
حتى ينهل الماء
لبلوغ الهدف
ويفيض بوفرة وغزارة
وينصب في المسبح!

والآن تعالي، أيتها المكنسة العتيقة!
خذي جراب الثياب الخرقة الرديئة!
ما أنت إلا خادمة منذ مدة،
فاستجيبي اللحظة لإرادتي!
قفي على قدمين،
وليكن لك رأس فوق
وأسرعي إذن وسيري
بوعاء الماء!

فلتمج! فلتمج
بضع مسافات
حتى ينهل المطر
ويفيض بوفرة وغزارة،
وينصب في المسبح!

انظروا إلى المكنسة، ها هي قد نزلت إلى الضفة،
حقا! قد وصلت إلى النهر،

وها هي قد عادت في لمح البصر
لتصب الماء ها هنا بسرعة.
للمرة الثانية!
ما أسرع ما يمتلئ الحوض!
ما أسرع ما تمتلئ
كل صفحة بالماء!

قفي! قفي!
فقد أخذنا
مقاسات
كل مواهبك- !
آه، إني ألاحظ ذلك! ويلاه! ويلاه!
لقد نسيت الكلمة!

آه، نسيت الكلمة، التي بها في النهاية
تعود المكنسة إلى ما كانت عليه من قبل.
آه، إنها تمضي وتحضر الماء بخفة!
ليتك بقيت تلك المكنسة العتيقة!
دائما تحضر ماء جديدا
وتدخله هاهنا بسرعة،
آه! فتنهل مئات الأنهار
وتغمرني غمرا.
كلا، لن أستطيع

تركها طويلا،
أريد أن أمسكها.
هذه مخادعة!
أواه! ها خوفي يزداد!
فأي ملمح! أية نظرة!

آه منك، يا وليدة الجحيم!
أحتم أن يغرق البيت كله؟
ها أنا أرى فوق كل عتبة
أنهارا من الماء تجري.
يا لها من مكنسة ملعونة
ترفض أن تسمع!
أيتها العصا، التي كنتها،
توقفي من جديد!

ألا تريدين في النهاية
التخلي عن أفعالك؟
سأقبض عليك إذن،
وأمسك بك
وأشق بنشاط خشبك
العتيق بالبلطة الحادة.

ها هي تعود محملة!

عندما أرتمي عليك الآن
فورا تسقطين أرضا، أيتها الجنية،
عندما البلطة الصقيلة تصيبك!
تصيبك إصابة دقيقة حقا!
وها هي قد تكسرت،
والآن أتنفس بحرية!
الويل! الويل!
النصفان
يسرعان
وقد صارا خادمين
إلى بلوغ القمة!
آه، ساعديني، أيتها القوى العليا!
ها هما يجريان!
والطوبة تزداد قوة
في القاعة وفوق الدرج.
يا له من ماء رهيب!

يا سيدي وأستاذي! اسمع ندائي!
آه، ها هو أستاذي قد جاء!
سيدي، إن ضيقي لشديد!
لم يعد في وسعي التخلص
من الأرواح، التي دعوتها.

إلى الزاوية أسرعن،
أيتها المكانس!
قد انتهى دوركن!
بوصفكن أرواحا
لن يدعوكن إلى الحضور
لتحقيق مراده
غير المعلم العجوز.

«رائع!» صاح أكبر العلماء سنا.

«حقا رائع»! أيّدته إحدى السيدات.

أردف السلطان: «أعتقد أن فكرتها معروفة لدي من خلال قصص أخرى.»

أجابه توما: «صدقت أيها السلطان، إن قصة الصبي الذي يقلد معلمه الساحر ثم ينسى كلمة السر، لهي حكاية معروفة. فعندما كتب غوته هذه القصيدة في عام ١٧٩٧ ارتكز على مجموعة قصص الكاذب والملحد التي كان قد ألفها الشاعر السوري اليوناني لوقيانوس الذي عاش بين عامَي ١٢٠ و١٨٥ بعد الميلاد.»

قالت إحدى السيدات: «بالضبط. لقد درست لوقيانوس سنوات عدة. إنه كاتب هجائي عظيم، له تركة واسعة من الأعمال أهمها المعروفة باسم محاورات مثل محاورات الآلهة ومحاورات الموتى ومحاورات العشيقات. غوته نقل محتوى قصته الساخرة

الكاذب والملحد بكاملها، فالمعلم في قصة لوقيانوس كان اسمه بانكراتس وكان صبيه يعاني من بعض الغباء. وقد كتب هذا المؤلف بالإضافة إلى هذه القصص نصوصا أخرى أكثر لذعا وخيالا، فهو مثل غوته، رحالة تفاعل مع جميع الثقافات. خذوا مثلا قصته رحلة إلى القمر التي كتبها في ذلك الزمان الغابر.»

سأل السلطان باستغراب: «ماذا؟ إلى القمر»؟

«نعم، واسم الكتاب هو اكاروميبوس أو الرحلة الجوية، قصة مسلية جدا يتمنى فيها البطل أن يكتشف أسرار الفضاء، ولهذا الغرض يقوم برحلة إلى القمر وإلى زيوس الذي يعد أكبر آلهة اليونان قبل المسيحية. ومن القمر يراقب الأرض ويصفها بأنها صغيرة، ويبدو الناس عليها كالنمل. يقال إن لوقيانوس في الواقع كان قد نقل فكرتها عن شاعر عبقري آخر اسمه مينيوس عاش حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد.

ثم ختمت العالمة حديثها قائلة: «هكذا ترون، لا يضير المفكر العبقري أن يتأثر بأعمال الآخرين.»

أكمل توما بابتهاج: «إنها وجهة نظر غوته نفسها. استمعوا إلى ما قاله حول هذا الموضوع لأحد المقربين إليه وهو يوهان بيتر اكرمان في شهر يناير من عام ١٨٢٧:

«إني أحب أن أذهب ببصري هنا وهناك بين الأمم المختلفة، وأنصح كل واحد أن يفعل الشيء نفسه. إنني لا أريد أن أقول الكثير الآن حول الأدب القومي، لأن الوقت قد حان لعصر الأدب العالمي، وعلى كل واحد منا أن يشارك في دفع وحث خطى هذا العصر.»

تبين السلطان راضيا: «هذا يعني أن غوته سعى في زمانه أيضاً إلى فكرة مشابهة لفكرة مشروعنا بيت الحكمة.»

«المهم هي الصورة الشعرية الجديدة التي استحدثها غوته في قصته، وليس فكرة الصبي المتخاذل التي تعتبر قديمة قدم الزمن.» أكد توما.

ومر الوقت، ولا يزال توما والمرأة المتخصصة في لوقيانوس أسيرَي رحلتهما الاستطلاعية الصغيرة في تاريخ قصصه، ولم ينتبها إلا بعد أن بدأ التململ يظهر على أعضاء اللجنة. عندئذ سارع توما وألقى قصيدته القصصية التالية:

ملك تولة

كان في تولة ملك كان في تولة ملك مخلص حتى اللحد
ظل وفيا حتى القبر، وقد أهدته محبوبته، وهي تموت، كأسا ذهبية.

ضحك السلطان وزج نفسه في الإلقاء، مدندنا أبيات الشعر مع صديقه، لكن باللغة الألمانية على ما يظهر، إذ لم يفهمها أحد منا. ضحك توما أيضاً لكنه لم يتوقف بل أكمل إلقاء القصيدة باللغة العربية التي ترجمها بنفسه:

عند موتها أعطته عشيقته لم يكن لديه أعز منها. وكان يفرغها في كل مأدبة

قدحا ذهبيا. وكلما شرب منها اخضلت مسارب عينيه

لم يكن يعدل به شيئا، ولما حضرته الوفاة. راح يعد المدائن في دولته
ويغرف محتواه في كل عشاء فاخر ويوصي بكل شيء لوريثيه، باستثناء الكأس

فتشرق عيناه دمعا ثم جلس إلى المائدة الملكية تحيط به الفرسان
كلما تعاطى الشراب منه في قاعة الآباء العالية في القصر المطل على البحر

وعندما حان حينه، هنالك وقف هذا الشارب العجوز
ثم ألقى بالكأس المقدسة في الماء، واحتسى آخر جرعة من حميا الحياة

وشاهدها وهي تسقط وتغوص في أعماق البحر
وغارت عيناه ولم يشرب بعد ذلك قطرة

لم تَخْفَ عنا جميعا سعادة سلطاننا الشاب وهو يستمع بشغف إلى القصيدة الدرامية المشهورة التي كان يحفظها بالتأكيد منذ طفولته على يد مربيته والدة توما. وما إن انتهى توما حتى سارعت إحدى عضوات اللجنة وهي سيدة في منتصف العمر بطلب الكلمة، وقالت:

«مما لا شك فيه أن شاعرك غوته متعدد النواحي. فلا يوجد وجه شبه بين نغمة هذه القصيدة ونغمة سابقتها صبي الساحر، تلك التي أخبرتنا يا توما أنها ارتكزت على قصة اليوناني لوقيانوس، فخبّرنا الآن، هل من مثال أو نموذج لقصيدة ملك تولة أيضاً»؟

ضحك توما وقال: «ها أنتم تعرفون غوته معرفة تامة. لا، لا يوجد لها نموذج أدبي سابق. صحيح أن الموقع تولة كان يعرف في العصور القديمة على أنه الجزيرة في أقصى شمال العالم. ومن المرجح أن المسافرين في ذلك الزمان كانوا يعنون به الشاطئ النرويجي.

يُعتقد أن غوته كتب القصيدة في صيف عام ١٧٧٤ أثناء إحدى رحلاته، في وقت اهتم فيه الشاعر بالأغاني والأشعار الشعبية وحاول التقرب منها. ذاع صيت هذه القصيدة بسرعة وأحبها الناس لنغمتها الخاصة وموضوعها الأزلي، ألا وهو الحب الذي لا يكسر جناحه.»

سأل السلطان: «هل في جعبتك قصيدة قصصية جميلة أخرى تلقيها علينا؟»

«بكل سرور يا أخي العزيز.» أجابه توما. «إليكم قصيدة أخرى كتبها الشاعر في عام ١٧٨٢، وتدور أحداثها أيضاً في أقصى الشمال.

كان الشاعر الألماني يوهان جوتفريد هيردر قد سرد على غوته قصة أسطورية ترجمها من اللغة الدنماركية، وكان قد أخطأ بترجمة الكلمة الرئيسية فيها. وبحسن نية أخذ غوته هذه الكلمة وكوّن منها عنوانا لقصيدة رائعة:

من يمتطي متأخراً عبر الليل والريح؟
انه الأب يصحب ابنه،
يحمل الطفل فوق ذراعه،
ويضمه اليه مدفئا إياه. -

ابني، ما لك تخفي فزعا وجهك؟
ألست يا أبي، ترى ملك الجن،
ملك الجن بتاجه وذيله؟
لا أرى يا بني، إلا شريط ضباب.

«تعال معي، أيها الطفل اللطيف، تعال!
سألعب معك ألعابا جميلة،
فهناك زهور ملونة على الشاطئ،
ولأمي شتى الثياب الذهبية.»

أبتاه، أبتاه، ألا تسمع
ما يعدني به ملك الجن همسا؟
اهدأ، هدئ من روعك يا بني!
إنها الريح تصفر في أوراق جافة.

«ألا تود الذهاب معي، أيها الطفل البهي؟

بناتي سيحتفين بك في لهفة،
ويؤدين الرقصة الدائرية الليلية
ويأرجحنك ويرقصن ويغنين لك.»

أبتاه، أبتاه، ألست ترى هناك
بنات ملك الجن في العتمة؟
بني، بني، إني أرى ذلك تماما،
فالصفصاف العتيق يبدو مرمدا

إني لأحبك، أنت تفتنني بشكلك الجميل،
وإن لم تطعني، أخذتك عنوة.
أبتاه، أبتاه، ها هو الآن قد أمسكني،
قد آلمني، هو ملك الجن!

فارتاع الأب، وراح يحث مطيته،
ممسكا بذراعه الطفل المتأوه،
وعندما بلغ هدفه بعد عناء،
كان الطفل قد قضى نحبه فوق ذراعه.

قالت إحدى السيدات في تأمل: «غوته.. يا له من حكيم. يصف حدثا فاجعا كهذا دون أي تعليق، مما أعطى الحزن والألم عمقا أقوى وأعظم. لكن هل أحسستم يا ترى، كما أحسست أنا، بذلك الشعور الغريب في صدر الملك؟ شيء ما في هذا الشعر،

ليست كلماته، بل ربما ما بين سطوره يقول لي، إن الملك لم يمتطِ فرسه إلا ليودع ابنه.»

صاح علامة كبير السن: «ما أفظعه من ألم! هل هناك ما هو أفظع ألما من فقد طفل. لقد فقدت ابني وهو في العشرين من عمره.. ارتفعت حرارته ليلة واحدة فقط ثم .....» مسح العلامة الكبير الذي قارب على الستين من العمر دموعه، ثم أكمل بصوت محشرج: «... عشرون عاما مضت على هذا الحدث، ولكن وحتى هذا اليوم ما إن أسمع شيئا يتعلق بموت طفل، خبرا أو قولا أو شعرا حتى أعود بكل حواسي إلى تلك اللحظة.. اللحظة التي تأكدت فيها أن ابني لم يكن فاقد الوعي ولكنه كان قد فارق الحياة.»

خيم صمت ثقيل على الجميع.

حتى جاء صوت السلطان واخترق ذلك الصمت بقوله: «عندما فقد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ابنه وكان حزنه شديدا، حاول أحد الشعراء تعزية البائس الحزين ببيت شعر يقول:

تعز أمير المؤمنين فإنه
لما قد ترى يغذى الصغير ويولد
هل ابنك إلا من سلالة آدم
لكل على حوض المنية مورد

رد توما: «نعم، الفكرة نفسها عالجها غوته أيضاً. وهي تبدو جلية في شعر كنت أنوي إلقاءه لاحقا في إطار مجموعة الأشعار

الخاصة بالطبيعة، لكن ربما حان الآن الوقت المناسب لإلقائه، فما رأيكم؟»

علت بين أعضاء اللجنة همهمة تنم عن الموافقة. وباشر توما:

أغنية الرحالة الليلية

فوق كل الأعالي
إحساس براحة وهدوء
في قمم كل الأشجار
تكاد لا تحس بالنسمة
والطيور تصمت في الغابة
عليك فقط بالانتظار
وقريبا، سيكون دورك في الراحة

تطرق غوته هنا إلى موضوع زوال كل الأحياء، وكتب هذه القصيدة القصيرة في خريف عام ١٧٨٠ بقلمه الرصاص على حائط كوخ صيد خشبي، احترق للأسف عام ١٨٧٠.

وكان غوته قبل وفاته بمدة قصيرة قد عاد وزار هذا الكوخ وطلب من مرافقه أن يقرأ له الأبيات المكتوبة عليه، وبمجرد أن سمعها راح يبكي ويردد محادثا نفسه: «نعم، وقريبا، سيكون دورك أنت في تلك الراحة.»

صمت الحاضرون من جديد. وتنبهنا فجأة إلى همسات الليل، بعدما كان الهدوء قد سمح لها بالتسلل إلينا عبر نافذة القاعة المفتوحة. صرنا نسمع هدير أمواج البحر وهي تروح وتجيء، وكأننا نسترق السمع إلى نغم الحياة المستمر.

صياد السمك

هدر الماء، ارتفع الماء،
وصياد السمك جالس قربه،
ينظر إلى صنارته بهدوء،
وقد نفذت البرودة حتى قلبه.
وبينا هو جالس، وبينا هو يصغي
انفرج الموج متعاليا
فبدت امرأة مبللة

غنت له وخاطبته:
«ما لك تغري أسماكي الصغار
بمكرك وحيلك الإنسانية
حتى يلهب جمر الموت؟
آه لو عرفت ما تنعم به
الأسماك هاهنا في القاع،
لنزلت إليها كما أنت
ونلت عندها السلامة.

ألا ترتوي الشمس الحبيبة،
ويرتوي القمر من ماء البحر؟
ألا يستدير إليه وجهاهما، وقد
تنشقا الموج، وهما أكثر جمالا؟
ألا تغريك السماء العميقة
وتلك الزرقة الرطيبة؟
ألا يغريك وجهك أنت
فتراه في الليل السرمدي؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

هدر الماء، ارتفع الماء،
وراح يبل قدمه العارية،
فنما قلبه في شوق بالغ
كمن ينمو لتلقي تحية الحبيب.
خاطبته، وغنت له،
وعندما حل به الهلاك:
فقد سحبته إليها، فاختفى فورا
ولم يُرَ له بعد من أثر.

لقد خاطب الشعر بؤرة أفكارنا، وخال لنا وكأن الأمواج في الخارج تتداعى مع إيقاعات أبياته، فبقينا على صمتنا نسترق السمع في الليل ردهة من الوقت.

حتى عاد توما وواصل موضوعه قائلا: «أغلب الظن أن غوته كتب هذه القصيدة الشعرية في عام ١٧٧٨ بعد حادث انتحار سيدة

بإغراق نفسها بسبب آلام حب فاشل. وكتب في الوقت نفسه إلى المرأة القريبة إلى نفسه شارلوته فون شتاين هذه الكلمات: «**هذا الحزن الذي يشدنا لنحزن معه، يملك جاذبية خطرة كجاذبية الماء نفسه، كما أن انعكاس شعاع نجوم السماء الذي يضيء في كل من الحزن والماء، يغرينا.**»

وقد كاد هذا الشعر عند نشره أن يسبب غضبا عاما لمخالفته الواضحة للاعتقاد المسيحي المؤمن بأن الحياة والموت بيد الله وحده وأن الانتحار خطيئة ممقوتة. غوته من جهته لم يرَ الإلهية في الذات العلية فقط، ولكن في الإنسان نفسه أيضاً.»

أردف علامة سمين البنية: «كم يذكرني هذا بالحلاج، الشاعر المتصوف الذي صُلبَ في بغداد عام ٩٢٢ لأنه كان قد مدح الأنا بالإنسان ووصفها بالإلهية الحقيقية.»

وافقه توما قائلا: «لقد كان غوته أكثر حظا، فمحاكم التفتيش كانت في عصره قد انتهت.»

ومد يده إلى الكوب الذي ملئ لتوه بالشاي الطازج ليرتشف منه قليلا. بينما لازم الحاضرون السكوت برهة من الزمن، فقد تركت القصائد الدرامية آثارها الواضحة عليهم، وبدوا مكتئبين إلى أن تنحنح السلطان أخيرا وقال:

«أخي العزيز، لقد استمتعنا بعرضك عظيم الاستمتاع رغم إحساسي أن المزاج الحزين الذي غلب على معظم القصائد ترك أثره العميق في وجداننا.. وهذا بلا شك دليل جديد على عمق شعر غوته، لكننا متأكدون أن شاعرك ألّف قصائد أخرى متنوعة

المواضيع، واقتراحي أن تسعدنا وتلقي علينا قصيدة جميلة تبهجنا. . . قصيدة حب.»

ما إن وصلت كلمات السلطان إلى آذان المستمعين في القاعة حتى دبّ بهم النشاط من جديد، بل وانعكست سعادتهم المرتقبة على وجوه بعض منهم.

ابتسم توما وبدأ بالالقاء:

قرب الحبيبة

أفكر فيك حين يضيئني شعاع الشمس
الآتي من البحر،
وأفكر فيك حين يرتسم نور
القمر في الينابيع.

أراك حين ترتفع فوق الطريق
البعيد كتل الغبار،
وفي الليل العميق حين يرتعد الجوال
فوق الجسر الصغير الضيق.

أسمعك حين ترتفع الأمواج هنالك
هادرة في خفوت.
وكثيرا ما أمضي إلى الغابة الهادئة
أنصت حين يصمت كل شيء.

إني لديك مهما كنت بعيدة،
أنت مني قريبة!
ها هي الشمس تغيب
وقريبا تضوء الكواكب
فيا ليتك كنت معي هاهنا!

«عظيم!.. ما أحلاه!.. ما أجمله!» رنت الأصوات في القاعة وتداخلت عندما حاول جميع أعضاء اللجنة التعبير عن شدة إعجابهم في وقت واحد - كل بطريقته الخاصة وحسب حيويته. أخيرا استطاع العلامة البدين أن يفرض إرادته بينهم ويقول:

«كم هو رائع ذلك اليسر الذي يترجم به غوته الشعور والإحساس إلى كلمات... وهل هناك من عاشق لا يخالجه الشوق لمعشوقته الموجود في مكان ما في الغربة؟»

بحزم قاطعته سيدة جاوزت مرحلة الشباب: «نعم، هذا هو بالضبط مصير كثير من النساء، فكم منهن ينتظرن رجوع أزواجهن دون أن يبارحهن الشوق إليهم. وضع لم يتغير.. منذ زمن غوته وإلى يومنا هذا، بل وحتى هنا في جزيرتنا حلم أيضاً. انظروا فقط إلى نساء بحارتنا اللواتي يقضين الوقت الطويل وحدهن ويتدبرن أمور حياتهن بكل حسم وعزم، لكن كل ما يملكنه منهما لا يساعدهن في التغلب على الشوق الذي يبقى مختزنا في صدورهن.»

أردفت سيدة شابة: «من ناحية أخرى ماذا سيكون من أمر الحب دون الشوق؟ ما راقني في هذا الشعر هو دقة الشاعر

المتناهية في وصف الحب، وكيف يتمكن من أعماق قلب المحب.. من تفكيره.. من بصره.. من سمعه - وباختصار كيف ينال من كل حواسه، حتى أن المحب يجد في كل جمال طبيعي وفي كل حدث صغير علامة لحبه وتذكيرا له به. هل يمكن إعطاء هذا الشعور الغامر وصفا أجمل من هذا؟»

تدخّل توما في المناقشة مرة أخرى وقال: «إني أعطيكم كل الحق، فالحب قرب الحبيبة حب غني يملأ القلب سعادة وبهجة، وألم الفراق فيه يكافأ مكافأة سخية في اللحظة التي يلتقي فيها الحبيبان ويتعانقان.»

سأله السلطان: «أستنتج من كلامك يا توما أنك في صدد إلقاء شعر آخر يصف حبا فاشلا»؟

ابتسم توما قائلا: «لم تخطئ يا أخي العزيز، فأنت تعرفني جيدا. سألقي شعرا من أحب الأشعار إلى أمي:

حب لا يهدأ

صوب الثلج، صوب المطر،
صوب الريح،
في البخار المتصاعد من الهوى،
عبر ضباب العطور
أزحف! أزحف!
دون راحة ودعة!

أفضل أن أشق طريقي
عبر الألم الوفير
على احتمال كل
مسرات الحياة هذه؛
كل هذا الميل
من القلب إلى القلب
يبعث في وا ويلتاه
هذه الآلام الخاصة!

فأين المفر؟
أمضي في الغابات قدما؟
كل هذا عبث!
تاج الحياة
سعادة لا تهدأ،
هو أنت، يا حب!

ومن جديد أسر إيقاع هذا الشعر البديع حلقة العلماء. لحظات قليلة وسمعت تنهيدة من عالم كبير السن، بدا وكأنه غارق في أفكار بعيدة قادته ورجعت به إلى الماضي.

ساد بعدها هدوء اخترقه أخيرا صوت متشوق من سيدة علت الابتسامة وجهها: «ربما تختبئ وراء هذا الشعر قصة حقيقية»!

هز توما رأسه موافقا وقال: «هذا صحيح. لقد جرب غوته الحب الفاشل مرات عدة في حياته. ففي اليوم نفسه الذي كتب فيه

هذه الأبيات المؤثرة في عام ١٧٧٦، أرسل رسالة إلى المرأة المتزوجة شارلوته فون شتاين مع هذا التعليق: «**أحبيني ولو قليلا. أنا أيضاً أحكي لك كثيرا وأحبك أكثر مما تريدين.**»

هتفت إحدى السيدات: «ما أروعه! إنه يذكرني بأحب الأشعار إلى نفسي:

لو داهمك
شيء من آثار حبي إليك،
لمسَّك الجنون
شوقا إلي.

سعد توما بهذه الأبيات وشغلت ذهنه بعض اللحظات. فجأة بدا وكأن شعرا آخر جديداً خطر على باله، لكنه قبل أن يلقيه عن ظهر قلب، توجه إلى قائلة الشعر قائلا:

«أود أن أجيبك بكلمات غوته نفسه في قصيدة خذوها كتعبير منه عن الحب، ثم اسمحوا لي أن أتدرج منه إلى أدب الطبيعة المحبب إلى نفسي:

وجدتها

كنت أسير في الغابة
هائما هكذا بمفردي،
وكان في ذهني

ألا أبحث عن شيء.

فرأيت في الظل
زهرة شامخة،
تلمع كالنجم
جميلة كعين صغيرة.

هممت بقطفها،
فقالت لي بعذوبة:
أليننالني الذبول
أُقطف يا ترى؟

فاقتلعتها بكل
جذورها،
وحملتها إلى حديقتي
في مغناي الجميل.

وغرستها ثانية
في مكان وديع،
وهي الآن تخرج أغصانها
وتزهر دوما دوما.

«رائع» ترددت هذه الكلمة في القاعة عدة مرات. ثم وجَّه أكبر العلماء سؤالا إلى توما:

«هل كتب غوته أشعارا حول الطبيعة في كل مراحل إبداعه، أم اقتصر اهتمامه بها على مرحلة قصيرة منها؟»

أجاب توما: «لا، لم تكن أبدا مرحلة بعينها. فالطبيعة لعبت باستمرار دورا هاما في أشعار غوته، ولا بد أنكم لمستم ذلك في كل من قصائده القصصية ونماذج أشعاره العاطفية. فمن الطبيعة استمد غوته جميع صوره.. الهدوء أو الغناء الخفيف أو حتى هزيم الرعد الذي تعرفتم عليه في بعض الأشعار، حيث كان ينصت بكل حواسه إلى نغمات هذه الظواهر الطبيعية ثم يحاول أن يصيغها أدبيا.

والآن وقد قارب مساؤنا على الانتهاء أود أن أسمعكم قصيدتين أخريين، بؤرتهما الطبيعة. لا يعود اختياري لهما بالذات إلا لسبب واحد، وهو أنهما أحب أشعار الطبيعة إلى قلبي. فقد كتب غوته من الأشعار أعدادا لا تعد ولا تحصى، وأنا بدوري لا أملك غير أن أعرض عليكم عيّنات محدودة من هذا الكم. لكن ماذا يستأثر القلب يا ترى في هاتين القصيدتين؟ كلاهما يصف الموقع نفسه، لكن في أوقات مختلفة. وفي كل مرة أقرأهما فيها، أشعر وكأن الشمس تدفئني فجأة بشعاعها الشديد.

هدوء البحر

صمت عميق يخيم في مياهه،
فالبحر يرتاح دون أن يحرك ساكنا،
هنا.. ينظر البحار حوله مرتابا

يرى صفحة صافية تحيطه،
حيث لا تأتي الرياح من أي اتجاه
بات صمت الموت يخيفه
في فضاء مهول حوله،
لا تتخبط فيه ولا حتى موجة واحدة.

سفرة سعيدة

الضباب ينقشع،
والضوء ينتشر دفعة واحدة،
وقوس قزح يفك
الشريط الخائف.
الرياح تعصف،
البحار يرتاح،
أسرع! أسرع!
الموجة تنقسم على نفسها،
البعيد يقترب منا،
وها أنا أرى اليابسة.

ما إن توقف توما حتى هتفت سيدة في منتصف العمر: «هل هناك ما يداني هذا الوصف! فعلا ان لسعة هواء الضباب الشمالي البارد تبعث في جسدي تلك القشعريرة، التي داهمتني أيضاً أثناء سماعي ملك الجن، إني أقشعر الآن وأستشعر برودة رطبة تختلف

كلية عن برودة الليل الصافية في بلادنا. فهل البرودة في ألمانيا هكذا دائما، مشبعة ببلل ثقيل؟»

أجاب توما: «ليس دائما. فالضباب الرطب البارد الذي شعرتم به في أشعار غوته ينتشر في أرجاء تلك البلاد أحيانا، لكن في أحيان أخرى يعمها ضوء وهواء صاف ينعشانها ويغرقان طبيعتها بالألوان الصافية. فيا لها من لحظة رائعة، تلك التي يمتلئ فيها الضباب بالضوء تماما، ثم يتفتق فجأة.»

توقف توما، ارتشف شيئا من الشاي، وراح يجمع أوراقه وهو يقول: «أخي العزيز.. سيداتي وسادتي.. كانت هذه هي الأشعار التي أردت أن أقدمها لكم. أتمنى ...» وقبل أن يكمل جملته تعالت أصوات الاحتجاج.

قال السلطان: «ها أنت تسمع اعتراض اللجنة بنفسك يا توما، وأضف إليها اعتراضي أنا أيضاً. الحق أنك انتقيت لنا من كنز الأستاذ لآلئ رائعة، ونأمل أن تجود علينا بالمزيد منها. كلنا آذان ولا نريد إلا الإصغاء فقط، فأمسك دفترك وقلّبه بطريقة عشوائية ثلاث مرات متتالية، واقرأ لنا ما تجده أمامك في كل مرة. ربما تنشأ ترابطات مثيرة تكون جديدة حتى بالنسبة لك... ترابطات غير مدبرة لكنها إشارة قوية وثابتة. ألا نقرأ نحن الشعر بهذه الطريقة أحيانا، نتصفح الكتاب ببساطة، ودون سبب واضح تستقر أعيننا على بيت شعر هنا أو هناك؟ استعمل هذه الطريقة المثيرة يا توما وأسعدنا في نهاية هذا المساء ثلاث مرات أخرى.»

بدا الشك على توما، إلا أنه تناول دفتره الملقى أمامه

والمحتوي على كل أشعاره المترجمة، وراح يقلب صفحاته بارتباك، تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، يسقط صفحة هنا وصفحة هناك، ثم يعود إلى التقليب من جديد، حتى استقر أخيرا على موقع يكاد لا يختلف في شكله، من بعيد، عن أي موقع آخر تصفحه من قبل.

ثم قال: «لا بأس، سأنفذ ما ترغبون. أرجو أن تلعب الصدفة لعبتها، وأجد أجمل الأبيات أمامي. إليكم القصيدة الأولى:

القصائدُ زجاج شبابيك ملون!
من ينظر من ساحة السوق إلى داخل الكنيسة
يراها كلها معتمة مكفهرة،
وهكذا يراها السيد المحدود الأفق
ربما يكون معتل المزاج
ويبقى عمره معتل المزاج.

لكن تعالوا وادخلوا إليها، فقط مرة واحدة!
حيوا الكنيسة المقدسة؛
ستبصرونها كيف تصبح دفعة واحدة
مضيئة ملونة،
تتلألأ في الحال قصصها وزخارفها،
أصالةُ مظهرها تُحدث أبلغ أثرٍ؛
ستجعل منكم صالحين للرب، أيها الأطفال،
فابتهجوا بها ومتعوا العيون!

كم أُعجب الأعضاء بهذه الأبيات التي تشبه الأدب الشعري ببيت الله.

همس العالم البدين في أذن توما الجالس بالقرب منه: «أسمعنا جوهرة فنية أخرى.»

ابتسم توما وقد زاد تفاؤلا، ومن جديد تصفح دفتره، ثم رفع نظره وبدأ:

باراباسا

سعيدا كان قبل سنين طويلة،
مثابرا كما يطمح العقل ويريد،
في أن يبحث وأن يجرب،
مثله مثل طبيعة، تعيش الخلق على الدوام.
وهي الواحدة الأزلية،
تعلن عن نفسها مرة تلو أخرى؛
فالصغير هو الكبير، والكبير هو الصغير،
كل حسب نوعه وصفاته.
متغيرة باستمرار، متكاملة مستتبة
قريبة وبعيدة، بعيدة وقريبة؛
هكذا تُخلق وتتشكل، هكذا تتحول
وأنا حاضر للاندهاش.

«ما معنى باراباسا»؟ سأل علامة شاب.

«باراباسا تعني باليونانية شرود (سرحان). في القديم لم يكن من النادر أن يقطع التمثيل في القطع الهزلية القديمة مثلا، وتتجه الجوقة وقائدها إلى الجمهور، لتبدي رأيا أو تعطي تعليقا حول أحداث المسرحية، وسمِّي هذا شرودا. بهذا المعنى يمثل الشعر أيضاً موقفا أو رأيا.»

أردف علامة كبير السن: «وما أجمله من رأي. إنه يذكرني بأفلاطون الذي مثله مثل غوته، يرى في الاندهاش شرطا أساسيا لكل فلسفة.» ثم أكمل «آه.. آسف على المقاطعة، اتفقنا على الإنصات وليس على الكلام.»

من جديد قلّب توما أوراقه ومجلدات الأشعار التي أحضرها معه. وفي النهاية قال:

«أمامي مجموعة من الحِكَم وهي عبارة عن أشعار حسية قصيرة، كتب منها غوته حوالي ٦٠٠ مقطوعة حتى مماته. وهذه التي رماها القدر بين يدي الآن تتبع ما تسمى الحكم الأليفة أو السلسة، ولو أن هذا العنوان أقرب ما يكون إلى خديعة ساخرة.»

ونظر في دفتره مرة أخرى، وبدل أن يلقي الشعر صمت بعض الوقت ثم قال ضاحكا: «إن أبيات الشعر هذه لخير دليل على أن غوته في أشعاره الحسية القصيرة لم يكن سلسا أو أليفا على الإطلاق. والآن أعود وأكرر، أنه لمن باب المصادفة فقط، ودون أدنى نية أو قصد مني، حتى لو بدا غير ذلك، أن يكون الشعر التالي بالذات، هو آخر ما أقدمه إليكم اليوم:

ماذا يعني الناس
هذا ما لا أعبأ به،
فما يهمني أن أوحد نفسي مع نفسي؛
أن نكون مع بعضنا، كثنائي لوحدنا؛
وعندما ننشط في حركاتنا وحيويتنا
واحد منا يكون هنا وآخر هناك،
واحد يود البقاء
والآخر يحبذ الابتعاد؛
بلى، إذا كان هذا بديهيا للنفس
هناك أيضاً نصيحة:
بعد هذا الإدراك السعيد
يتبع التصرف السديد.

لفّ الصمت جو القاعة برهة قصيرة، وعلى حين غرة اخترقه رنين ضحكات عالية. فوجئ توما بها وهو الذي كان لحظتها بصدد البدء في التعليق على القصيدة ببعض جمل إضافية، لكنها أبهجته في الوقت نفسه وانتظر حتى انتهت حالة الضحك التي اعترت الأعضاء جميعا، وقال أخيرا:

«في هذه القصيدة تتضح شخصية الشاعر القوية، إذ إن الإنسان لا يتمكن من الوصول إلى ضفة جديدة، إذا بقي دوما يوجه انتباهه إلى قول ورأي الآخرين. الحق أن سلطاننا يعطي أفضل نموذج على ذلك، فبفضل جرأته وانفتاحه على كل جديد، تتوفر لجزيرتنا فرصة التعرف على ضوء الشعوب الأخرى.»

سألت سيدة في منتصف العمر وهي تضحك: «هل تعرفون يا ترى قصة الرجل الذي كان يستجيب وينفذ فقط ما يقوله الآخرون؟»

«لا، احكيها لنا»! هتف البعض.

فقالت: «أراد رجل أن يسافر مع ابنه إلى مدينة مجاورة. ركبا حمارا كبيرا قويا وشدا رحالهما. وبعد مسيرة قصيرة صاح أحد المارين: «انظروا إلى غليظي القلب، إنهما اثنان ويركبان حمارا واحدا مسكينا. يا ألله.. انعدم الضمير عند الناس.»

تمتم الأب لنفسه: «الحق معه.» ونزل عن الحمار وسار وراءه، بينما بقي ابنه راكبا عليه، وتابعا رحلتهما على هذا الحال حتى رآهما أحد المشاة وصاح: «ما هذا الابن العاق! يترك أباه يسير وراءه لاهثا بلسان متدل، بينما هو يركب الحمار وابتسامة شماتة على وجهه.» ثم بصق على الأرض أمام عيني الابن ومضى.

«انزل يا بني، ان الرجل على حق.» قال الأب لولده بعد أن رأى ما حدث. وركب هو الحمار ومشى الابن وراءه، لكن ما إن شاهدتهما امرأة كانت تعمل في حقلها القريب من الشارع وتطهره من الأعشاب، حتى زمجرت غاضبة: «ما أقساه من أب. يترك ابنه الضعيف يمشي وراءه بينما هو ببطنه الكبير يركب الحمار. هتف الوالد حائرا: «وهذا أيضاً خطأ»! ونزل عن الحمار وسار بجانب ابنه بينما راح يشد الحمار وراءه. ضحك أحد المشاة عندما لمحهما وقال: «لم أشهد في حياتي حماقة كهذه، فالمغفلان لا يسيران على أقدامهما فقط بل يشدان الحمار وراءهما أيضاً.»

ضحك الجميع واسترسل أعضاء اللجنة بالتندر بالمغفلين وحمارهما، تماما كما هدفت الراوية. بدا لي في تلك اللحظة وكأن اللجنة نسيت غوته بعض الوقت، إلا أنني أخطأت التقدير تماما:

«قصيدة أخرى»! طلب أحد العلامة.

رفض توما بلطف قائلا:

«آسف، أود الآن فعلا إنهاء تقرير اليوم.»

فاحتج المستمعون، وهدأهم توما بحركة من يده وأكمل: «اختيار الأشعار بهذه الطريقة مفتوح لكل ما يطيب، ولعبة الصدفة هذه لهي مجازفة. إني أفضل، هذا إذا سمحتم لي، أن أجهز تقريرا آخر وأقدمه لكم غدا. لكن ماذا أقول؟ أأعلم أنا ما إذا كنتم ستأذنون لي غدا بالتحدث مرة أخرى»؟

(إنني ككاتب بروتوكول لم أكن متأكدا أن الأمير توما يمزح بسؤاله كما كنت هذا المساء، فلم تكن اللجنة تتشوق إلى شيء أكثر من الاستماع له. فبالحق ليس بالضرورة أن يكون الواحد نبيا حتى يخمن ماذا سيقرر النساء والرجال في الصالون الأخضر.)

كان الابتسام لا يزال يملأ وجه السلطان أثناء عودته، وبادر قائلا: «أخي العزيز توما، نرجوك رجاء حارا أن تمتعنا غدا بكنوز جديدة من الشاعر غوته، صائد اللؤلؤ الروحي.»

ضحك الجميع وعلى الأخص توما.

الليلة الخامسة

التي يكون محورها الرهان
بين ميفيستو وفاوست

«أخي وصديقي العزيز،

أعضاء لجنة الحكماء المحترمين،

انشغل ذهني طوال ليلة أمس بالتفكير في أي عمل أستطيع اليوم أن أزيد من عظيم اهتمامكم بغوته. أعترف انني وجدت صعوبة في الاختيار لسبب واحد فقط، هو أنني أقدّر معظم أعماله جل تقدير، وكم أتمنى ألا أترك عملا واحدا دون أن أعرّفكم به. لكن القدرة على ممارسة الانتقاء والاستغناء لهي فن من فنون الترفيه عن الجماعة بطريقة ذكية.

فمن يوجز مادته، ويملك المهارة في تقديمها، ربما ينجح في أسر قلوب وآذان مستمعيه، بل وفي كسبهم لهدفه أيضاً. هذا ما أرجو أن أحققه في موضوع هذا المساء، والذي قررت أن أقدم لكم من جزأيه الكبيرين جزءا واحدا فقط، تماما كما فعلت مع مايستر فيلهلم. يدور موضوعنا حول أهم عمل كتبه غوته للمسرح، وبه جعل من نفسه شاعرا خالدا بصورة قاطعة.

إنني أتحدث عن فاوست، أكثر مسرحيات الدراما الألمانية

غموضا. كان غوته قد اقتفى أثر هذا المادة القديمة في وقت مبكر من حياته. وهناك كُتبٌ عديدة تؤكد أن رجلا اسمه جورج فاوست قد عاش فعلا من عام ١٤٨٠ إلى عام ١٥٤٠ أو ١٥٤١ في جنوب ألمانيا. ويقال إن فاوست هذا كان قد وعد الشيطان بروحه مقابل منحه قدرات خارقة.. أسرار أسطورية جاءت في أول كتاب حول سيرة حياته، كان قد نُشر عام ١٥٨٧. ومما يروي فيه أيضاً أن فاوست إنسان حاول أن يتجاوز حدود معرفة ذلك الزمان. وبمعنى آخر طمح أن يعرف أكثر مما كانت تسمح به الكنيسة، فانكبّ في غرفة دراسته على البحث وممارسة مختلف علوم الغيبيات والسحر وتمادى في ذلك إلى حد كبير، حتى أنه في النهاية عمل عقدا مع الشيطان دفع ثمنه غاليا.

تظهر هنا التأثيرات الواضحة لحركة الإصلاح الديني التي تأسست في ألمانيا عام ١٥١٧: فبينما كان الاعتقاد الكاثوليكي يؤمن بوجود وسيط بين المؤمنين والله وهو القسيس مؤهل لمنح الغفران، ركزت الكنيسة الاصلاحية البروتستانتية في وعظها على مسؤولية الإنسان الكاملة أمام الله، وعلى عدم إمكانية تحقيق الغفران في الحياة، وبذلك رفضت هذه الحركة دور الكاهن كوسيط للغفران في كرسي الاعتراف الكاثوليكي، لأن مصير الروح يتقرر على أساس الحساب بعد الموت.

هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى اصطدمت أفكار الحركة الإصلاحية التي تقول إن الإيمان الديني الصحيح وحده هو الحاسم في نهاية المطاف، مع مثاليات العقل المستحدثة والتي راحت تنتشر تدريجيا في المجتمع. ومع زيادة الاهتمام والانشغال

بالعلوم الطبيعية والرياضيات والطب والفلك، باتت صورة العالم الجامدة في التوراة تهتز وتتزعزع باستمرار. لذلك لم يكن من باب الصدفة أن يكون فاوست رجل علم يحاول شق طرق جديدة تحرمها العلوم الدينية.

كانت مادة فاوست في وقتها قطعة تعليمية شديدة في وضوحها، تهدف إلى تحذير القراء من نتائج التصرفات المعارضة للمسيحية. وبهذا كانت حياة فاوست توضع على الدوام كمثال تحذيري لحياة الكفر والزنى والفظاظة أمام أعين الناس.

لكن من المؤكد أن هذه القطعة رغم ذلك لم ترعب كل أفراد المجتمع، ذلك أن فاوست كان بالإضافة إلى ما نُعت به، شخصية مثيرة متعددة النواحي: كان رجلا ذا ظمأ شديد غير محدود إلى العلم والتجارب العلمية، مستعدا أن يستخدم في إجرائها كل الطرق المتاحة بما فيها السحر الأسود، مما بهر كثيرا من العقول العلمية الماهرة في ذلك الوقت. ليس هذا فحسب، بل نال فاوست إعجاب البعض أيضاً نتيجة تهافته الجامح على الحياة، واستسلامه لتحليقات روحه في سماوات العلم والخيال.. وهي تحليقات حاول أن ينميها عن طريق التحالف مع الشيطان.

ألم يكن الانغماس الكامل في الرغبة دون مراعاة الآداب الكنسية بحد ذاته مثيرا للناس؟ بالطبع، حتى وإن لم يجرؤ أحد على الاعتراف بذلك علانية، لكن في الوقت نفسه هل كان بيد أذكى رجال الدين إمكانية منع إثارة الخيال سرا من خلال كتاب فاوست؟... بالتأكيد لا. ربما لهذا السبب بالذات تم انتشار الكتاب بسرعة البرق.

لا أريد أن أسبب الملل للجنة وأسرد بالتفصيل كل التحولات المختلفة التي مرت بها مادة فاوست مع مرور الوقت. إلا أن كل صياغة جديدة لها كانت كسابقتها، تنتهي بالرجل إلى طريق جهنم. صياغة واحدة بالذات لا بد أن أذكرها هنا لأهميتها لشاعرنا: إنها للشاعر الإنجليزي كريسوفر مارلوف الذي عاش من عام ١٥٦٤ إلى عام ١٥٩٣ والذي اخترع فاوست مختلفا، لا يطالب نفسه والعالم فقط بمطالب مستحيلة كما كان المألوف في الصيغ السابقة، بل يطالب المضلل الشيطاني بها أيضاً، كما لا يستسلم للشيطان بسهولة، بل يدخل في مساومة معه.

هذا النمط من فاوست دخل في نهاية المطاف في برنامج ممثلي مسرح العرائس المتنقلين. وعن هذا الطريق تعرّف غوته على صياغة مارلوف، وقال عنها في وقت لاحق: «شخصية إنسان غليظ عصامي يعمل بثقة وثبات في وقت مضطرب تعم فيه الفوضى، تركت تأثيرا عميقا في نفسي. إن أسطورة مسرح العرائس القيمة من هذا الشاعر الآخر لا تزال ترن وتطن في داخلي بنبرات وأصوات متعددة.»

المرة الأولى التي حاول فيها غوته صياغة القصة بنفسه كانت ما بين عامي ١٧٧٣ و١٧٧٥، حيث أنتج مسودة رائعة عبارة عن سلسلة مشاهد، وهي المعروفة بـ فاوست الأول أو فاوست الأصلية. وفيها يسعى فاوست بمساعدة السحر الى هدفين.. أولهما هتك ستار المجهول للوصول إلى حل لغز الطبيعة، وثانيهما إثبات نفسه كقوة خالقة.

في عام ١٧٨٨، أي بعد مضي ١٥ عاما على نشر المسودة

الأولى، عاود غوته العمل في فاوست الأصلية وأصدر مادتها المطولة تحت عنوان فاوست، الشذرة. وبعد ٩ سنوات أخرى من التردد عاد الشاعر وأمسك بخيوط مادته من جديد، وبذل فيها جهدا كبيرا. ويعود الفضل في ذلك إلى فريدريش شيلر، الذي تمكن بتأثيره القوي، من تشجيع غوته على مواصلة العمل في فاوست.

استمرت الدراسة الدقيقة للمراجع سنوات عدة، وهي مدة طويلة بلا شك، إلا أن هذه الدراسة بدت لازمة لا غنى عنها لتطوير المسرحية. وفي عام ١٨٠١ بدأ غوته في كتابة بعض المشاهد ووضع الموضوع بمجمله في شكل تراجيديا. لم يعن هذا أنه أنهى العمل به، إذ لم يصدره إلا عام ١٨٠٨ تحت عنوان فاوست، مسرحية درامية.

بعد سنوات عدة رجع غوته إلى مسرحيته من جديد، وكتب الجزء الثاني منها والذي لم ينهه إلا في عام ١٨٣١، أي قبل أقل من عام واحد على وفاته. ولن أسرد من هذا الجزء إلا ما هو متمم مباشر لأحداث ما جاء في الجزء الأول.

والآن، إذا سمحتم لي، سأبدأ بعرض فاوست الدراما الغوتية وأرجو أن أوفق في ذلك.»

أومأ أعضاء اللجنة برؤوسهم معبّرين عن استحسانهم ورضاهم على اختصار الموضوع وتحديده بهذا الشكل، فقد أصبح همّهم في الدرجة الأولى معرفة المزيد عن فاوست، هذا الذي مجّده ومدحه توماس، وأحاطه بهالة من الغموض. في الوقت نفسه ارتسمت على وجوههم تعابير التقدير العميق للصبر الذي عمل به

غوته سنوات طويلة حتى يحوّل قصة قديمة إلى مسرحية شعرية تحمل بصماته، ويجعل منها تراجيديا تدور حول الإنسان، أمانيه وآماله، لكن أيضاً حول حدوده وفشله.

إن مثل هذه القصص لا تحرك فقط مشاعر أعضاء اللجنة، لكنها تحرك مشاعري أنا أيضاً كاتب البروتوكول، بل وتحركها بعمق كما تبينت فيما بعد.

ارتشف توما بعض الشاي بصوت مسموع، مثله مثل الجميع في القاعة، ثم وضع كوبه على الطاولة وبدأ: «تبدأ أحداث فاوست الغوتية بعد إهداء قصير واستهلال حول المسرح بالافتتاح في السماء، حيث الرب، الذي تحيطه الملائكة من كل جانب، يستقبل ميفيستو. ومن خلال ما يدور بينهما من حديث يتضح على الفور أن غوته خلق من ميفيستو مضللا من نوع آخر يختلف تماما عن ذلك الذي خلقته كتب فاوست القديمة. ميفيستو هنا جزء من التخطيط السماوي وأحد ملائكة الرب. إنه مندمج في النظام السماوي، لكنه طرف معاكس به فهو سيئ الظن، عصي، يحتقر المخلوقات ويسخر منها. وهو بهذا بعيد عن أن يكون شيطانا مستقلا في تصرفاته، ومنافسا لله، وبقوّته نفسها. إن قوة ميفيستو محدودة، وهو يستفز الشر في محاولة منه لاعطاء الدليل على عدم كمال الخطة الإلهية. وماذا عن الرب؟ إنه موافق بلا ريب على الاختبار الذي يقوم به أحد مخلوقاته:

من بين الأرواح التي تنكر
أجد الخبيث أقلها ثقلا على نفسي.

إن نشاط الإنسان يمكن أن يستنيم بسهولة،
وهو يستلذ الراحة بغير حدود؛
لهذا يطيب لي أن أزوده برفيق،
يستحثه ويؤثر فيه ويكون له بمثابة الشيطان.

إذن فالرب نفسه هو الذي يكلف ميفيستو بمهمة التصرف بالشكل الذي يمليه عليه دوره. كما أن الرب يتعمد توجيه اهتمام ميفيستو إلى فاوست، لتأكده من صمود فاوست أمام الاختبار. هنا يجد ميفيستو في هذه القضية نوعا من التحدي ويقبل رهانا يقول الرب عنه:

حسنا، ليكن ما تريد!
جر هذه الروح من ينبوعها الأصيل واقتدها،
وفي وسعك أن تمسك بتلابيبها،
وأن تنحدر بها في طريقك.
لكن قف حياءً، حين تضطر إلى الإقرار:
بأن الإنسان الطيب في اندفاعه الغامض،
إنما هو على وعي بالطريق المستقيم.

إن فاوست في مسرحية غوته ليس إلا مشروع اختبار لتجربة سماوية. فمع أنه إنسان دارس للعلوم المختلفة ومتعمق بها تماما، يبوء بالفشل الذريع في تحقيق كل طموحاته، سواء الخاصة بتغيير العالم، أو بممارسة عملية الخلق بنفسه ولو بحدود. فهل كان فاوست هذا يا ترى هو بذاته ذلك الطبيب الناجح الذي استطاع

وقت انتشار الطاعون المريب أن ينقذ مرضاه من الوباء الفظيع؟ إنه يقول وهو أدرى من غيره: إن القلائل الذين نجوا من الوباء لم يساعدهم إلا حظهم الحسن.. لا غير.

إذن ما جدوى السنين الطويلة التي بددها في العلوم؟ وها هو فاوست يضطر إلى الاعتراف بالعجْز الكامل ويتملكه إحساس بالإحباط، فينظر بازدراء إلى كل الأجهزة والكتب العلمية التي في مكتبه المعتم الخانق. لقد وهب حياته كلها فداء لهذه العلوم.. ما يعني أن حياته ذهبت هدرا وسدى، وأنه أضحى رجلا عجوزا. فيلفه اليأس إلى حد التفكير في إنهاء حياته بالسم، لكن ما إن تدق الكنيسة أجراسها ليلة عيد الفصح، حتى يعدل عن خطته إلى حين أنه لا يزال يعترف بالمسيحية وبشعائرها ويعتبر الانتحار خطيئة. إذن نتبين هنا: ان الغلبة تبقى لله في هذه المنافسة السماوية.

في يوم عيد الفصح يتمشى فاوست في نزهة صباحية مع تلميذه التابع فاجنر، هذا الذي يمثل في عمله الدؤوب في العلم كاريكاتير العلامة التبعي عديم الشخصية. ومن خلال حديثهما يزداد فاوست ألما وأسى وهو يرى تابعه يسأم من كل ما حوله، في الوقت الذي يمرح فيه الناس مسرورين سعداء بالعيد، وتبدو فيه الطبيعة في أوج جمالها. فجأة يلفت نظر فاوست شيء غريب يراقب أمام عينيه كلبا أسود يجول بين البذور وبقايا الحصاد. لا بد أنه كلب غير عادي:

أَوَلا تلاحظ، أنه يقترب منا دائما،
وهو يمشي في دوائر حلزونية واسعة؟

وإذا لم يخطئ ظني، فإن دوامة من النار،
تجر نفسها في طريقه وأثره.

يخبر فاوست فاجنر بما شاهد. فاجنر لا يرى بالطبع غير كلب أسود عادي، ويجيبه: «**ربما انتابك خداع بصر**». لكن الكلب يقتفي أثر الاثنين بإصرار ويتسلل أخيرا مع فاوست إلى غرفة مكتبه. نعم.. فاوست على حق.. إنه كلب غريب، يبدأ فجأة بالنمو وتمتلئ الغرفة بالضباب، ومن وراء الفرن يبرز ميفيستو. يسأله فاوست: من أنت؟ ويحصل على هذه الإجابة:

أنا جزء من تلك القوة،
التي تريد الشر دائما، وتفعل الخير.
أنا الروح التي تنكر دوما!
وهذا بحق؛ لأن كل ما ينشأ
يستحق أن يفنى.
لهذا كان سيكون الأفضل،
ألا يكون شيء قد نشأ.
وهكذا، فكل ما تسمونه خطيئة
وتدميرا أي باختصار شرا،
هو عنصري الحقيقي.

ولا يفطن فاوست إلى ما يقصده ميفيستو إلا بعد أن يتبادل معه حديثا طويلا ثم يقول له:

«إنك لا تستطيع أن تفني شيئا برمته وها أنت تبدأ جزءا جزءا». اذن ينكشف سر ميفيستو بسرعة.. إنه إبليس ابن جهنم، لكن رغم ذلك يقع تحت سلطة الله تماما. وهذه الحقيقة تسهل على فاوست عملية التباحث معه بدرجة كبيرة، إلا أن ميفيستو يدري ما هي مشكلة فاوست، ويتجه إليها مباشرة:

إن فاوست يؤمن إيمانا راسخا أنه بدد حياته بالعلوم، كما يغمره إحساس بشيخوخة شديدة لم تعد تسمح له أن يحوّل دفة حياته من جديد بحيث يتمكن من الاستمتاع بحاجاته الروحية التي تزداد يوما بعد يوم. ميفيستو يعرض مساعدته على فاوست ويعده بتصغير سنه وبتوفير كل ما يسعده ويبهجه في الحياة. فاوست بدوره يفهم بإحساس داخلي أن عرضا كهذا لا بد وثمنه غال، ويشتم خطر أن يصبح تحت إرادة ميفيستو، فيهتدي إلى فكرة إقامة رهان كما فعل الرب. وها هو يذكر شروطه لميفيستو:

وإذا قلت لأية لحظة:
توقفي، فأنت رائعة الجمال!
حينئذ، بوسعك أن تقيدني بالأصفاد،
حينئذ، بودّي أن يدركني الموت،
حينئذ، ليدق ناقوس الموتى،
حينئذ، تتحرر أنت من خدمتك،
ولتتوقف الساعة، وليسقط عقربها،
لقد آن حيني عندئذ.

بهذا الرهان يأمل فاوست أن يتحايل على ميفيستو، لأنه لا

يؤمن بأحاسيس السعادة التي يعده بها هذا الإبليس، والتي تبدو له في أحسن الأحوال «**كمتعة أليمة، ككراهية محبوبة، كسخط منعش.**» وميفيستو؟ إنه يوافق على الرهان.

وتكون أول محطة لدروس السعادة الغريبة هي حانة أورباخ المشهورة في مدينة لايبتزيغ والموجودة فعلا. وفيها يقوم ميفيستو أمام فاوست بألاعيب سحرية تبث الرهبة فى عدد من الطلبة الضعفاء المعربدين وتفزعهم فزعا شديدا يجعلهم مثار سخرية وضحك. لكن حالة الانقباض والرهبة التي تغلب على جو الحانة تحول دون استمتاع فاوست حتى بهذه اللحظات.

وماذا عن مشروب تصغير السن؟ ميفيستو لا يملك قدرة حتى على تحضيره بنفسه، لذلك يضطر الاثنان للذهاب إلى مطبخ الساحرة. يغتاظ فاوست ويتساءل: أنذهب إلى ساحرة؟ إنه لا يثق بمثل هذا السحر المريب، لكن وبخلاف توقعاته يضطر أن يغير رأيه: إنها حقيقة.. المشروب الذي تحضره له الساحرة وتناوله إياه، يصغره فعلا ثلاثين عاما، تماما كما يتنبأ له ميفيستو:

بهذا الشراب في جوفك،
ستشاهد امرأة إغريقية الجمال في كل امرأة تراها.

وفعلا، ما يكاد الاثنان يسيران في الشارع، حتى تتهيج رغبة فاوست فور رؤيته فتاة في مقتبل العمر تمر أمامه أثناء خروجها من الكنيسة.

يتذمر ميفيستو من هذه المهمة الشاقة: «**إنها فتاة بريئة حقا /**

وقد ذهبت للاعتراف دون ذنب اقترفته/ لا سلطان لي عليها»!

لكن فاوست يبقى مصرا على شراهة حواسه الجديدة. ويقول لميفيستو: و**«إذا لم تأتني بها، يعني هذا فراق بيني وبينك ابتداء من منتصف الليل.»**

تبدأ المطاردة. إن مارجريته أو جريتشن كما تسمى المعبودة تحببا تصاب أيضاً باضطراب شديد حال مرور الشاب فاوست عليها مرورا خاطفا في الشارع. وعندما يتسلل ميفيستو وفاوست سرا إلى غرفة جريتشن أثناء زيارتها لجارتها، يشعر فاوست بالافتتان والسحر وهو يستنشق الجو الذي تستروحه جريتشن ويذوب في المناجاة:

أيتها الطبيعة! أنت تنشئين هنا في أحلام رقيقة
من هو ملك بالفطرة؛
هنا رقدت الطفلة!
وصدرها الرقيق مملوء بالحياة الدافئة.
وهنا بنسيج مقدس طاهر
صنعت الصورة الالهية!
وأنت! ماذا أتى بك هاهنا؟
كم أشعر بهزة في أعماقي!
ماذا تريد هنا؟ ماذا يثقل على قلبك؟
يا فاوست المسكين، لم أعد أعرفك!

نعم، إنه هكذا فعلا.. فاوست المسكين... يمد يده بشراهه إلى جريتشن ويترقب مغامرة حبه بصبر نافد. لكن كسب

قلب جريتشن ليس سهلا ولا يتحقق له النجاح إلا بعد أن يتودد ميفيستو للحبيبة تودداً لبقا مبنيا على الزور والبطلان. وعندما تتحيَّر جريتشن، كيف تقود فاوست سرا إلى غرفتها التي تجاور غرفة أمها ليلا، توافق على إعطاء أمها جرعة من الشراب تجعلها تغط في نوم عميق. ومن سوء الحظ يكون مفعول الخليط الذي دبّره ميفيستو مميتا.

ولا يقف الموضوع عند هذا الحد، بل تكتشف الفتاة بعد فترة وجيزة أنها تنتظر طفلا، ما يعني أنها ستقابل الكثير من الضيق والصعوبة في محيطها مع مرور الأيام. هنا تبلغ حيرتها المدى.. تدينها من جهة وحبها لفاوست من جهة أخرى. ثم تقع حادثة مؤسفة أخرى عندما يقرر فالنتين أخو جريتشن أن يأخذ بثأر بكارة أخته الضائعة، يقتله فاوست في مبارزة ليلية.

هل هذه هي اللحظة التي يراد القول فيها «**توقفي، فكم أنت جميلة**»! لا، بل وليس من المستغرب عندئذ أن يخاطب فاوست ميفيستو بقوله: «**لا تهيج شهوتي إلى بدنها الحلو من جديد / وحواسي في نصف جنون**»!

إنه يعرف أنه حطم طمأنينة جريتشن وراحة بالها إلى الأبد، فالفضيحة ستبقى لاصقة بها دائما وأبدا:

راحتي ولّت بعيدا،
أثقلت قلبي الهموم،
لن أجد راحتي، لن أجدها،
أبداً.

هذا ما قالته جريتشن في وقت مبكر فور إحساسها بالحب والهوى تجاه فاوست، فبغريزتها شعرت منذ البداية بالكراهية الشديدة تجاه ميفيستو، وكم أزعجتها صحبته الدائمة لفاوست.

فاوست من جهته، على العكس منها، يحب صحبة ميفيستو، ويقوم الاثنان معا في ليلة العيد الكبير للساحرات بتسلق جبل بروكن أحد جبال ألمانيا العالية، وهناك يجذبهما احتفال الساحرات الشبحي الهائج حينا من الوقت، يشربان فيه ويضيعان في سكرة تفقدهما إدراكهما.

وعندما يعودان من رحلتهما تكون جريتشن قد زُجَّت في السجن بتهمة جريمة قتل طفلها الذي كانت قد ولدته سرا بعد موت أمها، ثم في يأسها أغرقته. وها هي الآن تجلس في زنزانتها تنتظر الجلاد. ينتاب فاوست شعور بالحسرة والندم ويتهم ميفيستو: «**كلب! حيوان بغيض! حوّل هذه الدودة إلى شكل كلب من جديد (. . .) يا ويلتاه! يا ويلتاه ! إنه أمر يتجاوز تصور كل عقل إنساني، إن أكثر من مخلوقة غرقت في أعماق هذا الشقاء، وإن الأولى منهن، في محنة موتها القاصمة، لم تكفر عن خطايا الباقيات أمام أعين الغافر الدائم**»!

هكذا تخمد كل رغبات لعبة الإغراء الشيطانية وتصبح دخانا، ويحمّل فاوست ميفيستو مسؤولية الجريمة التي اشتركا في ارتكابها، إلا أن هذا يجيب: «**من الذي دفعها إلى الفساد؟ أنا أم أنت؟**»

وينصح ميفيستو فاوست بالاختفاء، إلا أنه يرفض. . ألم يكْفِ ما فعل! إذا كان هناك ثمة ما يمكن إنقاذه، فيجب عليه أن

يضغط على ميفيستو ليستعمل كل قواه السحرية المليئة بالحيل لفتح السجن ومساعدته في إنقاذ جريتشن. وفعلا ودون أن يراهما أحد ينجح الاثنان في التسلل إلى سجنها، لكن الشابة وقد أوصلها خوفها من الموت إلى حالة قريبة من الجنون، تحس باليأس والمرارة، لأن ما منحته من الحب لم يقابل بمثله، وفوق ذلك لا يزال فاوست يصر على صحبة رفيقه ميفيستو الذي يرتاع قلبها لمرآه، ويقول لها إحساسها إنه نحس لا يجلب إلا المصائب المتوالية. إذن ليس لها من فرار. وفي قنوطها تلتجئ إلى الجهة الوحيدة التي تبقى أمامها: «**عدالة الله -- سلمتك نفسي**»--!

وفي الوقت نفسه الذي يولّي فيه ميفيستو وفاوست الأدبار، يعلن صوت سماوي عن خلاص جريتشن. وهكذا تنتهي مأساة جريتشن بالمصالحة فالطمأنينة التي سلبت منها بطريقة فظيعة في الحياة على الأرض، ستكون من نصيبها في الحياة الأبدية بعد الموت.

وبهذا ينتهي الجزء الأول من فاوست»

وبينما توما يمد يده لتناول كأس الشاي، سأله أحد أعضاء اللجنة بانفعال: «إذن، فنهاية فاوست ليست طريق جهنم كما ذكرت من قبل»؟ فعاد توما للكلام مرة أخرى:

«نعم.. طريق جهنم - إنها كما ترون ليست من مكونات الجزء الأول لمسرحية غوته. لذلك وحتى تطّلعوا على ما سيؤول إليه فاوست في النهاية، سأسرد عليكم من جزئها الثاني بطريقة سريعة ومختصرة، أهم ما له علاقة مباشرة بهذه النقطة. كما

علمتم ارتكب فاوست في الجزء الأول جرما كبيرا ندم عليه ندما شديدا في نهاية الأمر، ما يعني أن إمكانية رجوعه عن غيه لا تزال محتملة - الرهان مع ميفيستو لم يحسم بعد.

يبدأ الجزء الثاني من مسرحية فاوست في اللحظة التي يستيقظ فيها فاوست من نوم عميق، سلب فيه عفريت روحي وردي الشكل ذاكرة فاوست وحرره من كل ما أصابه من يأس وعذاب بسبب مأساة جريتشن. إذن تتاح أمام فاوست فرصة البدء بحياة جديدة. وهذا ما يفعله بالضبط لكن الرياح تأتي على غير ما تشتهي السفن. ففي سير أحداث الجزء الثاني يمارس فاوست الاحتيال والغش والأعمال المشينة أيضاً: إنه على سبيل المثال لا الحصر يخالط قوى ميثيولوجية وتتصاعد مطامعه حتى يرقى أخيرا إلى حاكم ظالم. وكما ذكرت لن أتحدث عن كل هذه الأحداث وسأكتفي بهذا المقطع:

في أحد الأيام وقد عاد فاوست عجوزا بل وفاقد البصر أيضاً، ينطق أخيرا بالجملة التي كان قد حددها في ذلك الوقت كشرط للرهان بينه وبين ميفيستو:

في هذه اللحظة، أسمح لنفسي أن أقول،
توقفي، فأنت رائعة الجمال!

وفي اللحظة التالية يقع فاوست صريعا - إذن ميفيستو لم يكسب رهانه مع الرب فقط، بل يكسب أيضاً الحق في روح فاوست. مع ذلك فهو سيّئ الظن مرتاب:

الجسم راقد، والروح تريد أن تطير هاربة،
في وسعي فورا أن أريها الوثيقة المكتوبة بالدم- ؛
لكن مع الأسف لدى الناس الآن الكثير من الوسائل،
لمنع الأرواح عن الشيطان.

لكن سرعان ما تهبط كوكبة من الملائكة السماوية وتحلق وتحوم حول جسده. ما هذا؟.. ملائكة على قبر الخاطئ فاوست؟ لا بد أن في الأمر خطأ ما! لم يعد ميفيستو يُعرف له رأس من قدمين. وبينما الورود تنثر، توقعه الكائنات الصغيرة الملائكية الظريفة في شباكها، ويجد نفسه عاجزا عن التخلص من جاذبيتها:

يا لها من مغامرة لعينة!
أهذا عنصر الحب؟
الجسم كله في لهيب،
لكني لا أكاد أشعر أن رقبتي تحترق.
(...)
فانظر إليّ بوضوح!
كذلك تستطيع أن تمشي عاريا محتشما،
فإن القميص الطويل ذا الثنايا إفراط في التمسك بالأخلاق!
إنهم يستديرون ليشاهدوا من الخلف!
هؤلاء العفاريت يثيرون فعلا الشهية المشبوبة!

ومع انبهار ميفيستو بالملائكة وغرامه بها ينسى أنه بانتظار خروج روح فاوست من جسده. . . وعلى غفلة منه تترك الروح الجسد وتستقبلها الملائكة في الحال وتصعد بها إلى السماء. إذن ميفيستو هو المخدوع في نهاية الأمر!

حقا، أمامنا نهاية تغاير تماما نهاية الطبيب فاوست في الكتاب الشعبي الذي كان بإمكان الكنيسة استخدامه كتهديد قاتم. فاوست الغوتي محمّل بخطايا جمة. . يموت دون ندم أو حسرة. . تأخذه السماء إليها دون أن يكون قد استحق ذلك أبدا. ورب مشهد الافتتاح في السماء لا يتحرج من قبول رهان مع ملاكه الساقط ميفيستو فحسب، بل إنه في النهاية يخدع ميفيستو بمكسبه أيضاً روح فاوست. ربما يكون هذا هو العنصر الساخر في عمل غوته العظيم. وربما بسبب هذا العنصر بالذات لم يرد غوته أن ينشر هذا العمل في حياته.

قبل أن أنهي حديثي أود أن أضيف كلمة قصيرة: الحب أيضاً يجد الطمأنينة والتوفيق في آخر الأمر. جريتشن تنتظر روح فاوست وتلتمس من ملكة السماء أن تكون دليلتها. وتستقبلها هاتفة:

أعطفي، اعطفي !
أيتها المنقطعة النظير،
الغنية بالشعاع.
وجهك يلطف على سعادتي!
ان الحبيب الذي أحببته في مطلع عمري،
قد عاد اليوم بعد أن شفي من الفساد.

ما إن أنهى توما سرده الطويل حتى اتكأ بظهره على المقعد متعبا. فقد عاش في أجواء مسرحيته، تفاعل وانجرف مع أحداثها مبتعدا عن كل ما حوله. وها هو لا يصحو منها إلا ببطء شديد فقط.

أما اللجنة، فقد لازمت الصمت برهة من الزمن، لما تركته المسرحية من أثر قوي في نفوس أعضائها، أم أن صمتها لم يكن إلا صدمة من هذه النهاية؟

لم تمض دقائق قليلة حتى وقف السلطان وانسحب مع علمائه للاستشارة، ليعودوا بعد حين وقد بدا على وجوههم اجهادا، كاد يعني أنهم مارسوا نقاشا حادا.

وأخيرا خاطب السلطان الشاب صديقه قائلا: «نشكرك على هذا التقرير. إننا نشعر بشفقة على فاوست وبشفقة أكثر على جريتشن، الفتاة التي حملت البراءة الإلهية في نفسها، ولم يكن من حول ولا قوة لها أمام من أغراها. بيد أن جريتشن نجحت قبل موتها مباشرة في تجاوز حدود طاقتها حين رفضت الاستسلام مرة أخرى لميفيستو، المرافق الدائم لفاوست، ولم تهرب معهما بل فضلت الموت تكفيرا عن خطاياها.

إننا جميعا نعتبر غوته في مسرحيته معلما عبقريا، وكيف لنا أن نرى غير ذلك، أما ما اختلفنا حوله في اللجنة هو قبول أو عدم قبول إدراج مادة بهذا الانطباع القوي في بيت الحكمة. لكننا وجدنا في النهاية أنه ربما يكون من المستحسن أن ندرّسها للتلاميذ الأكبر سنا وللناضجين منهم فقط، حتى تتوفر لهم فرصة إلقاء نظرة على فكر التنوير الأوروبي والتعرف عليه.»

الليلة السادسة

التي يدور فيها الحديث عن التجاذب الاختياري وعلاقات الحب المتغيرة

الصديق والأخ العزيز،

أعضاء لجنة الحكماء المحترمين،

أمس طلبت مني لجنتكم الموقرة أن أواصل اليوم حديثي عن يوهان فولفغانغ فون غوته، لتكونوا على يقين، ما إذا كان الشاعر الألماني العظيم يستحق مكانا في بيت الحكمة أم لا. وأثناء بحثي عن إبداع مناسب لهذا المساء، وقع نظري على رواية كنت قد تعثرت بها عدة مرات من قبل، كان غوته قد كتبها في سنواته المتأخرة ونالت التقدير من جهات متعددة.

أمسكت بكتاب الرواية أول مرة في مكتبة ألمانية وقرأت اختصار محتواها على غلافه. وسألت نفسي آنذاك، ما شأني أنا وموضوع كهذا، وأنا شاب غير متزوج ولا أزال هكذا حتى اليوم. أنوه بهذا كثمة توضيح فقط، لماذا لم تراودني الرغبة في بادئ الأمر في الاهتمام بمشاكل أزواج وزوجات يقعون في حب شخص آخر غير شريكهم، ولا يخلفون وراءهم في النهاية إلا

كوما كبيرا من الحطام. حول هذا الموضوع بالضبط يدور هذا الكتاب.

مهارتكم سيداتي وسادتي تتجلى في أخذ قراركم النهائي على ضوء وجهات نظر مختلفة. مع ذلك أعرف أن هدفكم الرئيسي هو تجهيز بيت الحكمة، بحيث نستفيد منه نحن شباب جزيرة حلم على وجه الخصوص ويكون منارة لنا. فما الذي يدعونا إذن إلى ترجمة كتاب أجنبي إلى لغتنا، لا يقدم إلا آلام حب زوجية لزوجين مسنين؟ ربما سنبتسم مستنكرين ساخرين بمشاكلهم، لأنها ستتراءى لنا بعيدة عن اهتماماتنا، لا تمسنا أو تخصنا من بعيد أو قريب فالأدب لا يزال بالنسبة للقارئ نوعا من مرآة النفس. وأعترف أني شخصيا فكرت بهذه الطريقة آنذاك وأردت أن أتجاهل هذا الكتاب. إنني لا أسرد هذا كله، إلا لأحذر من سوء الفهم ومن التفكير الخاطئ اللذين سيطرا عليّ أنا شخصيا فترة ليست قصيرة. ولكن أليس من الطبيعي أن يشغل ذهني حب من نوع آخر... حب شاب بكر يتغذى من العاطفة والشهوة فقط.. حب لا يخدع نفسه اليوم تلو اليوم، بغية المحافظة على مظهره الخارجي؟ كم خشيت أن أقرأ في الرواية بيت الشعر الأخير في الحب كما يتوقع المرء عادة من رواية تتحدث عن الأزواج والزواج، لكن ألم يكن الأولى بي أن أكون أكثر إدراكا ومعرفة؟ فهل يعقل أن يتخلى شاعر فيرتر في كبره عن بطله، إلى درجة يعطي فيها الأهمية والأولوية للعقلانية الباردة؟ وحتى لو كانت السنين قد زادت الشاعر حذرا، فلا بد وأن أثرا من آثار عاطفة فيرتر الصافية لا تزال كامنة في أعماقه. هذا بالذات ما قررت أن

أبحث عنه في رواية التجاذب الاختياري. وفعلا ما إن باشرت بقراءتها حتى عثرت عليه... الحب المطلق الذي عرفناه من غوته.

لكن في الوقت نفسه وجدت نفسي مقذوفا إلى وسط حدث عاطفي، يضع بالذات هذا الحب المطلق موضع الشك. وبدا لي أنه محق في ذلك. بسرعة اختفت ابتسامة الاستنكار من وجهي، وبدأ صراعي مع نفسي التي تمنت أن تتبع العقل حينا والقلب حينا آخر. وشعرت بأحاسيسي تتأرجح، فتنحاز لأحد الأطراف تارة وللطرف الآخر تارة أخرى. لم يعد الأمر يدور حول علاقة زوجية قديمة لا شأن لي بها، ولكن حول خلجات ضميري أنا.

عندما ظهرت الرواية في عام ١٨٠٩ وجد الكثيرون أن غوته لا يزال على راديكاليته، وحجتهم أنه لم يدافع عن مؤسسة الزواج الدفاع الكافي، بينما رأى آخرون، وأعني أولئك الذين انتظروا كتابا راديكاليا مثل فيرتر، أن غوته تحوّل إلى الجهة الرسمية المعادية وخان الحب. أما أنا فأعتقد أنه ليس أي الرأيين على صواب، لأن تعارض هاتين الفكرتين بالذات هو ما أدى إلى تلك النهاية المؤلمة لجميع شخصيات الرواية في آخر الأمر. فالمعنيون لم يقعوا في دوامة أحاسيسهم فقط، لكنهم وقعوا أيضاً في جاذبية عصر كان يعيش تغيرا واضحا. إن رواية التجاذب الاختياري في الواقع تتحدث عن انقلاب اجتماعي أيضاً.. حقيقة يبدو لي أنه بولغ بالاستهتار بها وبإغفالها آنذاك.

أخذ غوته اصطلاح التجاذب الاختياري من العلوم الطبيعية،

اصطلاحاً يُستعمل في الكيمياء منذ عام ١٧٧٥ على أكثر تعديل، حيث توصف به تلك العناصر الكيماوية التي ما إن تقترب من عناصر أخرى، حتى تتحلل وتتحرر من تركيبها القائم بسرعة، وتتحد مع المادة المقتربة منها، وتكوّن معها تركيبة كيميائية جديدة.

أنهي توما مقدمته، وقبل أن يواصل حديثه ويبدأ بصلب الرواية، تناول كأس الشاي الذي أمامه وارتشف منه قليلا.

«إدوارد هو أحد ملاكي الأراضي الأشراف الكبار. صحيح أنه لم يعد يملك الكثير منها، لكنه لا يزال يملك كل ما يتمناه قلبه: قصرا، وحديقة واسعة كبيرة، ومالا كافيا. لا يشغله شاغل غير نفسه ونعمته ونعيمه الذي أصبحت زوجته شارلوته جزءا منه منذ فترة أيضاً. شارلوته وإدوارد يعرفان ويحبان بعضهما منذ طفولتهما، إلا أن كليهما أجبر من عائلته على زواج آخر زاد ووسع من أملاكهما. ولم يسعَ الاثنان إلى ترتيب علاقتهما من جديد إلا بعد وفاة شريكيهما غير المحبوبين، فتزوجا وانتقلا للسكن في بيت ريفي هادئ.

كان لإدوارد صديق منذ أيام شبابه المبكر، ضابط متقاعد برتبة نقيب، فشل في حياته المهنية ولم يصل للأسف إلى مستوى صديقه المادي. ومع أنهما الآن في وضع متماثل لأن كليهما دون عمل، فإن ما يعد لإدوارد عودة طواعية إلى الحياة الخاصة، يعني للنقيب الفقدان المؤلم لوظيفته، بل بالأحرى فقدان الأمل في

الحصول على وظيفة جديدة . . حالة تخدش سمعته بلا شك.

كم يود إدوارد أن يدعو النقيب للإقامة عنده حتى يستطيع مساعدته، لكن شارلوته تعارضه في البداية. فهل كانت قد هيأت نفسها بالكامل للحياة مع إدوارد من أجل أن يأتي ثالث ويقيم بينهما؟ ولا توافق في آخر الأمر إلا بسبب شخص آخر يهمها قد تتمكن من مساعدته في الخروج من مأزقه إذا أقام عندها أيضاً. إنها أوتيلي ابنة أخيها، يتيمة فقدت كل أمل لها في العودة إلى الاختلاط بشكل من الأشكال بمجتمع الطبقة العليا، لا سيما وأن أوتيلي تتشبث بخشوعها وضعفها أكثر مما تعمل على جلب أنظار الآخرين إليها بخفة الروح والنكتة، لذلك تطمع شارلوته في إعطائها ثقة جديدة بالنفس عندما تقيم عندها في البيت، وتعقد الرجاء على تأثير إدوارد عليها على وجه الخصوص.

وهكذا تصل شارلوته إلى اتفاق مع إدوارد تشترط به عليه: إذا أقام النقيب عندهما، فستدعو هي أوتيلي أيضاً إليهما. لا ريب أنه تصرف مميز لشارلوته، التي تبدو دائما أقل انفعالا من إدوارد، وتبحث بمهارة عن حلول وسط، دون أن يغيب هدفها عن عينيها.»

صاح علامة شاب: «من هنا يمكن أن تبدأ الآن لعبة العناصر»!

ضحك توما وأومأ برأسه موافقا ثم أمسك بخيوط قصته من جديد.

«ما إن ظهر النقيب حتى تبيّن أنه إنسان يميل إلى التعقل والتخطيط والبناء، يضع الأمور نصب عينيه، ولا يتركها تسير على هواها. انه رجل من المجتمع البرجوازي الجديد، حازم وذو أفكار كثيرة، لكن يبدو أن الظروف لا تزال غير ملائمة له، وأن مجتمع الأشراف القديم لم يدرك قيمته بعد، وإلا لما وصل به الحال إلى هذا الوضع السيّئ. أما عزيمته فليس هناك ما يثنيها. فما إن يصل عند إدوارد وشارلوته حتى يباشر بقياس ومعاينة الحديقة بهدف عمل تخطيط شامل لها، ويتمنى من كل قلبه أن ينفّذه بنفسه لو توفرت لديه بعض النقود. إنه ممن يبذلون أنفسهم دفاعا عن أفكارهم، كما ويسعون لكسب الآخرين لها وهو بهذا ذو شخصية مغايرة لشخصية إدوارد، وعلى النقيض تماما من شخصية أوتيلي.

يتحمس إدوارد بسرعة لمخطط الحديقة الجديد الذي يضعه النقيب، رغم معرفته أنه يطعن بذلك دون رحمة في المجهودات الصغيرة التي تبذلها شارلوته بنفسها في الحديقة. فقد أضحى لا يجد مانعا من ترك قيادته للنقيب بصفة عامة، وكله أمل أن يدخل صديقه نوعا من النظام على حياته. فالنقيب كرجل عسكري يعرف كيف ينظم الملفات والوثائق، ويملك المهارة في وضع الأهداف والخطط وحساب تكاليفها ومدى توفر إمكانية تمويلها. إنها أمور لم يشغل إدوارد باله بها من قبل إطلاقا. وهكذا أصبح إدوارد والنقيب يقضيان يومهما معا ويعملان.

في إحدى الأمسيات وبينما ثلاثتهم كالمعتاد ينهون يومهم بالقراءة المسموعة، بأن يقرأ أحدهم ويستمع الآخران إليه، تتعثر شارلوته في قراءتها بكلمة التجاذب، إذ تجدها مستعملة في موقع

غريب عن معناها المتداول، وهو موضوع علمي حول العناصر. يوضح لها النقيب ما هو المعنى بذلك ويقول: «**هناك عناصر تقترب بسرعة من عناصر أخرى وتتحد معها دون أن تغير شيئا على ماهيتها، تماما كما يحدث عندما يختلط النبيذ مع الماء. بينما هناك عناصر على العكس من ذلك، تظل غريبة بجانب بعضها، ولا تتحد أبدا مع بعضها البعض، ولا عن طريق الخلط الميكانيكي والاحتكاك. لو تم رج الزيت والماء مع بعضهما مثلا، فسيتميزان وينفصلان عن بعضهما في غضون لحظات. (. . .) لكن هناك مواد طبيعية أخرى ما إن تلتقي حتى تتمسك ببعضها البعض وينشأ بينها تأثير متبادل نسميها متجاذبة.**

إليكم مثل من الطبيعة: إن ما نسميه حجر الجير، هو في الحقيقة جير أرضي لا أكثر ولا أقل، متحد من داخله مع حمض خفيف معروف لنا في شكل غاز. ولو وضعنا قطعة من هذه الحجارة في حمض الكبريت الممدد، فإن هذا الحمض سيؤثر على الجير ويظهر معه في شكل جبصين، بينما يتهرب الحمض الغازي الخفيف من داخله. هذا يعني أنه حدث هنا انفصال وفي الوقت نفسه حدث اتحاد أدى إلى تركيب جديد. بهذا تأكد المختصون أنهم محقون في استعمال كلمتي التجاذب الاختياري، لأنه يظهر وكأن علاقة ما تفضل عن علاقة أخرى. أي أنها اختيرت بدلاً عن الأخرى.»

يشرح النقيب هذه المعلومات بموضوعية تامة دون أي غرض في نفسه. شارلوته من ناحيتها تفسر كلامه في الحال على المستوى العاطفي وتعارضه «**إنها لا ترى في ذلك اختيارا على**

الإطلاق، وإنما ضرورة حتمية، وحتى هذه الضرورة تكاد أن تكون غير واضحة. فالموضوع في النهاية هو موضوع الفرصة. الفرصة تخلق علاقات كما تخلق لصوص. (. . .) وفي الحالة التي أمامنا لا أرثي إلا لحال الحمض ذي الشكل الغازي الذي يضطر للهرب إلى ما لا نهاية.»

يهدئها النقيب ويكمل بموضوعيته: «**الأمر أمر الحمض عندئذ وما إذا كان سيتحد بدوره مع الماء مثلا ليصبح ينبوعا معدنيا ينعش الأصحاء والمرضى.**»

هكذا يتحول التجاذب الاختياري في العلوم الطبيعية في غرفة ثلاثتهم إلى معان وتعبيرات شخصية: القانون الطبيعي يصبح الآن رمزا للعلاقات الإنسانية. إدوارد يفهم بلا شك كل ما يشرحه النقيب عن القانون الطبيعي، لكن كونه إنسانا غير علمي، يطبق القانون في الحال على وضعه الشخصي: إنه لا يشك في أن رباطا قويا يربط بينه وبين شارلوته، لكن يخامره إحساس في هذه اللحظة أن النقيب يسحب منه زوجته. إذن يفتقر إلى قوة رابعة يمكن أن تربط جميع الأطراف من جديد. ومن المنطق أن يفكر إدوارد في هذه الحالة بأوتيلي لتكون رفيقة لشارلوته.

إدوارد لم يضع كل الظروف في حسابه، فالعلاقات التي فكر فيها تتغير مع وصول أوتلي تغيرا سريعا سرعة البرق. «**الفرصة السانحة تخلق علاقات كما تخلق لصوصا**»، هذا ما قد قالته شارلوته قبل قليل . . قول ينطبق على ما سيحدث بالتمام والكمال. فالترتيب الجميل الذي فكر فيه إدوارد لا يتحقق، لأن إدوارد نفسه يقع في حب أوتيلي، يتعلق بها، وتزداد فتنته بها يوما

بعد يوم، حتى أنه يعتقد أن القانون الطبيعي المذكور يسانده في موقفه. أوتيلي من جهتها لم تحس بقوى جاذبية حب إدوارد الهائلة، وكيف لها ذلك، وهي لم تعرف الحب أو تجربه في حياتها. إنها تكنّ له الإعجاب فقط، لكن بعد حين وبسبب التأثير الخفي للتجاذب الاختياري، تتمنى هي الأخرى في سرها ما يتمنى إدوارد نفسه، انفصاله عن شارلوته.

لكن عندما يدخل عنصران في اتحادين جديدين، ما مصير العنصرين المتحرر منهما يا ترى؟ إنهما أيضاً لا يسلمان من قوة تجاذب متبادلة بينهما: شارلوته التي دأبت على الاهتمام بحديقتها منذ زمن طويل، تحس أن تخطيطات النقيب المجتهدة تنعشها وتضعها في منافسة معه، وباتت تستمتع بعملهما سويا سواء في إيجاد الشروط المادية، أو في وضع تصميمات وخطط جديدة. كذلك النقيب الذي فقد تأثيره على إدوارد، يتعرف في شارلوته على محدث أكثر مهارة وتعقل، ويحس بتقارب روحي تجاهها ينمو ويزداد من يوم لآخر. فيمَ العجب إذن أن يتعامل الاثنان أيضاً بحذر أكثر تجاه عواطفهما المستحدثة بل ويحاولان مقاومتها! كلاهما يكرس نفسه للتعقل الحديث، وكلاهما لا يرغب في تحطيم زواج شارلوته، بل يعمل على الوقوف في مواجهة لعبة العواطف الخطرة.

إدوارد على العكس منهما، ذو طبيعة لا تسمح له بالتعامل مع عواطفه بهذه المنطقية، ويتساءل: هل يكون الحب حقيقيا إذا كان بمقدور الإنسان أن يوازنه بموضوعية ويترك العقل يتصرف به كما يشاء؟ ألا يعني ذلك موت كل عاطفة وهوى؟ هل كان زواجه

المتأخر بشارلوته إكليلا لعاطفة وحب، أم أنه لم يكن غير لمعان قصير لعواطف الشباب القديمة؟

وهكذا كلما زاد إدوارد من انغماسه في الحب اللانهائي لأوتيلي، وكلما زادت شارلوته من محاولاتها في الضغط على عاطفتها نحو النقيب، أصبح التغلب على المتناقضات بين الزوجين يبدو أكثر استحالة.

هنا وفي هذه الظروف يدخل حافز جديد في اللعبة ويعمل على تصعيدها دون قصد: في أحد الأيام يبلغ زوج صديق لإدوارد وشارلوته عن رغبته في زيارتهما. يسأل النقيب عن نوع العلاقة بين هذين الزوجين فيعرف عنهما: «**أحب الاثنان بعضهما في وقت كانا فيه متزوجين من شريكين آخرين. وكان كلاهما يعيش حياة زوجية مهدمة باتت محط انظار المجتمع. فكر كلاهما في الطلاق، وكان ذلك ممكنا للبارونة وغير ممكن للأمير، فانفصلا تحت الضغط ظاهريا، بينما حافظا على علاقتهما سرا.**»

إنه نمط جديد للعبة ترفض شارلوته عاقبته نهائيا. فهي ليست على غرار الأمير الضيف، الذي يعالج الحب بفتور ودون أدنى شعور وعاطفة، لكنها تفهم الحب بشكل آخر، وتخيفها برودة المادية الواقعية العصرية، وكم ينتابها الذهول عندما تسمع رأي ضيفها بأن عقد الزواج يجب أن يحدد لمدة خمسة أعوام فقط، حيث قال: «**إن رقم خمسة رقم فردي مقدس، وهذه مدة كافية في الواقع لأن يتعرف كل من الزوجين على الآخر، وأن يرزقا ببعض الأطفال، ثم مع نهاية المدة يتباعدان، وما أجمل أن يعود الصفاء إليهما من جديد.**»

كلام يطنّ في أذنها لاذعا ساخرا، فأي حب حقيقي يمكن تحقيقه في إطار هذه الحرية المنشودة.. الحرية التي تضع الفراق والطلاق في اعتبارها من البداية... النهاية المطلقة لكل حب. إذن في زمن جديد يفكر هكذا لا يوجد مكان، لا للعاطفة الجارفة المطلقة التي تستحوذ على إدوارد، ولا للإخلاص الزوجي القديم الذي لا تزال شارلوته تؤمن به إيمانا عميقا.

وفجأة يتخذ ما يروجه الأمير حول زوال العواطف وعدم دوامها شكلا عمليا، وذلك عندما يقترح هذا توظيف علاقاته واتصالاته المختلفة لمساعدة النقيب في الحصول على عمل جديد يتناسب مع مركزه الاجتماعي، وتفكر البارونة من ناحيتها في خطط مناسبة لإعطاء أوتيلي الصقل الاجتماعي الصحيح لمستقبلها. مستجدات يمر القصر من جرائها بأزمة كبيرة بين ليلة وضحاها. كيف لا.. ولم يخطر على ذهن أي من سكانه الأربعة، أنه سيضطر إلى وداع قريب، فالقانون الطبيعي لم يتحدث عن تطور كهذا. ومما يزيد الوضع تأزما أن رغبات الحب، التي لم تظفر حتى الآن بارتواء وإشباع، تفرض نفسها في فزع.

في غمرة هذه البلبلة العامة، لا ينتهي الحال بإدوارد عند أوتيلي كما قد يتبادر الى الذهن، بل عند زوجته شارلوته حيث يبكي وينفس عن نفسه. وفي غمرة فوضى أحاسيسهما ودون وعي منهما، يمارسان الجنس معاً، الا أن كليهما يرتكب خيانة زوجية في خياله. انها قمة لعبة الخداع: **»إدوارد يضم في مخيلته أوتيلي وحدها بين ذراعيه، وشارلوته، يحوم النقيب في خيالها عن قريب وعن بعيد. ومن دون نظام يتشابك كل ما هو حاضر وكل ما هو**

غائب بطريقة لذيذة مثيرة للعجب».

وفي صباح اليوم التالي لا يتحمل الزوجان لعبتهما المزيفة. «وبخزي وندم» يعترف كل منهما للآخر للمرة الأولى ويصرح له بحقيقة مشاعره.

والآن ما يهم شارلوته هو المحافظة على زواجها رغم كل ما حدث، خصوصا وأنها تدرك أن من مصلحة النقيب الحصول على وظيفة جديدة، فتذعن، كما هي عادتها، لمزيج من الأخلاق والعقل. وما إن يسافر النقيب، حتى يحوم بذلك أحد العناصر حرا في الجو من جديد. شارلوته تطلب من إدوارد أن يبتعد عن أوتيلي حتى يمكنهما استعادة علاقتهما القديمة، لكن وللمرة الثانية تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. بدل أن يوافق إدوارد أن تترك أوتيلي البيت، يفضل أن يكون هو من يتركه.

هكذا يخلو البيت إلا من شارلوته وأوتيلي، عنصرين فقط.. امرأتين تحاولان في ارتباك إيجاد نوع من العلاقة الاضطرارية بينهما، رغم صعوبة تحكمهما في عواطفهما. وعندما تتأكد شارلوته بعد حين أنها تنتظر طفلا من إدوارد نتيجة تلك الليلة التي مارس فيها كل منهما خيانة زوجية في باطنه، تبدو العلاقة الرباعية وكأنها قد تحطمت بكاملها إلى الأبد. إدوارد يذهب إلى الحرب: **«إنه يتمنى الفناء لأن الوجود يهدد أن يصبح غير محتمل.»**

وبقرار إدوارد هذا ينتهي الجزء الأول من الرواية.

أما الجزء الثاني من التجاذب الاختياري فتغلب عليه

المحاولات الكثيرة التي تبذلها المرأتان المتبقيتان للعودة إلى الحياة الطبيعية من جديد. لا أريد أن أدخل بالتفاصيل وأكتفي بالقول إن محاولاتهما على أي حال بقيت سطحية ولم تغير من شعورهما تجاه إدوارد شيئا. أوتيلي تتقوقع على نفسها في إصرار شديد، حتى أنها أصبحت تبدو وكأنها تتقمص بالتدريج شكل مخلوق مبهم من «**عصر ذهبي ماض**». وتبقى على هذا الحال الصعب حتى يولد طفل شارلوته وإدوارد، فتجد مهمة لها تضع فيها كل طاقتها. ولدهشتها تتأكد أن هذا الطفل لا يحمل ملامح أبويه الحقيقيين، بل تحس أنه يحمل ملامحها وملامح النقيب. إنها تعلم أنها لن تفهم ذلك أبدا، لكنه إحساس يزيدها قربا من الطفل على أي حال.

عندما يعود إدوارد من الحرب سليما معافيا، يتأكد أن القدر يمنحه الآن المشروعية في حب أوتيلي علانية، ويقرر الانفصال عن شارلوته نهائيا، ويذهب للقاء النقيب الذي أصبح الآن مارشالاً، محاولا إحياء كامل علاقات التجاذب الاختياري المواتية له من جديد. وفعلا وبحذر شديد يتحدث المارشال مع شارلوته حول هذا الموضوع، إلا أن إدوارد لا يبدي رغبة في الانتظار أكثر من ذلك وبكبح عواطفه أكثر مما تحتمل. إنه يتلهف شوقا لرؤية أوتيلي بعد غياب طويل. ويقرر الذهاب إليها، ويفاجئها جالسة مع الطفل بجوار بركة في المنتزه. وكم تسعد أوتيلي برؤية إدوارد حيا مرة أخرى، وباستغراب تُريه الطفل الذي يحمل ملامحها، فيعترف لها إدوارد بالخيانة الزوجية الباطنية، ويفسرها على الفور على أنها علامة على حبه لها وحدها، الحب الذي لا ينضب ولن يتزعزع

أبدا. وفعلا توافق أوتيلي على مشروع الزواج بشرط أن تخلي شارلوته سبيله. «**أطل الأمل على رأسيهما كنيزك يسقط من السماء فاعتقدا انتماءهما واحدهما إلى الآخر، ولأول مرة تبادلا القبلات باستمتاع، ولم يفترقا الا بصعوبة وألم.**»

بعد اللقاء تفكر أوتيلي في أسرع طريقة لتعويض الوقت الضائع والوصول إلى شارلوته في القصر في الموعد المحدد، فتهتدي إلى فكرة أخذ مركب صغير لقصر المسافة عبر الماء. وعلى عجل تحمل الطفل على ذراعها والكتاب تمسكه بيدها، وتقبض على المجداف في يدها الأخرى، وتنطلق، هذا بينما مشاعرها لا تزال مبلبلة ثائرة متهيجة، بعد لقائها الرائع غير المتوقع مع إدوارد.. وأملها في مستقبل مشترك معه. فجأة ينقلب المركب تنجو هي ويغرق الطفل.

شارلوته التي علّقت على هذا الطفل كل آمالها لإنقاذ زواجها، تحس بموته بالشلل في كفاحها من أجل إدوارد وترضى بالطلاق: «**لقد قتلت هذا الطفل نتيجة لترددي وامتعاضي. هناك أمور معينة تحدد المصير بإصرار وعناد، ولا يجدي أن يحاول العقل والأخلاق والواجب وكل ما هو مقدس أن يقف في طريقه.**»

أوتيلي هي من يزهد الآن عن حب إدوارد نهائيا، بل ويسيطر عليها شعور بغيض بأنها شخص ميزه القدر «**بطريقة مفزعة**»، شخص لا ينشر حوله غير السوء. فلا تتمنى إلا التكفير عن ذنوبها من خلال تحقيق أمنية وحيدة، وهي العمل مع الأطفال وإعطاؤهم كل ما تملك من حب. وتقرر مغادرة القصر دون أن تودع إدوارد، لكن إدوارد يسد عليها طريق الخروج ويجبرها على البقاء. فكيف

له أن يقبل قرارها بتركه، وقد اعتقد تمام الاعتقاد أن هدفه بات قريبا جدا بعد كل ما فقده وتنازل عنه. ومع أن قلب أوتيلي لا يزال ينبض بحب إدوارد، إلا أنها على وعي تام أنها لن تستطيع ولا بحال من الأحوال أن تعيش معه بعد هذه الأحداث الأليمة. هنا تستسلم للصمت، تمتنع عن الأكل، وتقتل نفسها بالتدريج.

بعد موتها يعود إدوارد من جديد عنصرا وحيدا يحوم وحده في الهواء. ألم تقل شارلوته آنذاك وهي تصف القانون الطبيعي: «**في هذه الحالة التي أمامنا أرثي فقط إلى الحمض ذي الشكل الغازي الذي يضطر أن يتشرد من جديد إلى ما لا نهاية.**» ثم يموت هو أيضاً، ليس بالانتحار كما فعل فيرتر، ولكن بفقدانه القدرة الفعلية على الاستمرار في الحياة. ويُدفن وأوتيلي أحدهما بجوار الآخر.

وتنتهي الرواية عند هذه النقطة بتحول غريب وبعيد عن الوضوح: «**هكذا يرقد الحبيبان أحدهما بجوار الآخر والسلام يحوم حول قبريهما، ومن القباب تراقبهما صور ملائكة متجاذبة سعيدة. ما أروعها من لحظة تلك التي يفيقان فيها معاً في يوم من الأيام.**»

في اعتقادي أن غوته ترك هنا بابا مفتوحا للحب غير المشروط أيضاً، والذي يبدو صعب التحقيق في عالم جديد تحكمه المادة والعقل. أم أنني مخطئ وليس ذلك إلا نوعا من السخرية؟ إن الشاعر لا يعطينا الإجابة.

أنهى توما تقريره وبدا مجهدا. (أحسست أنا أيضاً بالإجهاد، مع ذلك ما زالت أحاسيسي تتفاعل مع العواطف التي أسرنا وسحرنا بها المساء بطوله، ولم أتحرر من تأثير هذه الرواية المقبضة للروح إلا ببطء شديد، سبب أعاقني عن تدوين كل ما قيل في اللجنة من تعليقات حولها، مما يؤسفني جدا.)

بعد هدوء قصير انشغلت فيه أذهاننا بمراجعة كل ما سمعناه من أحداث وتفاعلات، بدأت مناقشة طويلة في اللجنة، دار الجدل فيها حول الأجدر بالأولوية: حب إدوارد لأوتيلي أم محاولة شارلوته إنقاذ زواجها؟ وانقسم الأعضاء إلى فريقين تمسّك كل منهما برأيه دون أن يرض التنازل عنه.

انسحبت اللجنة للاستشارة، وعلى غير العادة وصلت إلى مسامعنا أصوات مناقشة لا تغلب عليها العاطفة فقط، لكن الحدة أيضاً. ولم يتوقف الأعضاء عن التحدث مع بعضهم بالبلبلة والانفعال حتى أثناء عودتهم ودخولهم إلى القاعة في آخر الأمر، بينما راح السلطان يحاول جاهدا تخفيف حدة المجادلة وإيجاد قاسم مشترك بين جميع المتناقشين:

«الأخ العزيز، يبدو لي أن في التجاذب الاختياري كثير من عنف التراجيديات اليونانية. لكن ما لم يوفق الشاعر في تقديم حل له، لن نوفق فيه نحن أيضاً. أنا شخصيا أعجبت بكل من إدوارد وشارلوته بالقدر نفسه. لكن السؤال الذي يشغل ذهني، هل كنا سنتناقش بطريقة أخرى لو كان حديثنا عن الإخلاص وليس عن الزواج؟ هل من الممكن الحفاظ على علاقة زوجية

جيدة، بل وقائمة منذ مدة طويلة، إذا حدث وقابل أحد الزوجين فجأة شخصا آخر اكتشف فيه كل أمانيه وأحلامه، كما هو الحال مع إدوارد؟ في رأيي لا. هذا يعني بالتأكيد أن الموضوع في رواية غوته لا يتعلق مباشرة بماهية الزواج نفسه، لكنه يتعلق بالدرجة الأولى بالسؤال عن مدى قوة الحب أو ضعفه، وما إذا كان الشريكان يخلصان لبعضهما نتيجة تعوُّد أم نتيجة حب حقيقي.»

صمت السلطان بعض اللحظات ثم توجه بكلامه إلى توما مكملا: «أشكرك يا أخي العزيز على هذه المحاضرة الجديدة التي تركت أثرها فينا جميعا. أما بخصوص شكك، في أن الرواية ربما تكون غير مثيرة لاهتمام الشباب، فهو شك ليس في محله بالتأكيد. فالتجاذب الاختياري لا يقل إثارة وأهمية عن فيرتر، والفرق أن غوته هذه المرة وضع بجانب سؤال الحب، سؤال الإخلاص أيضاً.

ليت كل امرئ يعترف بحبه ويدافع عنه باقتناع كما لمسنا من شارلوته ومن إدوارد، بغض النظر عن اختلاف طريقتيهما، وكم نتمنى ألا يتصرف أحد كالأمير والبارونة اللذين مثّلا للجنة أسوأ شخصيتين في الكتاب كله. فشكرا لك يا عزيزي على هذا المساء الذي متعتنا فيه بأعمال غوته للمرة السادسة. وبالمناسبة أعجبتني اليوم الدقة والمهارة التي أدمج بها غوته معلوماته العلمية في الرواية. وقد أخبرتني حديثا يا توما أن هذا الشاعر قام بأبحاث كثيرة ووصل إلى بعض النتائج العلمية، وها أنت اليوم تثير حب استطلاعي لمعرفة تفاصيل أكثر. فيا ليتك تحدثنا غدا بعض الشيء

عن كتابات غوته العلمية، هذا بالطبع إذا لم يكن عند اللجنة أو عندك مانع.»

سعد توما بهذا الاهتمام الخاص، وشكر السلطان على دعوته، وودع ضيوفه مبتسما، ورافقهم إلى الباب، ثم أفرج عني أنا كاتب البروتوكول، ملازمه الدائم، بكل لطف ورحمة.

الليلة السابعة

وفيها اصطدم علم الألوان الذي صاغه غوته بآراء نيوتن

«أخي العزيز،

سيداتي وسادتي،

لا بد أنكم لمستم أمس أثناء حديثي عن رواية التجاذب الاختياري مدى كفاءة الشاعر في العلوم الطبيعية أيضاً. فمن يهتدي إلى استعمال ظاهرة التجاذبات المعروفة في العلوم الكيماوية في مجال علاقات الحب بين الناس، لا بد وأن يكون مغرما بالعلوم. ومن غيره يمكن أن تأتيه فكرة مقارنة الحب بهذا الصورة؟

عندما طلبت مني أمس يا أخي، أن أتوسع اليوم بالحديث عن أبحاث غوته العلمية، قضيت اليوم بكامله أقلب الكتب والأوراق، محاولا جمع كل ما اهتم به الشاعر من العلوم. وكالعادة جنيت حصيلة كبيرة جدا يستحيل استعراضها هنا بالكامل، واضطررت أن أنتقي بعضها فقط، مع ذلك سيتضح لكم اتساع دائرة اهتماماته العلمية، ليس فقط بالكيمياء ولكن أيضاً بالفيزياء والطب وعلم الأحياء. فهو لم يختلف عن فاوست الذي خلقه أدبيا، عالم جامع

لكل المجالات، لم يقل في حياته كلها إن ثمة شيئاً ليس له شأن به أو ببساطة لا يهمه.»

أردفت امرأة من اللجنة السرية: «أعتقد أنه بإمكاننا أن نشبه هذا الشاعر الألماني بعلمائنا الكبار أمثال ابن سينا وابن رشد وعمر الخيام الذين أحاطوا أيضاً بالمعرفة الشاملة، ولمعت عبقريتهم الفذة جلية واضحة في إنجازات كثيرة لهم.»

رد توما: «بالضبط يا سيدتي المحترمة. وسأتحدث الآن عن غوته آملا أن يتسنى لكم إلقاء نظرة على تفكيره الشامل.»

توقف توما، أخذ استراحة قصيرة رفع فيها كأس الشاي إلى فمه، ارتشف منه القليل، أرجعه إلى مكانه بسرعة، تناول الكتابات الملقاة أمامه ثم اعتدل في وقفته وعاد يتكلم أمام لجنة متشوقة لما سيقدمه لها.

«بدأ غوته يهتم بالعلوم الطبيعية اهتماما مكثفا في العامين ١٧٦٨ و١٧٦٩ أثناء مرض طويل ألمّ به. فقام بتجارب كيميائية ودرس شتى كتابات الفلسفة الطبيعية. لكن كل ذلك لم يتعدّ أن يكون إلماما سطحيا في حقل العلوم الطبيعية الواسع.

وعلى حد قوله، بقيت معلوماته الخاصة بالدراسات العلمية محدودة جدا حتى مجيئه إلى بلاط الدوق كارل أوغست في مدينة فايمر عام ١٧٧٥، حيث انكب على دراستها هناك عندما عهد إليه الدوق بمهمات عديدة تتطلب معرفة علمية.

فدرس علوم المعادن والجيولوجيا والأحياء والظواهر الجوية ومجالات أخرى كثيرة. بل وفتنته أيضاً أنواع الغيوم ومعنى كل نوع منها.

مجّد غوته الطبيعة دائما وأبدا، وكم تمنى أن يعرف كيف وصلت الطبيعة إلى شكلها الحالي. وهذه الأمنية راودته باستمرار وكانت وراء جميع أبحاثه، سواء تلك التي قام بها في أوقات متباعدة في السنوات الأولى في فايمر، أو تلك المنتظمة في السنوات المتأخرة فيها. كان يحس بالراحة وهو يناجي الطبيعة، حتى أنه بالتدريج وصل إلى الاقتناع أن العلوم الطبيعية هي جل أمانيه.

وهو. . من حرك العالم بأشعاره، لم يعد يرى العمل الأصيل في الشعر، بل يراه في العلوم الطبيعية. فالشعر أصبح يمثل في نظره الجمال والحسن فقط، بينما العلوم الطبيعية الرصانة والسمو. لقد التزم غوته بالموضوعية والواقعية في أبحاثه، ولم يسترشد بمبادئ صوفية أو فلسفية أو دينية، بل بتلك المظاهر الطبيعية التي بإمكان حواسه استيعابها والتقاطها. وكم تمنى أن يُعترف به كعالم في العلوم الطبيعية، حتى بات هدفاً يراوده، فاجتهد وعمل البحوث المستمرة في سبيله، هذا رغم شكواه الدائمة أنه لا يملك مثابرة الباحث ولا يشعر بميل شديد للرياضيات.

ومن أبحاثه مثال جميل عن الجرانيت، وآخر نشره في عام ١٧٨٤ يدور حول اكتشاف عظمة صغيرة في فك الإنسان الأعلى لم تكن معروفة بعد. وهو يعد بالحق اكتشافا مدهشا، خصوصا عندما نضع في اعتبارنا أن تفاصيل الهيكل العظمي للإنسان معروفة

منذ العصور القديمة، ويكاد لم يبق فيه ما لم يُعرف بعد. لكن الأدهش من ذلك هي الطريقة الفكرية التي اكتشف بها غوته هذه العظمة:

كان مقتنعا تمام الاقتناع بقانون النشوء والارتقاء، الذي يعني افتراض تطور تدريجي للكون وللحياة على الأرض. تفكير شغله مئة عام قبل ظهور نظرية داروين، وسيطر على كل أبحاثه العلمية، وبناء عليه افترض أن جميع النباتات تنحدر من نبات أول. إلا أن هذا الإنجاز وإنجازاته العلمية بشكل عام لم تحظ بالاعتراف مما جعله يشعر بالمرارة.

وفي رحلته الطويلة إلى إيطاليا والتي اشتهرت من خلال كتابه عنها، أصبحت نظرته إلى أشكال وصور الطبيعة أكثر حدة وتمعن. وفي ١٨ آب/أغسطس من عام ١٧٨٧ كتب منبهرا إلى صديق له: «**ما خمنته عندنا وبحثت عنه في الميكرسكوب أراه هنا بالعين المجردة**-» لقد وجد في إيطاليا عالما من النباتات يدعم نظريته حول النبات الأول.

ولما عاد إلى الوطن، محملا بالأحجار والنباتات، ومكتسبا قناعات جديدة، اصطدم في فايمر من جديد بالرفض والاستنكار. وباستثناء بعض الأصدقاء سخر كثيرون منه كباحث علمي.

لم تزده ردود الأفعال السلبية هذه إلا إصرارا على التحدي لإثبات نفسه كباحث، فعزل نفسه بشكل متزايد، وانكبّ على دراسة العلوم الطبيعية، واجتهد على توظيف معظم وقته لخدمة الأبحاث، فاستقال من عدة مهام رسمية، بل وهجر الشعر فترة من الزمن أيضاً. . تصرفات لم تجد بطبيعة الحال استحسانا في بلاط

الدوق أوغست في فايمر، لكن عزم غوته كان أكيدا: «**إن وجداني يدفعني إلى العلوم الطبيعية أكثر من أي وقت مضى-**» **هذا ما كتبه إلى صديق له.**

عندما ساد الاضطراب السياسي أوروبا في بداية تسعينات ذلك القرن، وتردد غوته في الموقف الذي عليه اتخاذه إزاء تلك الأحداث العالمية الصعبة، اندفع بشكل كبير إلى الاشتغال بالأبحاث العلمية، وقد رأى فيها منقذا يتعلق به، كما يتعلق راكب سفينة تغرق في بحر متلاطم الأمواج، بلوح من الخشب. شغل غوته ذهنه بالتفكير في نشأة الضوء والألوان أول مرة وهو في إيطاليا المضيئة بشمسها الساطعة. وفور عودته إلى فايمر جهز حجرة صغيرة معتمة، قام فيها باختبار ماهية الضوء وسره. وكان يأمل كما تبين من رسائله في ذلك الوقت بالوصول إلى اكتشاف يحدث ثورة في هذا المجال. إلا أن أولى منشوراته حول علم البصريات اصطدمت باللامبالاة من الجهات المختصة.

ما إن تعرف غوته في منتصف التسعينات على الشاعر الكبير فريدريش شيلر، حتى انتعش وأحس بمكانته الأدبية من خلاله، فعاد إلى العمل الأدبي، بينما تباطأت أبحاثه العلمية، لكنه تابع في فترات متقطعة دراسة تأثير الضوء على نمو النباتات، كما قام أحيانا بفحص الحشرات وبتشريح الأسماك والضفادع. إن اهتمامات غوته بالطبيعة أشبه باهتمامات محب يسعى إلى فهم محبوبته، ولا شك أنه نجح في ذلك نجاحا عظيما. وربما نال غوته بأسلوبه هذا في ممارسة العلوم كل احترام، لو عاش بضع مئات السنين قبل عصره، لكن فرصته في عصر التنوير لم تكن جيدة، ووصفت

طريقته بالخيالية وغير العلمية وبالتالي غير مقبولة.»

قاطعه علامة كبير السن: «أتؤمن حقا أن غوته كان سيحظى بأي احترام، أو حتى أعماله كانت ستنال أي تقدير يوما واحدا قبل عصر التنوير؟ أغلب الظن أن الاضطهاد كان سيكون كل ما يجنيه شاعرك خصوصا بسبب أبحاثه الخاصة بالنشوء والارتقاء، والمتعارضة مع المسيحية!

وافق توما العلامة على رأيه قائلا: «بالطبع.. بالطبع.. من يكون سباقا ويأتي باكرا يموت مرة واحدة فقط كشهيد، أما من يأتي متأخرا، فيحرقه الاحتقار في اليوم الواحد ألف مرة. ان روح الاختراع في عصر التنوير اتجهت إلى تكريس كل ما تهبه الطبيعة لخدمة حياة الإنسان: اعتبرت الطبيعة مصدرا لا يفنى ولا ينفذ وأي خطأ هذا!!! لهذا السبب فزع غوته وهو يتخيل العالم يزيد ميكانيكية يوما بعد يوم، فقد خشي محدلته الحديدية التي قد تحطم كل شيء فيه، وكم تمنى أن تتخطى العلوم فكر الإمكانيات التكنولوجية السائد، وتعود إلى براءة العصور الماضية. ونراه في الجزء الثاني من مسرحية فاوست والذي أشرت إليه باختصار قبل ليلتين، كيف يحذر من نتائج التكنولوجيا ومن خطر حدوث تدمير الطبيعة على يد الإنسان. بل إنه في إحدى المرات وصف محاولات مستقبلية لإنتاج أطفال في أنابيب، مُظهرا استنكاره الشديد لذلك.»

«أما تقوله دعابة أم ماذا؟ كيف يمكن أن يأتي غوته على فكرة مستحيلة وغير معقولة كهذه؟ إنتاج أطفال في معامل!» أردفت امرأة باستنكار.

أجاب السلطان: «لن أقول إنها فكرة غير معقولة، فعندما نسمع عما أصبح اليوم ممكنا من خلال التكنولوجيا، لن أندهش لو قام الملحدون خلال المئة سنة القادمة بمحاولة خلق حياة اصطناعية من العناصر. لكن الناتج لن يكون إلهيا بالتأكيد.»

«تماما، لم يقل غوته غير ذلك. غير أنه في النهاية سخر من مكتشفي عصره، واتخذ موقفا آخر مغايرا عن إسحق نيوتن على سبيل المثال. صحيح أن نيوتن قد انتصر في كفاحه العلمي لأنه على حق من الناحية النفعية، إلا أن بعض نظرياته مسؤولة عن كثير من التغييرات السيئة التي تحتم على كرتنا الأرضية أن تنوء بها. فالعالم بالنسبة له أضحى آلة، بينما الله ليس إلا ساعاتيا على أحسن الأحوال، يمكن للمرء اكتشاف سره لو توفرت له المهارة الكافية. أي أنه في اللحظة التي شق فيها الإنسان العالم وأخذ روحه، لم يعد باستطاعة أحد أن يتحدى علماء العلوم الطبيعية ويمنعهم من تجربة ما يتمنون تحقيقه بأنفسهم أو ما يكلفون بعمله. غوته بدوره كان يرى العالم وحدة واحدة، ويؤمن إيمانا قاطعا أنه لا يحدث في الطبيعة شيء بمعزل عن الكل فيها، بل مرتبط بهذا الكل ارتباطا مباشرا... تفكير ربما يكون أكثر تعقيدا، وأقل مكسبا للصناعة من طريق نيوتن، لكنه تفكير يتعايش مع الطبيعة.

«لا، هذا ما لا تستطيع قوله يا توما، إنك تجعل من نيوتن شيطانا.»

«هذا رأيي أيضاً، إن الأمير توما يعلي من شأن غوته جدا، وبالمقابل يسحق كل المفكرين الآخرين.»

رد السلطان: «لا، اني لم أفهمه هكذا.»

«بلى.. بلى.. توما يرى أن غوته هو حامي الطبيعة ونيوتن هو مدمرها. لا .. لا يمكننا الموافقة على ذلك.»

هنا لم يعد باستطاعة أي كاتب تقرير على وجه الأرض أن يتابع ما احتد من جدال. فجميع من في الحلقة يتكلم بانفعال، وتتشابك أصواتهم، ويقاطع الواحد منهم الآخر، وفي النهاية ينقسمون إلى جبهتين، السلطان وتوما في جبهة، والباقون في جبهة أخرى.

قال علامة شاب بغيظٍ: «بل يبدو لي أنه سيقدم لنا غوته على أنه قديس مسيحي، والحقيقة أنني لا أميل إلى القديسين.»

في صوت متردد قلق تناول توما الكلمة مرة أخرى: «سيداتي سادتي، إن جدالكم ليشرف مسعى غوته، هذا الذي نشد الجدال والحوار في حياته كلها للوصول إلى الحقيقة. إني آخر من يسيء إلى اسحق نيوتن، لكن ما حدث في ذلك الوقت هو أن عالمين ارتطما ببعضهما، وكان غوته هو الخاسر في نهاية هذه المنافسة. فالمنتصر هو من يكتب التاريخ، وقد كتبه نيوتن في العلوم الفيزيائية. وستفهمون ما أعني عندما نناقش حالا النزاع حول علم الألوان.»

رد أحد العلماء: «إننا بالتأكيد لا ندافع عن نيوتن بعيون مغمضة. لكن اسمح لي، لقد قضيت ثلاثين عاما كاملة من عمري أعمل فيها كمتخصص في الرياضيات والفيزياء، وأعرف كم كان نيوتن لعينا حقيرا كإنسان، لكن الواقع أنه باكتشافاته حول الكرة الأرضية، حقق قفزة إلى الأمام. ومن خلال معلوماته المعرفية

الجديدة التي وصل إليها أجبر البشرية على العمل والمضي بهذه القفزة. وتُعتبر قوانين نيوتن اليوم هي المقياس في كل العالم.»

أردفت عالمة متخصصة في تاريخ الحروب الصليبية: «لحظة من فضلكم، إنني لست فيزيائية ولم تهمني الرياضيات في حياتي ولم أفهمها. لكن ما يثير فضولي هو موضوع النزاع حول علم الألوان الذي ذكرته يا توما قبل قليل.»

هنا أمسك المحاضر الخيط مرة أخرى وقال: «نعم يا سيدتي، نيوتن، قام كأول إنسان على وجه الأرض، في عام ١٦٦٩ أي ثمانين عاما قبل ميلاد غوته، بتكسير ضوء الشمس الأبيض إلى أجزائه بواسطة موشور زجاجي ذي حواف ثلاث، وبوقوع الضوء الأبيض عليه ينشأ طيف ملون عبارة عن ألوان تدركها العين وترى الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي. غوته من جهته وجد أن تكسير الضوء ما هو إلا لعبة من ألعاب نيوتن ومؤيديه. ورأى في نفسه مصححا لخطأ وجد قبولا من العالم بأسره، ولهذا السبب انكبّ على العمل سنوات عديدة بهدف إثبات هذا الخطأ العلمي وإزالته.

بدأ غوته، الرجل ذو العين المرهفة، بالاشتغال على الضوء والغسق والعتمة في وقت مبكر من حياته كما ذكرت، وشهد لهذا الغرض محاضرات عدة في الفيزياء. كان بطبعه شغوفا بالألوان وبالرسم الإيطالي، خصوصا لوحات ليوناردو دافنشي التي يلعب الضوء الدور الأكبر فيها، وزاد هذا الشغف أثناء رحلته عبر إيطاليا المشمسة. ونرى هنا الفرق واضحا بين غوته، عاشق الألوان ومن عانى من عتمة ألمانيا، وبين صديقه شيلر، المتزمت، والذي لم

يحب إلا رسومات الأبيض والأسود، بل اعتبر الألوان إثارة وتزييفاً.

في إيطاليا تعلّم غوته الكثير عن انسجام الألوان، وبعد رجوعه زاد من تعمقه في تجارب البصريات، وتبنّى رأيا يقول ببساطة: إن الضوء الأبيض لا ينتج كل مجموعة الألوان كما أثبت نيوتن، وإنما الألوان تنشأ من خلال التعكير. وبقي غوته مركزا على التجارب البصرية دون غيرها حتى التقى مع شيلر، ومن خلال الأحاديث والحوار مع صديقه، لم يعد يتحدث عن البصريات، ولكن عن علم للألوان، يكون له أيضاً واجب اجتماعي أخلاقي. في عام ١٨١٠ قاد غوته حملة علنية ضد نيوتن وجمع حوله مؤيديه في الفكر، وقاموا بالعمل نفسه. بذلك لم يكن هو نفسه بريئا من تصوير نيوتن تصويرا سيئا، فقد كان على اقتناع كامل أن نيوتن وقع في خطأ علمي. لحسن الحظ تراجع غوته في وقت لاحق عن هذه الحملة المشكوك فيها ضد نيوتن.

نشر غوته علم الألوان الذي يُعتبر أهم عمل علمي له في جزأين ضخمي الحجم، نقده البعض نقدا هداما ووصفه بالرومانتيكية والشاعرية والبعد عن العلم، بينما تعامل معه البعض الآخر مثل أصدقاء غوته وأقربائه والعاملين عنده، وكأنه كتاب مقدس، بل وغالى بعضهم إلى درجة اعتباره نوعا من العقيدة. أما غوته نفسه فقد كافح من أجل علم الألوان حتى آخر يوم في حياته. هذا ولا يزال هذا العلم يجد له مؤيدين في أماكن كثيرة من العالم، خصوصا عندما يدور الحديث حول الألوان وتأثيرها على الإنسان، وكيف يخلق بعضها انسجاما خاصا وآخر يؤثر تأثيرا شفائيا.

توقف الأمير توما وأعاد على الأقل عشر صفحات من أوراقه إلى الملف دون أن يقرأها. هذا ما استطعت أن أراه من مكاني، كما لاحظت تعبا وإنهاكا على السلطان وأعضاء اللجنة لم ألحظهما في الأمسيات الماضية. رفع توما رأسه وترك نظراته تحوم بين الحاضرين المتعبين ثم قال: «أعرف أن العلوم تسبب الإرهاق، لذلك سأستغني عن تفاصيل هذا العمل الكبير، وأنهي تقريري هنا في هذا الموضع.»

قال هذا وصمت ليأخذ نفسا عميقا، وكأن هذا المساء قد أنهكه أكثر من كل الأمسيات السابقة. ومد يده عدة مرات إلى قدح الشاي في محاولة لتجديد نشاطه. لكن يبدو أن العطش لم يتملكه وحده فقط، بل كل أعضاء اللجنة، إذ سمع صلصلة الخزف في كل أنحاء القاعة.

أخيرا تناول السلطان الكلمة وشكر توما على تلبية رغبته في تقديم صورة عن الباحث العلمي غوته. وأعرب عن اعتقاده أن اللجنة يجب أن تصل الآن إلى حكم نهائي بخصوص هذا الشاعر الذي شغلها أسبوعا بحاله.. سبع ليال كاملة، ومن غير الممكن أن تمنحه وقتا أطول.

وقال لتوما: «لا شك يا أخي الحبيب أنه بإمكانك أن تستمر في تسليتنا طويلا، إذ يبدو لي أن إنجازات غوته نبع لا ينضب، لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن هناك شعراء ومفكرين آخرين ينتظرون حكمنا عليهم أيضاً. إن سبعة أيام هو قياس مقدس نريد أن نحافظ عليه، فدعونا نصل اليوم إلى حكم نهائي. خذ راحتك يا أخي، فبالحق أنك بذلت جهدا عظيما. نشكرك جميعا من كل

قلوبنا، وتأكد أننا لن نتشاجر كثيرا حول شاعرك غوته.»

أومأ أعضاء اللجنة برؤوسهم موافقين، وتأهبوا للمغادرة إلى الصالون بغرض الاستشارة. هنا صاح توما:

«لا.. لا.. مستحيل أن أختم تقريري هنا.. إنني أحتاج ليلة أخرى. لقد احتفظت بلؤلؤة أعمال غوته لأقدمها لكم في الليلة الأخيرة. تأكدوا أنني سعيد جدا وممنون لأنكم أعطيتموني الفرصة لتقديم إنجازاته حتى هذا اليوم، لكن غدا سيأتي دوركم في الشكر. إن غوته هو أحد الشعراء الأوروبيين القلائل الذين أحبوا الشرق وقدروه، وأشعر أنه من واجبي أن أقدم لكم ديوان الأشعار الرائع الذي تغزل فيه بهذا الحب.»

أجابه السلطان: «بإلحاحك هذا لست بصبي الساحر لشاعرك غوته، بل بالأحرى أحد تلاميذ شهرزاد»!

«عزيزي حكيم، لا بد أن أفعل ذلك، افهمني أرجوك. ولن تندم على موافقتك على ليلة إضافية.»

«ما اسم هذا العمل»؟ أراد العالم البدين أن يعرف.

«الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» رد توما مبتسما.

«هل تعني ذلك جديا، أم تبغي إغراءنا فقط»؟ تساءلت السيدة المختصة في الأدب العربي الجاهلي ضاحكة.

بسرعة أخرج توما كتابا من الحقيبة الجلدية التي يحفظ فيها كل أوراقه دائما. وأكمل: «ها هو الديوان. كنت متأكدا أنكم قد لا تصدقونني»!

وتلقف العلماء الكتاب. وترجم توما عنوانه مرة أخرى

«الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي» وفي لمح البصر استعاد الأعضاء يقظتهم وانتباههم.

«ألا يمكنك أن تلقي علينا الآن قصيدة أو قصيدتين من هذا الديوان كمكافأة لنا على صبرنا اليوم؟»

أجاب توما: «لا . . غدا هو الوقت المناسب له.»

قال السلطان: «إذن ستكون الليلة القادمة من نصيبك أيضاً، لكنها ستكون الأخيرة فعلا. أقول هذا يا أخي حتى لا تقع ضحية الاعتقاد بأنك ستنجح في إقناعنا المرة بعد الأخرى.»

شكره توما من قلبه.

هكذا انسحبت اللجنة لتتشاور حول المحاضرة الخاصة بأعمال غوته العلمية.

وعندما عادت بعد نصف ساعة أعلن السلطان حكيم: «أخي الحبيب، لا شك أن شاعرك كان مفكرا جريئا، وليس هناك من شك في أن أفكاره حول علم الألوان موزونة وحكيمة مثل أعماله الأدبية التي قدمتها لنا. لكن أرجو ألا تحزن، لأن اللجنة وجدت أن الباحث غوته لم يساير تطور العلوم، لذلك فهي تفضل أن تعود وتركز على غوته الشاعر. لذلك استعد لتقريرك الأخير ليلة غد، وسنسعد بالإصغاء إليك مرة أخرى.»

في غضون لحظات عادت الإشراقة إلى وجه توما الباهت، وتسللت ابتسامة الراحة إلى شفتيه قبل أن يغادر القاعة مسرعا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الليلة الثامنة

والتي سبَّب فيها الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي أرقا للجنة

للأسف الشديد أجبرت التزامات دبلوماسية اليوم سلطاننا وصديقه توما على الذهاب إلى محادثات مستعجلة. فتأجلت جلسة اللجنة إلى منتصف الليل، وتم إبلاغ الأعضاء بذلك في وقت مبكر حتى يتمكنوا من أخذ راحتهم قبل بدء الجلسة الليلية، ثم المشاركة فيها بنشاط وانتعاش.

(إلا نحن، وأقصد مولانا وتوما بالإضافة لي أنا، كاتب القصر والبروتوكول عبد الله الفردوسي، فقد كنا الوحيدين الذين لم نرح أجسامنا منذ الصباح الباكر. وها قد أصبحنا الآن في منتصف الليل ولا يزال الاثنان مصممين على عقد الجلسة الأخيرة حول الشاعر غوته! إنني أسأل نفسي من أين يأتيان بهذه الطاقة! أنا شخصيا في غاية التعب، مع ذلك سأحاول أن أبذل كل ما في وسعي، وبقدر المستطاع، أن أسجل كل ما ما يصل إلى أذني.)

«أخي العزيز،

أعزائي أعضاء لجنة الحكماء المحترمين،

كما وعدتكم بالأمس سأنهي اليوم تقريري عن غوته بعرض الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي الذي ربما يمثل أشهر مجموعات أشعاره. بسبب وقت الجلسة المتأخر، لن أدخل في تفاصيل نشأة هذا الديوان، بل سأوغل فيه مباشرة وأسمعكم باقة من أجمل أبياته. وكم آمل أن يفتنكم هذا الكتاب كما فتنني ويفتنني دائما من جديد.

أشكركم أولا على إنصاتكم لي طوال الليالي السابقة، فباستعدادكم وبصبركم على متابعتي سبع ليال كاملة ألزمتموني أن أتعرف عن قرب على الشاعر غوته، عبقري اللغة والثقافة الألمانية، وأحيط علما بكل ما يختص به وأستأنس إليه أكثر من أي شاعر آخر، وكم زدت بذلك غنى وثقافة.

من المؤكد أنكم لمستم من محاضراتي السابقة تقدير غوته العميق لفكرة التبادل مع الثقافات الأخرى، فكرة شغلت ذهنه باستمرار، لكنه لم يضعها موضع التنفيذ في عمل من أعماله، بمثابرة وجدّ، كما فعل في الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي، حيث حاول فيه أن يستوعب الشرق استيعابا كاملا من كل نواحيه.. تفكيره، إحساسه، وشعره الوجداني.

والآن أعتقد أنه قد حان الوقت للعيّنة التي وعدتكم بها، قصيدة أطلق عليها غوته اسم تمائم:

تمائم

لله المشرق

لله المغرب.

الأرض شمالا، والأرض جنوبا.
ترقد آمنة، بين يديه.

هو، لا أحد سواه، العدل
وهو يريد لكل الناس العدل.
من أسمائه المائة أجمعين.
سبحوا بهذا الاسم المكين.
آمين!

يريد الضلال أن يربكني ويغويني،
لكنك تعرف كيف تهديني.
فإن قمت بعمل أو نظمت الأشعار،
فاهدني أنت سواء السبيل.

«ما أبدعه!» قال السلطان في حماس.
«قصيدة أخرى أرجوك!» طلبت سيدة جالسة في زاوية بعيدة.
«بكل سرور» رد توما وبدأ:

نِعَم أربع

نَعِم الله على الأعراب
بنعم أربع عجاب

كيما يجوبوا الفلوات فرحين
ويعيشوا في رغد هانئين.

وهبهم العمامة التي تزين
خيرا من تيجان القياصرة أجمعين
وخيمة إليها يأوون
في أي مكان يشاءون

وسيفا يحميهم ويصون
أمنع من الصخور وأسوار الحصون،
وقصيدا يطرب ويفيد،
تتصنت عليه الحسان الغيد.

وها أنذا أتغنى بهدوء وحبور
بالزهور المطلة من شالها الحرير
وهي تعلم علم اليقين ما تتمتع به من خصال،
وتبقى على ما عهدته فيها من جمال ودلال.
وإني لأعرف كيف أزين موائدكم
بما تحبون من أزهار وثمار،
فإذا أردتم معها الحكم والعبر
فسوف أقدم ما نضج منها وما نضر.

تابع توما: «وهذا شعر...» قاطعه السلطان قائلا:

«هل أنت متأكد من أن غوته لم يزر المشرق أبدا؟ ربما سافر إلى هناك سرا يوما ما!»

«لا، من المؤكد أنه لم يأت إلى هنا قط، هذا مع أن الفكرة في حد ذاتها تكاد تكون معقولة، ففي ذلك العصر في بداية الرومانتيكية كان المشرق هو الجنة الجديدة بعينها، وهدف هيمن على خيال كثير من الفنانين والشعراء في كل أنحاء أوروبا.»

أجاب توما ثم انتظر برهة حتى ساد الصمت من جديد، فأمسك بخيط أشعاره مرة أخرى.

أغنية وتكوين

ليجبل الإغريقي من الصلصال
ما يشاء من النماذج والأشكال،
وليفتتن ما وسعه الافتتان
بالمخلوق الذي سوته يداه،

أما نحن فلذتنا التي تفوق كل اللذات
هي الغوص في مياه الفرات،
والسباحة هنا وهناك
في هذا العنصر السيال.

لو استطعت بهذا أن أطفئ لهيب الروح
لتجاوبت ألحان أغنيتي بالرنين

وإذا الشاعر اغترفت كفه الطهور
من هذا الماء تكور فقاعات كالبلور

قال السلطان وابتسامة الرضا على شفتيه: «ما أجمل أن يقابل عشق العرب للشعر بحماسة شديدة كهذه!» وأكمل متسائلا: «وهل تعالج جميع أشعار الديوان يا ترى، موضوع التبادل بين الشرق والغرب بهذا النمط؟»

رد توما: «لا، الأشعار الموجودة في الديوان مختلفة في أشكالها وأنواعها ومواضيعها. فهناك على سبيل المثال لا الحصر، أشعار تدور حول الحب، وأخرى تتناول كتابة الشعر، بالإضافة إلى أقوال وحكم، لكن جميعها واقعة تحت تأثير الأدب المشرقي. ولعرض بسيط لهذا التنوع إليكم شعرين آخرين:

اعتراف

ما الذي يصعب إخفاؤه؟ النار!
ففي النهار يشي بها الدخان،
وفي الليل يفضح اللهب ذلك الوحش الجبار،
كذلك يصعب إخفاء الحب الدفين،
فمهما طويته في أعماقك في سكون،
فما أيسر ما يطل من العيون.
لكن أصعب شيء يستعصي على الإخفاء، قصيد
إذ لا يفلح أحدا في كتمان نشيد

وما إن ينطلق الشاعر في الغناء،
حتى تسري النشوة في كل الأعضاء.
وإذا دونه بخط منمق وبديع
تمنى من صميم فؤاده لو أحبه الجميع.
ويروح يتلوه وهو سعيد على كل إنسان بصوت عال،
سواء تسبب في تعذيبنا أو هذب منا الطباع والخلال.

خمسة أشياء

خمسة أشياء لا تنتج خمسا،
فافتح أذنيك لتستوعب هذا الدرسا:
لا تنبت في صدر المغرور مودة،
ورفاق الخسة والوضعاء عديمو الذوق،
والعظمة لا يدركها شرير وغد،
والحاسد لا يرحم عريا،
والكاذب يطمع عبثا في ثقة الناس،
فاحفظ هذا الدرس وأمنه بالحراس
كي لا يسرقه أحد الأنجاس.

قالت إحدى سيدات الحلقة في اندهاش: «إنها بالحق حكم شرقية قديمة قدم الزمن.. أفكار نجدها في كتبنا الخاصة بالأقوال الحكيمة.»

أجاب توما مبتسما: «نعم، هذا صحيح. فقد انكبّ غوته على دراسة الشعراء الشرقيين ومعالجة أفكارهم فترة طويلة، لكنه

في كتابة الديوان لم يستخدم المصادر الشرقية وحدها، بل مزجها بأحكامه الخاصة، ويظهر ذلك جليا واضحا في عديد من أقوال الحكم فيه. استمعوا فقط إلى الأبيات التالية، التي ترتكز في بنائها على النموذج التوراتي من ناحية، وعلى كتب الحكم الشرقية من ناحية أخرى:

لماذا تشكو من الأعداء؟
وهل يمكن أن يكون لك أصدقاء
من أولئك الذين يظل جوهرك الأصيل
مصدر اتّهام صامت وأبدي لهم؟

اعترفوا بأن شعراء الشرق
أعظم منا شعراء الغرب.
أما الشيء الذي نجاريهم فيه سواء بسواء
فهو حقدنا على أمثالنا من الشعراء.

ضحك الجميع.

صاح أحد العلماء: «آه، أليس غوته هنا رحيما جدا معنا؟ لا تؤاخذوني، لكن من الواضح أنه لم يتعرف على شاعر شرقي واحد عن قرب. بإمكاني أن أؤلف كتابا كاملا حول الغيرة والدناءة والكره والحسد عند شعرائنا»!

رد السلطان الشاب: «لكن لا تنس أن تكتب فيه هذا الإهداء: إهداء إلى غوته، الشاعر المتسامح مع شعرائنا!»

تصاعدت التعليقات السامة حول الشعراء العرب من كل جوانب القاعة، واختلطت الأصوات ببعضها، فاستحال عليّ تدوين كلمة واحدة، وبات القيام بواجبي مهمة صعبة. كذلك اضطر توما إلى الانتظار برهة حتى هدأ الجميع، ليعود ويلقي بصوته الجميل أبياتا أخرى من الشاعر الألماني:

إذا حرصت على الاحتفاظ باحترام النفس،
فيجب عليك أن تكون خشنا شديد البأس.
فكل شيء يمكنك أن تصيده بالصقر،
باستثناء الخنزير البري.

من الحماقة أن يتحيز كل إنسان
لما يراه وأن يثني عليه!
وإذا الإسلام كان معناه أن لله التسليم،
فإننا أجمعين، نحيا ونموت مسلمين.

وهذا شعر آخر يُنسب إلى الديوان أيضاً، نُشر بعد وفاة غوته. له في نفسي منزلة خاصة، أنا المتجول بين الشرق والغرب:

من يعرف نفسه

من يعرف نفسه والآخرين،
يعترف هنا أيضاً أن:

الشرق والغرب
لا يمكن أن يفترقا.

وبودي أن أهدهد نفسي
سعيدا بين هذين العالَمين؛
وإذن فالتحرك بين الشرق والغرب
هو الملك الأفضل.

أردف علامة شاب: «هذا الشعور ليس قدر المتجولين وحدهم، فكثيرا ما يداهمني أنا أيضاً، خصوصا أثناء قراءتي لأشعار وقصص أجنبية. من المؤكد أنه لم يعد هناك ما يفرق عالمنا إلى شمال وجنوب، شرق وغرب.»

علق السلطان متأثرا: «حقا. أشعر وكأن غوته يتحدث بلساني أيضاً.. أنا الذي حالفني الحظ ورزقت بمربية ألمانية عظيمة لا تزال قصصها قريبة جدا إلى نفسي، وكأنها قصص ليست من تأليف الأخوين جريم أو من فيلهلم هاوف أو من ايسوبوس، بل من جدتي أنا. لو أردت أن أفرق بين ما اتحد في نفسي من الشرق ومن الغرب، من المشرق ومن المغرب لاضطررت أن أمزق قلبي.»

رد توما مباشرة: «نعم يا أخي الحبيب، وهذه النقطة بالذات هي محور الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي، والآن بعد أن قطعنا المشوار الأول عبر مجموعة الديوان الشعرية، أود أن أدخل نوعا

ما بتفاصيل هذا الكتاب المميز لغوته، والذي تبوح قصيدته الأولى بكامل فكرته الأساسية.»

«ابدأ يا توما.. ابدأ.. إننا ننتظر على أحر من الجمر.» هتف السلطان. ووافقه جميع النساء والرجال في القاعة.

«حاضر.. الديوان يشمل عدة فصول سمى غوته كلا منها كتابا. الكتاب الأول اسمه كتاب المغني ويفتتح بقصيدة هجرة، وهي قصيدة تعالج الهجرة إلى المشرق كما يعلن عنها عنوانها. والعنوان نفسه يحمله النص الألماني، لكن بطريقة رسم الكلمة ونطقها الفرنسي هجيرة. وأغلب الظن أن غوته نقل هذا الرسم الفرنسي، المنقول بدوره عن كلمة لغتنا العربية هجرة، والدالة على هجرة رسولنا محمد من مكة إلى المدينة في عام ٦٢٢. وكما ذكرت، تتوارى خلف هذه القصيدة كل فكرة الديوان، بل أصحح نفسي وأقول: إن عنوان القصيدة وحده كلمة واحدة يكشف مشروع غوته الكامل. إنه لا يعني هجرة بعينها أو هرباً بعينه، ولكنه يعني الاعراض الشخصي، النفسي والذهني للشاعر عن محيطه الألماني.

إذن كان غوته يهدف إلى هجرة روحية، إلى الابتعاد عن أوروبا الضيقة واضطرابات ومخاطر الحروب النابوليونية الدموية فيها، وإلى التهرب من الفكر الجديد المفزع، والذي كان قد أخذ يتفشى في ألمانيا أيضاً. وفي هذه الحالة أحس بنفسه في وضع مشابه للنبي محمد أثناء هجرته من مكة وبقربه إليه، وتأمل أيضاً في جني قوة فكرية جديدة عبر هذه الهجرة. وسأتركه الآن يتكلم بنفسه:

الشمال والغرب والجنوب تتناثر،
العروش تتصدع، والممالك ترتجف،
فهاجر أنت إلى الشرق الطاهر
لتستروح نسيم الآباء،
يجدد فيك نبع الخضر الشباب

إلى هناك. حيث الحقّ والطهر والنقاء
أريد أن أقود أجناس البشر
وأنفذ معها إلى أعماق الأصل السحيق،
حيث كانت لا تزال تتلقى من الله
وحي السماء بلغات الأرض
دون أن تصدع رؤوسها بالتفكير.

وحيث كانوا يجلّون الآباء ويوقرون،
ومن طاعة الغريب وخدمته يأنفون،
أريد أن أسعد بالحياة في حدود الشباب:
فيتسع الإيمان، وتضيق الفكرة،
إذ كان للكلمة عندهم شأن أي شأن،
لأنها كانت كلمة تنطق بها الشفاه.

وأود أن أختلط بالرعاة،

وأنعش نفسي في ظلال الواحات،
وعندما أرتحل مع القوافل،
أتاجر في الشيلان والبن والمسك،
وأود أن أسلك كل سبيل
ينقلني من الصحراء إلى المدن.

وكلما صعدنا الشعاب الصخرية أو هبطنا منها
كانت سلوانا، يا حافظ، هي أغانيك
حين يطلق الحادي وهو على ظهر ناقته،
صوته النشوان بساحر الغناء
ليوقظ النجوم في أعالي السماء
ويبث الرعب في قلوب قطاع الطرق الأشقياء.

وهناك في الحمامات وفي الحانات
يطيب لي، يا حافظ، أن أشيد بذكرك،
عندما تكشف المحبوبة عن وجهها النقاب
وتهز خصلات شعرها فتفوح برائحة العنبر.
أجل إن همسات الشاعر ونجوى الحب
لتجعل حتى الحوريات يتقن إلى العشق.

وإن أبيتم إلا أن تحسدوه على هذا النعيم
أو شئتم أن تعكروا عليه صفوه،
فاعلموا أن كلمات الشاعر دائما تحوم

حول أبواب الفردوس،
وتظل تطرقها في هدوء
وهي تتوسل أن تحظى بالخلود.

تنهد عالم مسنّ قائلا: «آخ.. يا ليت كل الأوروبيين يتحدثون عن المشرق بهذا الاحترام!»

ثم انهالت الأسئلة على توما. فسألت إحدى السيدات: «أي حافظ هذا الذي يمجد غوته أعماله؟»

واستفهم العالم البدين: «وأي فرار يقوم به غوته خلال الديوان؟ وهل فر فعلا؟ لكنك قلت إن قدميه لم تطآ المشرق قط»؟

في حين تساءل السلطان: «كيف يتسنى لك أن تشرح لنا بالتفصيل عن أفكار غوته وأهدافه وآرائه، من خلال أشعاره فقط؟ وضح لي ذلك إذا كان بإمكانك.»

رفع توما يده راجياً وقال: «كم يسعدني أن يجد الديوان صدى عميقا لديكم، لكن دعونا نناقش النقطة تلو الأخرى. سأواصل حديثي أولا، وربما تجدون في سياقه إجابة على بعض الأسئلة التي على طرف ألسنتكم. سأبدأ بالإجابة على أخي وصديقي حكيم:

ليس من الصعب معالجة الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي، ومعرفة الأفكار التي قادت إلى أشعاره، حيث ألحقه غوته بملحق شامل «لفهم أفضل»، أوضح فيه للقراء خلفية الديوان نظرا

لمحدودية معلومات الأوروبيين حول الشرق في ذلك الزمن، كما أعطى في الملحق توضيحات لكل أبيات الشعر الموجودة في كل فصل من الفصول الاثني عشر، كل على حدة ولماذا كتبها. إنني لا أريد أن أطيل الكلام حول ذلك، لأن كثرة التوضيح تقتل الشعر. إلا أن الملحق يشكل لي مصدرا رائعا، وشروحات غوته فيه تساعدني كثيرا في الإجابة على الأسئلة التي يطرحها الديوان. ومنه سأسرد عليكم قصة واحدة فقط لغرابتها:

يعتبر كتاب تيمور هو أقصر فصل في الديوان، والمعني هنا هو تيمورلنك، ذلك الملك المغولي الذي يكرهه الشرقيون، لأنه غزا الشرق بحروبه وجلب له الموت والهدم والدمار، تماما كما فعل جنكيز خان قبله. غوته بدوره احتقره واحتقر استبداده. كتاب تيمور يتألف من قصيدتين فقط، اولاهما موجَّهة إلى زليخة، حبيبة الشاعر، وثانيتهما وصف لتيمور على حقيقته: غازيا لا يعرف الرحمة. لكن غوته يعطيه أيضاً مسحة من الإنسانية، بل نوعا من المرح في رده على إهانة أحد رعاياه. هل تودون سماع هذه القصة؟»

قال السلطان: «بكل سرور، أرجوك.»

بدأ توما مرة أخرى: «كتب غوته: **«كان تيمور رجلا قبيح الخلقة، فهو أعور وأعرج. ذات يوم وبينما كان خادمه يقف بالقرب منه، حك تيمور رأسه، إذ إن وقت الحلاقة قد حان. هنا أمر تيمور خادمه بإحضار الحلاق. وما إن انتهى الحلاق من قص شعره، حتى وضع المرآة في يد تيمور، كما يفعل دائما. تأمل تيمور نفسه في المرآة ووجد وجهه قبيحا جدا. فبدأ في البكاء**

وبكى الخادم معه. وظلا يبكيان هكذا طوال ساعات. فحضر بعض رجال مجلس تيمور، وراحوا يواسون الملك ويقصون عليه حكايات عجيبة حتى يُنسوه كل شيء. وفي النهاية توقف تيمور عن البكاء. أما الخادم فلم يتوقف، بل راح يزيد في بكائه. أخيرا قال تيمور للخادم: اسمع، عندما تطلعت في المرآة ورأيت نفسي قبيحا جدا، جزعت أشد الجزع لأنني لست فقط ملكا، بل أملك فوق ذلك الثروة الهائلة والجوار الكثيرة، ومع ذلك أبدو بهذا القبح، لهذا بكيت على نفسي. وأنت، ما الذي يبكيك دون توقف؟ أجاب الخادم: إذا كنت قد رأيت نفسك مرة واحدة في المرآة ولم تستطع أن تتحمل منظر وجهك ورحت تبكي، فماذا نستطيع أن نفعل نحن.. نحن الذين علينا أن نتطلع إلى وجهك ليل نهار؟ إذا لم نبك نحن، فمن الذي سيبكي؟ لهذا بكيت - عند هذه الكلمات كاد تيمور أن يختنق من شدة الضحك.»

قال عالم كبير في السن: «أقصوصة جميلة لكنها ليست نادرة في الشرق، وبإمكاني أن أرتجل العديد منها. وهي قصص تحكي في العادة عن ردود فعل خلفاء جائرين، عندما كانوا يقاطعون فجأة أثناء خطبتهم من أحد رعاياهم المساكين، بغرض المعارضة أو حتى الشتم، ومع ذلك لا يصاب المعارض بمكروه، حتى ولو كان ممن لا يتمتعون بصفة رسمية في القصر كمهرج أو شاعر بلاط أو عالم مشهور. ومن أشهر أمثلة هذه القصص قصة المرأة التي عارضت الخليفة الثاني عمر بن الخطاب علنا وبصوت عال أثناء خطبته، فتوقف هذا عن الكلام فجأة وصاح: «أصابت المرأة وأخطأ عمر!»

ولا ننس ما قيل وكتب عن أبي نواس أيضاً، وكيف كان يمزح مع الخليفة القوي هارون الرشيد. بالمقابل أعرف قصصا أخرى على العكس تماما، فظيعة وقريبة إلى الوحشية: في إحدى المرات جاء الخليفة المنصور المعروف بعنفه إلى الجامع وألقى بكبرياء خطبة عدّد فيها أعماله وإنجازاته. وكان مما قاله: منذ أن تسلمت الحكم لم تبتلوا بالطاعون أبدا، فصاح رجل من بين الجموع بشجاعة: الله رحيم، لم يبتلنا بك وبالطاعون في وقت واحد... جملة لم تترك هذا الشجاع يعيش كثيرا.»

رد توما: «صحيح. وأنا أيضاً أعرف قصصا كثيرة مشابهة انتهت نهاية دموية. لقد قصد غوته فقط إظهار الوجه الآخر للحاكم الظالم تيمور، فقد كان يهمه عرض الأشخاص في تناقضاتها ومن كل جوانبها، وليس من جانب واحد منها فقط.»

استراح توما قليلا وارتشف بعض الشاي من كوبه، ثم طلب ملأَه بآخر طازج لا يزال بخاره يتصاعد. كذلك الآخرون استغلوا الاستراحة القصيرة لإنعاش أنفسهم قليلا في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

ثم تابع: «اسمحوا لي أن أعود إلى الديوان نفسه وأجيب على أسئلتكم. ما الذي دعا غوته إلى الفرار؟ كما ذكرت كانت الحروب النابوليونية تصخب في أوروبا في ذلك الوقت، أحداث ضخام سببت له حالة نفسية سيئة وإحساساً بالضيق، ليس بضيق مدينة فايمر فحسب، ولكن بضيق التفكير الذهني الأوروبي

بكامله، وطمح في انفتاح ينعش تفكيره ويمده برياح التغيير، ورأى في الشرق ينبوعا جديدا، لذلك كان اختيار عنوان شعره الأول «هجرة» موفقا تماما ودقيقا جدا.

وفي توجهه إلى الشرق وجد غوته زميلا له في الفكر: الشاعر الفارسي محمد شمس الدين حافظ من شيراز، الذي كان عالما في العلوم الدينية واللغة، ومعارضا كبيرا لكل ما هو متزمت، ومؤلفا عظيما لكثير من الأناشيد الرائعة الرقيقة كما تعرفون، والتي أحبها غوته وفي وجدانه شاركه فيها. يُعتبر حافظ من أكبر شعراء إيران بجانب جلال الدين الرومي وسعدي الشيرازي. وعاش مثله مثل غوته، في وقت الحروب والدمار تلك التي سببها المغول تحت قيادة تيمورلنك المذكور. وقد أهداه غوته فصلا كاملا في الديوان بدأ بالأبيات التالية:

إنك لتعلم ما يريده العباد،
وقد فهمته كل الفهم:
فالحنين يقيدنا أجمعين،
من التراب إلى العرش بقيوده الشداد

إنه ليؤلم أشد الألم، ثم لا يلبث أن يسر،
ومن ذا الذي استطاع أن يتحداه؟
وإذا كان البعض قد كسرت رقبته،
فالبعض الآخر باق على طبعه المتهور.

اعذرني يا معلم كما عهدتني،
كثيرا ما أجاوز الحدود،
كلما أسرتني عيناها وشدتني
شجرة السرو المتقلبة المزاج.

عند هذا الموضع قطع توما إلقاءه، وباشر اكمال حديثه: «هذا...»

لكن أحد العلامة كبار السن صاح قائلا: «أكمل القصيدة.. لا تتوقف... لا توضح»!

ضحك توما وقال: «لا، آسف جدا، انني لم أنته بعد من ترجمة القصيدة الطويلة إلى حافظ، لذلك ليس بإمكاني إلا تقديم مقاطعها الأولى، أما العشرة الأخيرة منها فهي لا تزال قيد الترجمة.»

قال السلطان ضاحكا: «يا صديقي العزيز، يبدو لي أنك تحذو اليوم حذو حكواتي المقهى اللئيم: تعطشنا على الدوام، لكنك لا ترينا الماء البارد إلا من بعيد فقط!»

أكمل توما: المقاطع الثلاثة التي أسمعتكم إياها، ذات أهمية خاصة، لأنها لا تهيب بحافظ فقط بل تهيب بشاعرنا أيضاً. غوته، كأشهر وأكبر شاعر بلسان ألماني في ذلك الوقت ينحني أمام شاعر فارسي يكاد أن يكون غير معروف في أوروبا... شاعر عاطفي ووجداني عاش قبله بخمسمائة عام.

كان غوته قد عكف على دراسة حافظ وشعر الشرق مدة

طويلة، ففتنه الأدب الشرقي وفتح له آفاقا جديدة للكتابة، إلا أن هذه الفتنة لم تعطِ ثمارها فعلا، إلا عندما قام الشاعر برحلتة إلى جنوب ألمانيا بشمسها وبغاباتها الظليلة العالية.. إلى مسقط رأسه ومرتع طفولته وصباه: مدن فرانكفورت وفيزبادن والمدينة الرومانتيكية هايدلبيرج. وهناك ما إنّ وقع بصره على صور الطبيعة المألوفة لديه منذ صغره، حتى مزجها في خياله مع صور الشرق، تلك التي وصفها رحالة عصره بإسهاب في كتب الرحلات المختلفة، والتي قرأ منها غوته بنهم عددا لا يحصى. بعد رحلته مباشرة بدأ غوته بكتابة الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي، واستغرق منه مدة سنتين، وصفها الشاعر في وقت لاحق بأنها «فترة سعيدة في حياته».

ولو قررت من هذا المنبر، أن أعدد كل الانطباعات وكل الأماكن التي كانت دافعا وسببا في كتابة فصول الديوان، فسأحتاج إلى وقت طويل. ما يهمني هنا هو الدافع الحاسم، وهو دون أدنى شك حبه لامرأة سأحدثكم عنها:

أثناء رحلته إلى مدن الطفولة قضى غوته بعض الوقت عند صديق قديم تعيش عائلته في فرانكفورت، إنه يوهان يعقوب فيليمر أحد رجال المال الذي كان لتوه قد تزوج للمرة الثالثة، من شابة رائعة الجمال، راقصة ومغنية. ماريانا وهذا هو اسمها، احتفت بحضور غوته احتفاء كاد ان يكون احتفالا، إذ غنت أمام الزائرين أناشيد- ميغنون من كتابه مايستر فيلهلم. في الحال ربط بينهما ميل عاطفي شديد متبادل وحب هائم عميق، صغرت به ماريانا غوته عشرات السنين، ففاضت عبقريته وهاجت في نفسه

أشعار رائعة وجدت مخدعها في هذه المرأة غير العادية. هنا حدث شيء غير مألوف: ردت ماريانا على أشعاره الفياضة بالحب بأشعار مشابهة من تأليفها.. أشعار لا تزال حتى يومنا هذا تُعدّ من أجمل الأشعار المكتوبة باللغة الألمانية، وقد أدرجها غوته في الديوان أيضاً. وكان يسمي نفسه في أشعاره الموجهة إلى ماريانا باسم حاتم، بينما أطلق عليها اسم زليخا، ليقينه أنه لن ينالها أبدا، كزليخا الايرانية التي لم ينلها حبيبها يوسف. هذا ولو أن ماريانا كانت بلا ريب على استعداد أن تكسر كل التقاليد من أجله. فانصتوا الآن إلى الأبيات الشعرية التي يقدمها كل منهما إلى الآخر في لعبة شعرية متبادلة:

حاتم

ليست الفرصة هي التي تخلق اللصوص
فهي نفسها أسوأ لص؛
إذ سرقت ما تبقى
من الحب في قلبي.

لقد أسلمته إليك،
يا أعظم ما فزت به من حياتي،
فصرت، بعد أن داهمني الفقر،
لا أتوقع الحياة إلا منك.

غير أني أستشعر بالإشفاق

في ياقوت نظرتك،
كما أسعد بين ذراعيك
بقدري الجديد.

زليخا

سعيدة حتى الثمالة بحبك،
لا أريد أن أذم الفرصة،
حتى لو كانت هي اللص الذي سرقك،
فكم تسعدني هذه السرقة!

ولماذا تتكلم عن سرقة؟
هبني نفسك باختيارك الحر؛
كم يطيب لي أن أتصور
أنني أنا التي سرقتك.

إن ما أعطيته عن طيب خاطر،
يعود عليك بكسب رائع،
طمأنينتي، حياتي الخصبة،
أهبها في فرح، فخذهما!
لا تمزح! لا تتحدث عن فقرك!
أوَلا يجعلنا الحب أغنياء؟
حين أضمك بين ذراعي،
لا تعادل سعادتي أية سعادة.

بان الانبهار على وجوه أعضاء اللجنة، إلا أن توما لم يترك لهم فرصة التعبير عن إعجابهم، وأمسك على التو بخيط مادته من جديد:

«وفي مكان آخر تبدأ زليخا بالمناجاة، فاستمعوا إلى هذه الأبيات التالية:

زليخا

طلعت الشمس! يا له من منظر بديع!
والهلال يعانقها.
من الذي استطاع أن يوحد هذين الزوجين؟
وكيف يفسر هذا اللغز، كيف؟

حاتم

السلطان هو الذي استطاع ذلك،
حينما زوج أعظم كوكبين في العالم،
ليكرم المصطفين من رجاله
وأشجع الشجعان في ركابه الأمين

لتكن هذه أيضاً صورة لسعادتنا!
فها أنذا أراني وأراك من جديد،
أنت أيتها الحبيبة تسمينني شمسك،
فتعالي يا قمري الحلو، وعانقيني!

وبقي الأعضاء على صمتهم وكأن الكلمات الشعرية الرائعة لم تبرح آذانهم بعد. انتظر توما قليلا ثم أكمل:

«ولما ابتعد الشاعر عن ماريانا نهائيا، سكتت تماما. لكن غوته يبقى مدينا لها بالفصلين الرائعين: كتاب الحب وكتاب زليخا، من الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي.

الديوان بمجمله يشمل اثني عشر فصلا ذات أشعار رائعة، وكل شعر منها أجمل من الآخر. بعد أن ينهي القارئ أحد فصوله، كتاب الحكمة على سبيل المثال، يعتقد تماما أن الشاعر وصل في هذا الكتاب إلى قمة فنه، وليس من مجال للارتقاء، لكنه ما يلبث أن يفاجأ بقمة فنية جديدة في كتاب الجنة على أكثر تعديل، الكتاب الذي يتوجه فيه غوته بالكامل للألوهية في أشعار لا مثيل لروعتها، أخذ محتواها من الديانة الإسلامية، ومزجها في الوقت نفسه بصور وأقوال من التعاليم المسيحية. هكذا نرى بجلاء ووضوح أن الشاعر قد حافظ بطريقة صادقة، وبجلد ومثابرة على فكرة الحوار والمؤاخاة بين الشرق والغرب، خلال كل فصول الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي وحتى فصله الأخير.»

بهذا أنهى توما كلمته الطويلة.

أردفت إحدى العالمات: «ليتك تسمعنا أمثلة من الأشعار الإلهية يا توما.»

أجاب توما: «بكل سرور.»

قال السلطان مازحا: «قبل أن ننتقل إلى هذه المتعة -

وبتقديري أنها متعة طويلة - دعنا نسمع منك إجابات سريعة على أسئلة معلقة لا تزال تشغلنا، ولنشرب أثناء مناقشتها قهوة طازجة سأطلب إحضارها الآن.»

هتف بعض علماء اللجنة: «فكرة رائعة». وبسرعة دبت الفوضى وتداخلت الأصوات ببعضها.

(لكن لمّا نال التعب مني، وخارت قواي، أنا كاتب القصر ومحرر التقرير، رجوت السلطان أن يسمح لي باستراحة قصيرة أستلقي فيها في الغرفة المجاورة. ضحك بعطف وقال: «اذهب واسترح، وعندما تستيقظ سنكون بالتأكيد لا نزال نعالج موضوعنا.»

ولم أستيقظ إلا مع بزوغ الفجر، والساعة تشير إلى بعد الخامسة. لاحظت أن الجلسة لا تزال منعقدة، فاليوم هو يوم الجمعة ولا يحتاج أحد من الأعضاء للعمل. رجعت إليهم أحمل أسفي معي، فاستقبلوني بكل مودة ولطف.)

أبلغني السلطان ما يجب تسجيله في البروتوكول: تم تأجيل جلسة اللجنة الأخيرة، التي من المقرر أن يتخذ فيها القرار النهائي بشأن أعمال غوته إلى اليوم التالي، ليس بسبب الوقت الذي بات متأخرا جدا فحسب، بل أيضاً بسبب سؤال أخير لا يزال يؤرق اللجنة وتنتظر من توما إجابة عليه، لتعطي على ضوئه قرارها النهائي.

ولمّا استفسرت عن هذا السؤال أجابني السلطان: «علاقة غوته مع الأطفال. إنه موضوع له من الوزن عندي ما يزيد على نصف أعمال المفكر.»

إذن فلننتظر الغد متشوقين.

الليلة التاسعة

التي يتم أخذ القرار فيها

«أخي العزيز،

جمعية العلماء المحترمة،

حتى يتسنى لي تقديم غوته تقديما كاملا، رجوتكم أول أمس أن تتفضلوا وتمنحوني ليلة ثامنة، وفعلا حققتم لي رغبتي. وفي نهاية الجلسة طلبت مني يا أخي أن أواصل اليوم الحديث عنه وأجيبك على سؤال يشغلك، قبل أن تباشر ولجنتك بالاستشارة الأخيرة وأخذ القرار النهائي بشأن يوهان فولفغانغ فون غوته، وما إذا سيكون هذا الشاعر واحدا من بين الذين ستترجم مؤلفاتهم إلى لغتنا العربية، وتصبح بين يدي شبابنا القراء في جزيرة حلم.

كم أنت محق يا أخي في تساؤلك عن الطريقة التي تعامل بها غوته مع الأطفال. فليس كل من يكتب عن الأطفال، يعني بالتأكيد أنه أب وصديق صالح لهم. ولنذكر على سبيل المثال جان جاك روسو، الشاعر الثوري الذي كتب حول التربية الحديثة روايته الرائعة إميل.

لا أريد أن أخفي عن اللجنة أنني أسقطت جان جاك روسو

من قائمة كتبي المفضلة منذ أن عرفت أنه وضع أطفاله الخمسة في بيوت اليتامى واحدا بعد الآخر. إنني لن أقرأ له مرة ثانية، فما يقول مثل هذا المفكر وما يأتي على لسانه لا يهمني إطلاقا، حتى وإن كتب مجلدا كبيرا عن تربية الأطفال.

غوته أيضاً كتب الكثير عن الأطفال. ولكن ماذا عن علاقته بهم؟ أكد شهود حياته حبه الشديد للأطفال واحترامه الدائم لهم ولطبيعتهم.»

أخذ توما استراحة للحظات قليلة، شرب فيها جرعة من كوب الشاي الذي أمامه، ثم واصل كلامه مباشرة، إذ لم يغب عن باله، أن الوقت المتوفر لديه هذه المرة لإعطاء السلطان إجابة قاطعة على سؤاله محدود جدا:

«رزق غوته وزوجته كريستيانا بخمسة أطفال، لم يتخطَّ سن الطفولة منهم إلا ابنه أوغست. حزن غوته على أبنائه الأربعة طوال حياته، وأحب أوغست حبا يفوق كل حد. ويذكر أنه عندما مرض في أحد المرات، أهمل غوته كل التزاماته وهو الذي كان في مقاطعته بمرتبة رئيس وزراء، وبقي بجانب سرير ابنه ثمانية أيام كاملة حتى استعاد هذا صحته، ثم أقام حفلة كبيرة فرحا بشفائه. بعد سنوات طويلة فقد غوته ابنه الوحيد أيضاً. ومع أن أوغست عند وفاته كان نفسه أبا له أطفال، إلا أن هذا الحادث كان من أفظع المصائب التي مر بها غوته في حياته.

غوته، المخطط العبقري في تقسيم الوقت، والذي لم يبخل بشيء كما بخل بوقته المليء بالالتزامات التي لا تعد ولا تحصى،

لم يتوانَ هو نفسه عن مداعبة أحفاده والتلهي معهم متى شاؤوا وأحبوا، مما كان يبلبل أفكار العاملين معه أحيانا. فكم أحب اللعب مع الأطفال، ليس مع أحفاده فقط ولكن مع الأطفال الآخرين أيضاً، ومشاركتهم ألعابهم الخيالية مشاركة فعلية. كتب، اكرمان وهو أخلص العاملين معه في إحدى المرات:

بعض اللحظات المسائية مع غوته. بدا غوته هادئا ومرحا وفي مزاج رائق جدا. وجدته محاطا بحفيده فولف والدوقة كارولين إجلوف شتاين صديقته المقربة. فولف يرهق جده الحبيب وهو يتسلق على ظهره، مرة على هذه الكتف ومرة على الكتف الأخرى. وغوته يتحمل ذلك بكل حنان، ولو أن وزن هذا الطفل ابن العشرة سنوات ليس مريحا له. قالت الدوقة: «يا حبيبي فولف لا تجهد جدك العزيز بهذا الشكل الفظيع! لا بد أنه سيصبح متعبا جدا من حملك». رد فولف: «لا بأس عليه. بعد قليل سنذهب للسرير وسيكون عند جدي وقتا كافيا يرتاح به من هذا التعب.» أخذ غوته الكلمة وقال: «الحب بطبيعته مرتبط دائما بقليل من الوقاحة كما ترون.»

كان فولف - أو فولفغانع وهو اسمه الكامل، أحب أحفاده الثلاثة إليه.

كثيرا ما انحنى غوته أيضاً أمام الأطفال الأغراب وسمع ما يؤرقهم. وهذه إحدى القصص العديدة التي تروى حول ذلك: وصلت إلى عائلة صديقه هيردر هدية كبيرة من إحدى الصديقات بمناسبة رأس السنة. سعدت السيدة هيردر بها كما سعد أطفالها، وبادروا على الفور بكتابة شكر للمرأة على هديتها، إلا أنهم

واجهوا صعوبة في ذلك. وعن طريق الصدفة جاء غوته لزيارتهم في اليوم نفسه، فما كان من المفكر والشاعر ورجل الدولة الكبير، إلا أن يجلس بتواضع مع الأطفال ويكتب لهم رسائل الشكر، بحيث لم يبق عليهم الا نسخها بخطهم فقط. بدأ الابن الأصغر يتهجى الرسالة التي عليه كتابتها، ولم ينته إلا بعد ساعة كاملة. وغوته.. وجد الوقت الكافي والصبر للانتظار.

وبوصفه موظفا عاليا في الدولة كان غوته ينظم احتفالات ومهرجانات للأطفال لا يسمح لغيرهم بحضورها، فكان يلقي بنفسه كلمة الافتتاح ثم يترك الأطفال يلعبون على حريتهم، لكنه يبقى حاضرا لحرصه على العناية بأمورهم ومنع أي مكروه عنهم، حتى يعودوا أصحاء سعداء إلى ذويهم.

كانت ثقته بالأطفال قوية إلى حد كبير.

أردف أحد العلماء: «إن نبيّنا محمد لم يكن يختلف عنه. فقد قال: «خمس لا أدعهن حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوب الحمار موكفا وحلبي العنز بيدي، ولبس الصوف والتسليم على الصبيان.»

أكد توما: «رائع، هذا ما يروق لغوته بالتأكيد، فقد احترم الأطفال ووثق بهم وبمقدرتهم أكثر كثيرا مما كان سائدا بين الكبار في ذلك الزمان. وقد كتب اكرمان حول ذلك:

من خلال الحديث عن قصته فيرتر تحول حديثنا إلى الروايات والتمثيليات عموما وتأثيرها الأخلاقي واللاأخلاقي على الناس. فقال غوته: «**لا شك أنه من غير المحبذ أن يكون لكتاب ما تأثير**

أكثر فسادا على الناس من الحياة نفسها، فحياتنا مليئة بالمناظر البشعة والفضائح اليومية التي إذا لم تحدث أمامنا ونراها بأعيننا، نسمعها في آذاننا. لذلك يجب علينا ألا نخاف من تأثير كتاب أو مسرحية، حتى على الأطفال، فالحياة اليومية كما قلت أكثر تعليما من أقوى الكتب تأثيرا.»

قلت: «مع ذلك ففي رأيي أنه من الأفضل أن نأخذ حرصنا ولا نتكلم في حضرة الأطفال ما نعتبره غير مناسب لهم لسماعه.»

أجاب غوته: «احتياط يستحق التقدير، وأنا نفسي أنفذه وليس غيره. ولو أني لا أعتقد فعلا بفائدته. ذلك أن الأطفال كالكلاب تماما، لديهم حاسة شم حادة ودقيقة، حتى أنهم يكتشفون كل شيء، الكريه قبل الجميل، كما يحسون دائما بنوع العلاقة التي تربط والديهم بصديق العائلة هذا أو ذاك. وهم في العادة لم يتعلموا النفاق والمجاملة بعد، وبالتالي يمكن أن يكونوا أدق مقياس ينبهنا إلى درجة معزتنا أو درجة بغضنا عند الناس المعنيين.

حدث في إحدى المرات أن تحدث المجتمع عني بطريقة سيئة. بدا لي الموضوع آنذاك ذا أهمية، وحرصت جدا على معرفة مصدر هذه الطعنة. وكوني أعرف أن الناس هنا بصفة عامة تستلطفني وتقدرني، حرت في التفكير من عسى أن يكون مروج هذه الإشاعة السيئة، ولم أهتدِ إليه. في أحد الأيام شع ثمة ضوء أمامي، وذلك أثناء مروري في الشارع عندما قابلت صدفة أولاد أحد معارفي، ولم يحيّوني كعادتهم دائما. فاجأني هذا التصرف لكنه كان كافيا لأكتشف عن طريقه في الحال أن والديهم هما من سلط لسانه عليّ بهذه الطريقة الرديئة.»

لو تمعنا في مواقف غوته وآرائه فيما يتعلق بتفتح الأطفال وقدراتهم، فلن يسعنا إلا أن نندهش من بُعد بصيرته وحداثة تفكيره، فما قاله يسري على يومنا هذا أكثر من أي وقت مضى.

كتب أكرمان أيضاً: مع الأمير عند غوته. تسلى أحفاده بعرض بعض الأعمال السحرية البسيطة، وخصوصا حفيده فالتر المتدرب عليها. قال غوته في هذا السياق: «**لا أجد ما يمنع أن يقضي الأولاد ساعات فراغهم بمثل هذه التفاهات، إذ إنها تتم أمام جمهور قليل وبالتالي فهي وسيلة عظيمة للتدريب على الكلام الارتجالي وكسب بعض الليونة البدنية والعقلية التي لا نملكها بفيض نحن الألمان. صحيح أنه قد يكون من سيئاتها إصابة الأطفال بنوع من الغرور، لكن هذا الضرر ليس ذا قيمة بمقارنته بالمكسب الذي يجنونه منها.**» قلت معقبا: «بل إن المشاهدين يعملون على التقليل من هذا بطبيعة الحال ويراقبون بدقة كل ما يقوم به الفنان الصغير، ويسرهم أن يسخروا من أي خطأ يقع فيه، أو أن الشعور، لأنهم المشاهدين- أسرار ألعابه السحرية أمام الجميع، مما يدعو الفنان إلى الاستياء.»

أجاب غوته: «**إن هؤلاء الفنانين الصغار كالممثلين الذين يتم إحضارهم اليوم وطردهم في اليوم التالي.**»

وللمرة الأخيرة أريد أن أستشهد بأكرمان حتى تستمعوا، كيف دافع غوته بقوة عن أهمية انطلاق الأطفال والفتيان انطلاقا حرا يعطيهم ثقة بالنفس ويجعل منهم أناسا أقوياء:

«**في مدينتنا الحبيبة فايمر لا أحتاج إلا أن أنظر من النافذة حتى ألاحظ كيف تسير الأمور عندنا. عندما غطى الثلج المدينة قبل فترة**

قصيرة خرج أطفال الجيران من البيوت يحاولون التزحلق بمزلقاتهم الصغيرة في الشارع. ولما كان أحد رجال الشرطة يقف بالقرب من هنا في الوقت نفسه، راقبت كيف خاف هؤلاء الصغار ما إن لمحوا الشرطي وهربوا بأسرع ما يمكن. والآن وشمس الربيع تغريهم للخروج من بيوتهم واللعب بسعادة مع أقرانهم، أرى الخجل يخيم عليهم دائما وكأنهم يحسون بعدم الثقة بل وبالخوف من اقتراب أحد رجال شرطة الحكومة منهم. إنه ليس من المعقول أن يسارع الشرطي إلى كل صبي يلعب أو يغني أو يصيح، ويمنعه من ذلك. إذا سار كل شيء عندنا في هذا الاتجاه، فكأننا ندرب فتياننا الأحباء على الخضوع والخنوع في وقت مبكر، ونقضي على كل ما هو طبيعي وأصلي وشقي عندهم بحيث لا يبقى في النهاية إلا المرابي المحدود الأفق.»

هناك الكثير مما يمكن أن يقال حول غوته والأطفال، لكني لا أريد أن أطيل عليكم وأعتقد أنه يكفي ما ذكرت، لا سيما وأنت تريد إجابة مختصرة يا حكيم، كما وفهمت منك يا صديقي أنه سيقع على عاتقي مسؤولية إعطاء اللجنة دفعة أخيرة، وذلك قبل أن تغادرونا أيها الأعضاء المحترمين وتشغلوا تفكيركم في كل ما سردته وحاولت أن أعرضه حول أكبر شاعر ألماني. أرجو أن تصلوا إلى قرار سديد.»

رد السلطان مبتسما: «نشكرك يا توما لأنك أبرزت لنا هذا الجانب المحبب واللطيف من جوانب غوته قبل أن تقفل تقريرك عنه.»

أردفت إحدى السيدات: «تبادر إلى ذهني الآن، أن الله في

كثير من الديانات يأخذ شكل وروح طفل. وإلا فمن ذاك الذي يستطيع خلق الأرض في سبعة أيام؟ وتشكيل آلاف البشر من الطين، والخطوط، والألوان يوميا على الأرض؟ هناك أسطورة قديمة جدا في الصحراء العربية تقول: خلق الله الإنسان من الطين، وبعد أن انتهى اكتشف أنه لا يزال يملك بعض الطين. هل ترون المغزى الرائع لهذا المنظر؟ إن الله ليس آلة، لكنه خالق حيوي كطفل يأخذ دائما أكثر مما يحتاج. لكن ماذا فعل الله بالطين الباقي؟ شكّل نخلة ونادى على الإنسان قائلا: هذه أختك، احرص عليها. يا لها من قصة عبقرية، فمن خلال جملتين فقط تتضح كل العلاقات والترابطات بين الإنسان والطبيعة، والتي لا تعني في النهاية إلا هذه الكلمات الجديرة بالاحترام: حافظ على الأشجار كما تحافظ على أختك. في رأيي تكمن وراء هذه القصة علاقة حكيمة جدا تجاه الله.»

وأكمل عالم كبير: «قرأت أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن الأرض قد نشأت نتيجة ضحكات الآلهة. تخيلوا ذلك فقط، لا بد أن طفلا وراء هذا التفكير!»

ضحك الجميع. وغلب الانشراح على جو اللجنة رغم أنها على وشك اتخاذ قرار صعب. بعد لحظات أعطى السلطان حكيم إشارة إلى اللجنة، معلنا عن رغبته في البدء بالاستشارات النهائية. فاختفى الأعضاء مرة أخرى في الصالون المجاور الصغير كما اعتادوا في كل الليالي السابقة.

أما أنا كاتب تقرير هذه الليالي، فقد لاحظت كيف يبدو توما

متعبا جراء مجهوده في الليالي السابقة، لكن بشكل ما سعيدا أيضاً. لا أدري لماذا؟ ألأنه أنهى مهمته أخيرا، أم لأنه يدرك أن فرصة غوته ليست سيئة؟ لقد منحه السلطان الكلمة تسع مرات دون أن يحدث مرة أن يعترض أحد من الأعضاء عندما كان يحظى بليلة جديدة يكمل فيها تقديم شاعره. وهذه بالتأكيد إشارة جيدة. كما لم يمارس الأعضاء النقد إلا نادرا، وإذا حدث ففي نقاط منفردة فقط. ففي تقارير أخرى كان الحديث عن شاعر ما ينتهي أحيانا أمام اللجنة بعد ليلتين أو ثلاث أو أربع ليال، وذلك عندما تعني غالبيتها أنها سمعت بما فيه الكفاية لإعطاء حكمها السلبي في معظم الحالات.

كان القمر يسطع في الخارج فوق البحر الذي راحت أمواجه تتقاذف إلى الشاطئ بطريقة إيقاعية، وجلس توما أمام النافذة يتأمل هذا المنظر الرائع ويهمس لنفسه مدندنا، لكن بالألمانية هذه المرة. مع ذلك استطعت أن أتبين أنه يدندن شعرا ذا رنين جميل متجانس مع الليل، أشبه بالرنين الذي عشناه في المساء الذي متعنا فيه توما بأشعار غوته الوجدانية القصصية الرائعة. أنصت إليه مسحورا، وجال بخاطري كيف أن هذه اللغة الألمانية بكثرة حروفها الشين والخاء لها صوت يشبه الأرامية.

انتظرت حتى سكت توما، ثم ذهبت إليه ورجوته أن يرفق ترجمة هذا الشعر مع ترجمات القصائد السابقة، حتى أضيفه إلى تقريري. أعرف أنني بهذا لا أتخطى اختصاصي ككاتب للسلطان، لأني متأكد أن سلطاننا حكيم سيسعد عندما يدرس البروتوكول ويجد لؤلؤة غوتية أخرى ترتفع من قاع البحر الهادئ.

ها أنت ذا تعود صامتا تملأ الدغل
والوهاد ببريق الضباب
وتمنح روحي في النهاية
حريتها الكاملة.

تنشر فوق أجوائي
نظرتك الرهيفة،
بحنان كعين الصديق
ترف فوق مصيري.

قلبي يحس رنين كل
زمن بهيجا كان أم حزينا،
وأنا أسبح بين البهجة والألم
في وحدتي.

واصل سيلك، أيها النهر الحبيب!
فلن تعود إلى البهجة أبدا،
بعد أن غيبت عنك الدعابة والقبلة،
وغيبت الوفاء.

مرة كنت أمتلك حقا
ما هو عذب لذيذ!
ولعذابي لم تعد لي قدرة

على نسيانه أبدا!

اهدر أيها النهر، على امتداد الوهاد
دونما استراحة ولا هدوء،
اهدر واهمس لأغنيتي
بألحانك البديعة.

عندما تفيض غضبا
في الليالي الشتوية،
أو في روعة الربيع
تنمو البراعم اليافعة.

سعيد هو من يعرض عن
العالم دونما نفور
ويضم إلى صدره حبيبا
ويجني نعماه

ما لم يعرفه الناس
أو لم يفكروا فيه
وهو في متاه الصدر
يسبح في غمرة الليل.

رجعت اللجنة بعد استشارة قصيرة. أحضر الخدم في أثنائها شايا طازجا عبقت رائحته الطيبة اللذيذة في أنحاء القاعة وعطرت

هواءها. وما إن أخذ كل منهم مكانه حتى سمعت طرطقة كؤوس الشاي والثرثرة المرحة آتية من كل صوب، تماما كما حدث في الليالي السابقة.. وهذه إشارة أكيدة إلى أن قرار اللجنة لن يكون سلبيا هذا المساء، وإلا لجلس أعضاؤها في خجل، محاولين خنق أي ضوضاء غير لازمة. أخيرا بادر السلطان بالكلام:

«يا أعز صديق وأخ، كم نشعر بالغيرة، لجنتي وأنا، من غوته على صبيه الساحر توما، هذا الذي استطاع بحنانه وقدرته العظيمة أن يفتن قلوبنا ويأسرها بالشاعر الألماني الكبير. تأكد يا عزيزي توما أننا جميعا في هذه الحلقة متفقون تماما على أن غوته شاعر عظيم رائع. فكيف لنا أن نكون أنانيين ونأخذ حق التعرف عليه وحدنا؟ وما أكبر الخسارة لو رفضناه! إننا نتمنى وننشد لأولادنا، التعرف على هذا الشاعر الكبير ذي الشخصية العبقرية، والاستمتاع بقراءة قصصه ومسرحياته في أفضل ترجمة وفي أقرب فرصة ممكنة.

إننا على ثقة يا توما أننا لن نجد ترجمة لأشعاره إلى اللغة العربية أجمل من ترجمتك لها، هذا ما أحسسنا به في كل ما سمعناه منك. لذلك قررنا أن نسند إليك في بيت الحكمة مهمة المشرف العام على الترجمة الخاصة بأشعار غوته، على أن تعطيها اللمسة الأخيرة بنفسك.»

هلل توما فرحا، أشرق وجهه، وراح يسلم على المهنئين واحدا تلو الآخر. أما أنا كاتب هذه السطور فسعادتي لا توصف، لأنه تسنى لي أن أكون من الحاضرين.

كيف انتهت القصة

أسر غوته بأشعاره قلب وروح اللجنة، ووصل بها الإعجاب إلى الحد الذي جعلها تقرر بالإجماع تكليف بيت الحكمة بترجمة أعماله. وهو بهذا أول شاعر ألماني يدرس في جميع مدارس وجامعات البلاد. ربما عزا بعض الحساد هذا القرار إلى الصداقة القوية التي تربط السلطان الحاكم حكيم، بأعز أصدقائه الأمير توما، الألماني الأصل. لكن ما أثبت خطأ هذا التخمين، هو أن اللجنة في حلقات تالية رفضت رفضا قاطعا الفيلسوف هيجل، وأيضاً كارل ماركس الذي بذل توما الجهد العظيم في التعريف به والدفاع عنه أمامها، حيث أجابه السلطان باختصار بعد استشارة مستفيضة مع أعضائه: صحيح أن كارل ماركس هو نبي الحداثة لكن اليهود قدموا للعالم أنبياء أفضل منه. وعلى عكس ذلك قابلت اللجنة هاينرش هاينه بحماس شديد، بينما استجابت لنيتشه بحذر ونصحت به للطلبة المتقدمين فقط. أما شوبنهور فقد فتن اللجنة بأعماله الخاصة باللغة والأشعار، غير أن السلطان أوضح: إن تشاؤم شوبنهور لا يتناسب مع سمائنا الزرقاء.

لا . . لم يأخذ أعضاء اللجنة السرية في نقاشاتهم وجدالهم حول العلاقة مع الثقافات الأخرى أي اعتبارات شخصية.

ومرت السنوات. وأصبح بيت الحكمة، مركز الترجمة في جزيرة حلم، أشبه ما يكون بمبنى سفارة يضم جميع الثقافات، فبعد اللغات الأوروبية جاء دور اللغات الآسيوية، ولو أن الأدب الصيني كان قد حظي بقسم صغير كفء قبل ذلك. وصار المترجمون والمربون من كل بلاد العرب يتدافعون إلى بيت الحكمة ليكون لهم شرف المشاركة في هذا المشروع الفريد الطموح. ويذكر أن خبرات الترجمة في عام واحد في بيت الحكمة بلغت أكثر من الخبرات المماثلة في كل أنحاء بلاد العرب في عشر سنوات كاملة. بالطبع كانت تكاليفه ضخمة جدا، إلا أنه يقال إن السلطان سعيد حاكم عمان الذي كان تحت إمرة العرش البريطاني آنذاك، أنفق بما يوازي هذه التكاليف في ليلة واحدة في لندن.

في مساء أحد أيام حزيران/ يونيو الحارة من عام ١٩٠٢ طلب رجلان مقابلة السلطان قبل أن يمضي على وصول سفينتهما إلى ميناء العاصمة ذكرى أكثر من نصف ساعة. لم يرتضيا بمقابلة غيره، سواء كان وزيرا أو مستشارا، وسلما سكرتيره أوراقهما الشخصية وكتاب توصية من الرئيس الفرنسي إميل لوبيت. استقبلهما السلطان بدافع حب الاستطلاع، فدخلا في الموضوع مباشرة، وقالا إنهما مندوبا شركة بترول خاصة وصديقان شخصيان لرئيس الدولة الفرنسي.

«ما هي الخدمة التي أستطيع تقديمها لكما»؟ سألهما السلطان الذي لم يفهم ترابطات الموضوع بعد. أجابه أكبر الرجلين سنا: «أثبتت أبحاث الفرنسيين أن حلم تسبح فوق بحر من البترول، ومن الأفضل أن نسرع بالبدء في استخراجه، لأن البريطانيين على وشك الحفر في البحرين والكويت وقطر. وكما هو معروف فإن مخزون المنطقة كلها من البترول عبارة عن بحر واحد تحت الأرض، ومن أجل ذلك نحبذ البدء بعملية الاستخراج، اليوم قبل الغد.

ابتسم السلطان وشكر الرجلين على اهتمامهما، ثم وقف معلنا انتهاء المقابلة، واتجه إلى باب القاعة، وقبل أن يصله بقليل التفت لسكرتيره وقال: «لا تنس أن تقدم وجبة قيمة للرجلين قبل أن يعودا إلى ديارهما مساء اليوم.»

لم يمض سوى أسبوع واحد حتى كان ثلاثة رجال كنديون يقفون أمام مدخل قاعة الاستقبال في انتظار إذن بالدخول. وما إن جلسوا بحضرة السلطان حتى توجه هذا بكلامه إلى المتحدث باسمهم المسيو دارسي، رجل طويل القامة، كان قد اشترى من الإيرانيين قبل عام واحد امتيازات لاستخراج البترول بمبلغ زهيد، قائلا: «باختصار شديد، إننا على علم بأمر النفط، ولكننا سنواصل حياتنا بدونه إلى أن نملك العلم والمعرفة بأنفسنا، ونصبح مؤهلين لاستخراجه من الأرض بأيدينا دون مساعدة من أحد، والأهم أن نكون على دراية كاملة بكيفية الاستفادة منه على أحسن وجه. فمجرد حفر الأرض يمكن أن يقوم به أي أحمق، ولهذا الغرض لا أحتاجكم.»

كان السلطان على علم أن جيولوجيي الجزيرة ربما يحتاجون إلى عامين آخرين ليتمكنوا من القيام بعملية التنقيب عن البترول بأيدي محلية.

لم يكد الكنديون يغادرون الجزيرة حتى تبعهم هولنديون وإنجليز. وفي كل مرة ما إن يعطي الغرباء غرض زيارتهم بكلمة النفط حتى يتجهم وجه السكرتير ولا يقدمهم لسلطانه.. الرجل الغارق في أعماله وفي علاج مشاكل التقدم في بلاده، خصوصا وقد أصبح يدرك أن الوقت المتوفر أمامه لتحقيق ما يصبو إليه أقل كثيرا مما يعتقد.

لوحظ في الفترة الأخيرة ازدياد ظهور مدمرات بريطانية على ساحل جزيرة حلم، كما انتشرت شائعات في الدوائر الدبلوماسية مفادها أن حلم تقيم اتصالات مع ألمانيا منذ فترة.

«إن القوى المتنافسة في أوروبا لا تترك لنا وقتا كافيا» هذا ما قاله السلطان لصديقه توما في أحد الأيام وقد ظهر عليهما إرهاق واضح نتيجة العمل المتواصل، كما بدا انزعاج على وجوههما، بعد الأخبار التي وصلت لتوها إلى السلطان حكيم من وزير خارجيته، تقول إن كلا من القاهرة واستانبول وبغداد استفهمت منه عما إذا كانت حلم تنوي فعلا احتلال البحرين بمساعدة ألمانية! هذا وقد كانت بريطانيا في ذلك الحين قد استطاعت عن طريق العقود أن تصبح القوة الحامية الوحيدة في الخليج.

فجأة سحبت حكومات الدول الأوروبية القليلة الممثلة في الجزيرة سفراءها منها، فشعر سكان الجزيرة أن الحرب على الأبواب، ووضع الجيش في أقصى حالات التأهب.

هنا نصح السلطان صديقه توما: «عليك بإرسال والدتك إلى هانوفر حرصا على سلامتها.»

«صدق أو لا تصدق، هذا ما فعلته بالضبط، وعرضت عليها أن تسافر إلى ألمانيا بالسفينة بريمن التي ترسو حاليا في مينائنا لمدة يومين بغرض التصليح. أجابتني باختصار أن حلم هي سلامتها.»

في إحدى الليالي أمطرت السماء نارا على رؤوس سكان ذكرى عاصمة حلم. ودون إعلان للحرب قامت بعض السفن بإلقاء القنابل على قصر السلطان، إلا أن القنابل الأولى أخطأته وأصابت بدلا منه بيت الحكمة، فاندلعت النيران فيه واحترق! أهي صدفة أم قصدا.. لا أحد يعرف؟

كان البريطانيون والبحرانيون هم من قام بغزو حلم. ورغم المقاومة الباسلة التي قام بها جيش الجزيرة، إلا أنه اضطر أن يذعن للهزيمة بسرعة. ولما لم تبق إلا مقاومة حراس القصر تحت قيادة السلطان، وجه المارشال جون موري ضربة مباشرة إلى القصر من أقرب نقطة له، بمدافع مدمرته الثقيلة فيبر، ودمره بالكامل. لم يتم العثور على أي أثر من السلطان حكيم أو من صديقه توما. وكما قال شهود العيان من القلائل الناجين، إن الاثنين كافحا من أنقاض القصر المهدم حتى اللحظة الأخيرة.

مارتا أو الأميرة سيدة أصيبت بجروح أثناء قصف بيت الحكمة، بينما توفي زوجها تحت أنقاضه. لكنها استعادت عافيتها بعد فترة قصيرة وتركت حلم على متن سفينة ألمانية، وعاشت

منعزلة في هانوفر في أحد بيوت المسنين حتى توفيت عام ١٩٦٠، فقيرة غير معروفة.

أما هذا التقرير السري فقد كان محفوظا في حقيبة جلدية بنية اللون، أنقذتها مارتا من بيت الحكمة على أرجح تقدير.

أما أنباء الاعتداء على حلم فلم تتسرب إلى العالم إلا قليلا لعدم وجود إذاعة في ذلك الزمان، وبالتالي لم تتعدَّ أن تكون مجرد خبر قصير أرسله البريطانيون عبر خطوط التلغراف، التي كانت ترسل لاسلكيا من الأرض الإيرانية إلى كل من أوروبا والهند. وفيه أعلنت وكالات الأنباء البريطانية أن حربا أهلية قد اندلعت في إحدى جزر الخليج، وأنه تم القضاء على المخربين والغوغاء فيها بمساعدة القوى المتحدة للعالم المتحضر.

ولمّا لم تكن غالبية سكان العالم قد سمعت اسم حلم أو البحرين قبل ذلك، لم تحتفظ بهذا النبأ مدة طويلة في ذاكرتها.

ولم يمض إلا وقت قصير حتى بدأت عمليات التنقيب عن النفط في حلم، التي ثبت أنها ليست مصدرا غزيرا بالنفط فقط، لكن نفطها من أفضل الأنواع على الإطلاق. وبسرعة البرق انتشرت محطات التنقيب في البلاد، ووفرت العمل، وجلبت المال لأهل الجزيرة، مما حدا بإدارة الجزيرة التي عينتها شركة البترول إلى أن تمجد نفسها وتعلن بفخر، أنه لم يعد بين سكان حلم من هو عاطل عن العمل، وأن الشركة بصدد جلب ثلاثة آلاف عامل باكستاني وخمسة آلاف عامل هندي كأيدي عاملة إضافية إلى الجزيرة.

وبنشاط دأبت شركات النفط على ضخ الذهب الأسود في

حلم مدة ثلاث سنوات كاملة، حتى تعرضت الجزيرة فجأة لأمر غريب أشبه ما يكون بالزلزال. لكن الذي حدث بالضبط هو أن أرض الجزيرة هبطت بكاملها بالفعل عدة سنتمترات دفعة واحدة. وبعد هذه الرجة القوية الأولى بات من المستحيل إيقاف عملية الهبوط المستمر للجزيرة، مما اضطر سكانها لاخلائها. ولم يجد السكان المشردون مأوى لهم غير مناطق الشاطئ العربي القليلة السكان، باعتبارهم أشخاص دون جنسية. في غضون وقت قصير اختفت الجزيرة تحت الماء بكاملها، ولم يعد لها أثر. لكن محطات التنقيب لم تلبث أن انتشرت في البحر، هناك في المكان نفسه الذي كان جزيرة يوما ما.

حتى يومنا هذا، وعندما يكون اتجاه الريح مناسبا، يرى المرء من شواطئ البحرين مساحة خضراء مخمسة الأضلاع تلمع تحت الماء، ويسمع همس البحرانيين المسنين بجواره وهم يتمتمون: «هناك تقع حلم»!

مكتبة
t.me/soramnqraa

وثيقة عن حياة الشاعر الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته

تأليف الأمير توما

لقد أشرت من البداية أن حياة يوهان فولفغانغ فون غوته كانت حافلة في تنوعها متعددة في نواحيها، كما لم تخلُ من تناقضات كثيرة إلى حد يجعلها صعبة الإدراك والاستيعاب. قد تكون قراءة عمله الخاص بسيرته الذاتية الشعر والحقيقة بالإضافة إلى كتب رحلات إيطاليا وأحداث فرنسا خير معين على فهم هذه الحياة. فبهذه الأعمال الثلاثة يمكن أن نخطو خطوة كبيرة في التعرف على المعلم عن قرب، دون أن يعني هذا أننا سنتمكن من معرفته معرفة كاملة. إلا أننا لو ركزنا على نقطة هامة ورئيسية في شخصية غوته، وجعلناها نصب أعيننا، سنفهمه أكثر وسنشعر كيف تتناقص تناقضاته تدريجيا أمامنا في كل تصرفاته. هذه النقطة الرئيسية هي ظمأه الشديد إلى الثقافة الشعرية.. ظمأ جعله لا يكف عن الحركة والبحث ولا يجد استقرارا طول حياته. من هنا نستطيع أن نعي السعي الدؤوب لهذا الرجل، وندرك تلك الخطوات الجريئة الكثيرة التي قام بها، وأيضاً الهزائم الكبيرة التي مني بها. وعلى كل فالعبرة في الحصيلة... حصيلة انجازاته الفريدة. فالطفل الذكي الفضولي بقي حيا في داخله، يطرح

الأسئلة وراء الأسئلة دون توقف أو انقطاع، ولا يلبث غوته أن يبحث لها عن أجوبة، دون كلل.

والآن وبهذه الخلفية تتهيأ وتتضح بعض المحطات في حياة واحد من أكثر الشخصيات المثيرة والجديرة بالاهتمام في هذا العالم. وسنرافقه هنا في حياته بخطوات سريعة.

ولد يوهان فولفغانغ فون غوته في ٢٨ من آب/ أغسطس عام ١٧٤٩ في مدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الماين. فتح عينيه على العالم في عائلة ميسورة، حظ وفر له منذ نعومة أظفاره إمكانية تدريب العين والأذن والذوق على فهم كل ما كان يحيط به من لوحات مرسومة وموسيقى ومكتبة رائعة.

كانت عائلته مثل معظم العائلات البرجوازية في ذلك الزمان ذات نظام أبوي صارم، فوالده وهو صاحب السلطة الوحيد، رجل منظم عبوس، ورث ميراثا كبيرا جعله من كبار الأغنياء، حاصل على شهادة الحقوق وذو ثقافة عالية. إنه لم يمارس مهنته وبقي مثقفا تنبلا يشغل نفسه بالفنون المولع بها، ويعيش من الفوائد العائدة من ميراثه.

أما زوجته، والدة غوته، فهي منحدرة من عائلة معروفة، كل رجالها قانونيون. شغل والدها أعلى منصب قضائي في المدينة، وهذا الجد هو من أهداه غوته أول قصيدة كتبها وهو في الثامنة من عمره في عام ١٧٥٧.

ولما كان والد غوته مثقفا لنفسه فقط، فقد عاش منعزلا نسبيا وكرس حياته لتربية طفليه تربية جدية، فأعطاهما كل اهتمامه،

وركز على مستقبلهما وتوسم به. بينما كانت والدته ذات شخصية مغايرة، امرأة مرحة تعيش في الحاضر، ثرثارة وخيالية وبارعة في رواية القصص الخرافية. وكم استمتع غوته بقصصها، وكم أحب سردها المشوق. وقال عنها في وقت لاحق إنه يدين لها بطبيعته المرحة وحبه للأساطير.

ارتبط غوته بأمه وبأخته كورنيليا التي تصغره بعام واحد بعلاقة قوية خاصة، تركت تأثيرها على الطريق الذي شقه في حياته وعلى علاقته بالنساء الأخريات، وعلى ابتكاراته. وقد نوه غوته عدة مرات أن الأم وطفليها كثيرا ما وقفوا صفا واحدا ضد الأب.

وتحت إشراف والده حصل غوته على تعليم خاص، وقد شمل برنامج دراسته مواد: اللاتيني والإيطالي والفرنسي والإنجليزي واليوناني والرياضيات والهندسة والدين والجغرافيا.

لم يكن غوته تلميذا بليدا ولم يكن كذلك تلميذا نموذجيا. فإلى جانب المواد الرئيسية أخذ دروسا في الرسم وفي الموسيقى، وتعلم عزف البيانو، والمبارزة، والسباحة وركوب الخيل وفوق ذلك التزحلق على الجليد. كل هذا كان ولا يزال جزءا من التربية الجسدية الثقافية للأطفال الألمان الميسوري الحال.

وكان في طفولته يلعب بمتعة كبيرة بمسرح العرائس الصغير الذي كان بحوزتهم في البيت. كما أنه كثيرا ما زار المسرح الكبير مع أبويه، فسنحت له وهو في سن الرابعة عشرة فرصة حضور حفل عبقري الموسيقى، موزارت، الذي كان في السابعة من عمره في ذلك الحين.

وفي ذلك الزمن لم تكن كتب الأطفال معروفة، لكن طبعة

خاصة من الكتاب المقدس، مصورة ومليئة بالرسومات الجميلة، باتت حبيبة إلى الصبي غوته، الذي ما إن أتقن القراءة حتى بدأ يطالع في مكتبة أبيه، ما شاء ومتى شاء دون أية قيود. فتعرّف في مكتبة البيت على قصص ايسوبوس وحكايات ألف ليلة وليلة. وبعد أن كبر قليلا تعرف على التطور والتحول تأليف الشاعر اللاتيني أوفيد، والانيادة للاتيني فيرجيل، وروبنسون كروزو للإنجليزي دانيال ديفو، وجزيرة فيلزنبورج للألماني يوهان جوتفريد شنابل. فالملل لم يتسلل إلى غوته أبدا.

عندما اهتزت الأرض في ليشبونة عام ١٧٥٥، اهتز إيمان الفتى غوته، لأن الله في رأيه ترك الجميع يهلك، أهل الخير كأهل السوء. وكان قد قدر عدد ضحايا هذه المدينة البرتغالية في ذلك الوقت بأكثر من ستين ألف شخص.

لم يبخل القدر على الصبي غوته بأزمات سياسية صعبة واكبت تلك الحقبة. ففي عام ١٧٥٦ اندلعت حرب السبع سنوات بين بروسيا والنمسا، حرب أثارت جدلا شديدا لم يتوقف أمام باب عائلته، فوالده كان مؤيدا لبروسيا بينما جده من جهة أمه مؤيدا للنمسا، وهذا التحزب المختلف أدى إلى قطيعة بين جده ووالده الذي تحتم عليه فوق ذلك أن يكابد ويعاني عندما اتحد الفرنسيون مع النمساويين واحتلوا مدينته فرانكفورت، واستولوا على قسم من بيته ليقيم فيه أحد ضباطهم الكبار. لم يشعر غوته من جهته بالكره تجاه الفرنسيين لحظة واحدة، فالضابط الذي شاركهم السكن كان رجلا مرحا واسع الثقافة ذواقا للمسرح. وبشكل عام فإن فترة الاحتلال مرت دون مشاكل تذكر.

بعد أن أنهى غوته المدرسة أراد أن يدرس الفلسفة، إلا أن والده رفض ذلك رفضا قاطعا وأمر ابنه أن يسلك طريقه نفسها، وهي دراسة الحقوق. وهكذا أطاعه غوته وذهب وهو في سن السادسة عشرة إلى لايبتزيغ مدينة صغيرة حديثة في ذلك الحين ومغايرة تماما لمدينته الكبيرة فرانكفورت، وباشر فيها دراسة الحقوق دون رغبة حقيقية، وبالتالي جد واجتهد في حياته الخاصة، فأقام بسرعة علاقات مع الطلبة وعلى الأخص مع عدد من الشابات، وداوم على زيارة المسرح وعلى كتابة الأشعار والدراما. كان والده راضيا عنه وسخيا عليه لأنه حقق رغباته، فكان يرسل له مصروفا كبيرا جدا قيمته ١٠٠ جولدن في الشهر، وهو مبلغ أسطوري في زمنه، إذ لم يكن دخل الموظف المتوسط مثلا يتعدى ١٠٠ جولدن في السنة، وكان الأب يفعل ذلك دون أدنى قلق أو خوف على شخصية ابنه، مما يدل على معرفتة العميقة بروحه وبقدرته على الاستمتاع دون أن يصبح ماجنا مبذرا.

بجانب دراسة الحقوق أخذ غوته دروسا في فن الرسم وفن الحفر على يد الرسام آدم أوزر، وراودته في هذه الفترة فكرة أن يصبح رساما. لكن في الوقت نفسه بدأ مع أصدقائه في حلقة أدبية قراءة أدب الروكوكو الألماني المعاصر قراءة دقيقة، ومناقشته بالتفصيل. وتوجهوا بعد ذلك للاهتمام بشعراء العصور القديمة وبكتّاب من الدول الأوروبية الأخرى. وهكذا وسع غوته في لايبتزيغ آفاقه ومعرفته الأدبية بشكل كبير، ومثلت معيشته فيها نقطة تحول هامة في حياته.

في وقت لاحق أوضح غوته أن ما دفعه إلى البدء في الكتابة

وهو في لايبتزيغ، كان رغبته في التغلب على كل ما يحرك وجدانه من حوادث، سواء ما كان يسعده منها أو يعذبه. وهل هناك وسيلة لكبح جماح طباعه الحامية المتوقدة وتمرد عنفوانه أفضل من موهبة كتابة الشعر! وفي لايبتزيغ وجد طريقه الخاص والمحبب إلى نفسه.. طريق الشعر، الذي تمكن من خلاله التحرر بطريقة غير مباشرة من خطط والده الصارمة، هذا رغم يقينه أن المضي في هذا النهج يحتاج منه المثابرة على تنمية موهبته بالدراسة وبالعمل المتواصل.

عام ١٧٦٧ أغلق غوته ملف ماضيه الأدبي، بأن أحرق كل أعماله السابقة التي كان قد أحضرها معه من فرانكفورت سواء كانت أشعارا أو دراما أو نصوص نثر أو مسودات.. كتابات حازت في حينها على مديح العائلة والأصدقاء، لكنها أصبحت الآن في عينيه متكلفة، مصطنعة لا حياة فيها. وقرر البدء من جديد على قاعدة المعرفة الحديثة التي اكتسبها في لايبتزيغ، والمعلومات الكثيرة التي جمعها هناك.

وقد شاءت الظروف أن تنتهي إقامته هناك بمرض شديد كاد أن يودي بحياته. ففي شهر آب/ أغسطس من عام ١٧٦٨ ترك المدينة التي قضى فيها ثلاث سنوات، وعاد إلى بيت العائلة في فرانكفورت حيث احتاج إلى فترة نقاهة استغرقت عاما ونصف حتى استرد صحته، عمّق في أثنائها معرفته بالدين من خلال مناقشاته مع سيدة متدينة وملمة بالدين، كانت صديقة لأمه. كما خطا أولى خطواته في العلوم الطبيعية، وذلك من خلال طبيبه المعالج الذي كان خبيرا في علاج المثل بمثله (هيميوباتي) ومحبا

لإجراء تجارب كيمياء العصور الوسطى. هنا بدأ غوته بنفسه بالاطلاع على الكيمياء ودراستها، ثم باشر بعمل تجارب كيميائية مختلفة. وكان بديهيا أن ينمي بعد وقت قصير أفكارا خاصة به حول مشاكل الفلسفة الطبيعية والعلوم الطبيعية ويسجلها.

وفي مجال الأدب أيضاً اتخذ خطوة ذات شأن عظيم، عندما قرر عدم تقليد شعراء معروفين، وعدم إعادة نماذج مألوفة، بل ممارسة الجرأة والحداثة والأصالة في كل عمل يقوم به.

في نيسان/أبريل ١٧٧٠ ترك غوته فرانكفورت وسافر الى شتراسبورغ بهدف إكمال دراسة الحقوق. وفي آب/أغسطس من عام ١٧٧١ أنهى دراسته بنجاح مع درجة دكتوراه منحته إجازة في القانون. وفي إحدى رحلاته وبينما كان ضيفا في بيت الكاهن في زيزنهايم، تعرّف على الشابة الجميلة فريدريكه بريون وألهب حبها فؤاده، فأهداها عدة أشعار وأناشيد. في شتراسبورغ تعرف أيضاً على جوتفريد هيردر الأديب والشاعر المشهور آنذاك، ونشأت بينهما صداقة حرص غوته على تعميقها. وفعلا ساعده هيردر على الإسراع في إنضاج خططه وأفكاره الأدبية، من خلال نصائحه الطيبة ونقده الشديد له. كما أن هيردر هو من فتح عيني غوته على أدب الثقافات الأخرى. بعد ذلك انضم إليهما الشاعر ميشائيل راينهولد لينس، وبهذا الثلاثي بدأ ما سمي بعد ذلك حقبة العاصفة والاندفاع، لكن ما لبث غوته أن تفوق عليهما بعد وقت قصير.

ورغم قصر الفترة التي قضاها غوته في شتراسبورغ، إلا أنها كانت أغنى فترات حياته، وفيها قال جملته التي أصبحت مفتاحا

لبرنامج حياته: «ليس المهم أن نكون شيئا، بل المهم أن نطمح إلى كل شيء.»

ترك غوته شتراسبورغ في الشهر نفسه الذي أنهى فيه دراسته، وودع زيزنهايم وفريدريكه بيورن وداعا نهائيا، ليعود إلى فرانكفورت ويفتح فيها مكتبا للمحاماة. بعد ذلك ذهب للتدريب في محكمة استئناف الرايخ في المدينة القريبة فيتسلار تنفيذا لرغبة والده للمرة الثانية، دون أن يهمل طريقه الأدبي الخاص به. في فيتسلار تعرّف على يوهان هاينرش ميرك، وساهم في حلقة دارمشتات التي كان ينتمي إليها ميرك.

كان غوته باحثا لا يكل ولا يمل. فقد بحث بدأب في كل تراث ثقافته الألمانية عن صيغ للمسرحيات، وقام بتجربة أساليب مختلفة منها، بغية التوصل إلى نهج وأسلوب خاص به. ولم يجد مانعا في أن يستلهم أيضاً من تمثيليات الموالد الشعبية ومن مسرحيات الكرنفال ومناسبات قبل الصوم.

لقد تميز غوته على الدوام بأنه لا يرتشي بالنجاح. فرغم النجاح الذي كان يحصده بعد نشر كل عمل من أعماله، لم يكتب قطعة مثل سابقتها، حتى ولو أغراه السوق بالإعادة. هذه عظمة لا يتمتع بها إلا القليل. ومن خطواته الجريئة أيضاً أنه لم يتبع فن إخراج مسرحيات العصور القديمة الكلاسيكية الذي كان سائدا في ذلك الوقت، بل اتجه إلى شكسبير، وكتب مسرحيته الشهيرة جوتس من بيرليشنجن متأثرا بالشاعر الإنجليزي الكبير تأثرا واضحا. كانت القطعة رائعة، لكن للأسف الشديد لم يبقَ عالقا

منها في الأذهان إلا كلمة بذيئة رخيصة جاءت من ضمن حركة أحداثها الملونة والفكاهية. بعد هذه المسرحية انهالت الاستفسارات والطلبات على الشاعر حتى يعالج شخصيات تاريخية أخرى بالطريقة نفسها، إلا أنه لم يبالِ ولم يرضخ للإغراءات، بل تابع القفز إلى الأمام، وأنتج إبداعا جديدا.

وقد اتسمت كتابة غوته بصفة عامة بسهولة الفهم للقارئ العادي، مما لم يعجب كثيراً من النقاد في ذلك الوقت، حيث ما كادوا يتصالحون نوعا ما مع كاتب المسرح الجديد ومسرحيته جوتس، حتى فاجأهم وفاجأ قراءه وأصدقاءه وأعداءه برواية آلام الشاب فيرتر . . . رواية الرسائل التي شهرته بين ليلة وضحاها وهو لم يزل في الخامسة والعشرين من العمر، بل وأصبحت آلام فيرتر حديث المجتمع يتسابق الجميع على قراءتها.

في هذه الفترة كان غوته في قمة نشاطه وعطائه. لم يكن هناك ما لم يُثِر اهتمامه ويأسر أحاسيسه، حتى أنه كتب عن النبي محمد واهتم بأكبر المفكرين والشعراء في التاريخ ابتداء من هوميرس ومرورا ببيندار وس وانتهاء بسبينوزا. كذلك أعطى غوته اهتماما خاصا للقرآن والإنجيل. والمدهش أنه بجانب ذلك عاش حياة عاطفية حافلة، ففي خلال ثلاث سنوات مارس علاقات حب مكثفة مع كل من شارلوته بوف القدوة التي أخذها لبطلته في فيرتر ومع ماكسيميليانا لاروش ومع يوهانا فالمر.

كما ألف أشعارا ومسرحيات وقصائد ومقالات حول الفن والهجاء الساخر. وشغل نفسه لأول مرة بموضوع فاوست،

وأغلب الظن أنه كتب المسودة الأولى فاوست الأصلية بين عامي ١٧٧٣ و١٧٧٥. وباتت هذه المسرحية شغله الشاغل وموضوعه الرئيسي، ولو على فترات متقطعة، تارة يلقيها في حجرة النسيان المظلمة، وتارة أخرى يعود ويخرجها منها في الغالب تحت ضغط أصدقائه وخاصة الشاعر فريدريش شيلر ويصححها، ومن جديد يتركها جانبا. وهكذا لم ينه النص الأخير للجزء الثاني من فاوست إلا بعد أكثر من ٥٠ سنة في عام ١٨٣١، حيث أغلق عليه وتمنى ألا يُنشر إلا بعد موته، وهو ما تم فعلا.

بالإضافة إلى ذلك مارس غوته في فرانكفورت مهنته كمحام وكتب مقالات قانونية، وبذل الجهد لمحاولة إصلاح لغة الحقوق الجامدة لتصبح لغة ألمانية يومية، لكن دون تحقيق نجاح يذكر. كما سنحت الفرصة للمحامي غوته أن يلمس بؤس ومشاكل الناس البسطاء عن قرب من خلال موكليه. إلا أنه لم يعمل بالمحاماة طويلا، إذ تعرّف بعد وقت قصير عن طريق أحد معارفه على الدوق كارل أوغست، ابن الثماني عشرة سنة، حاكم البلد الصغير سكسن - فايمر ايزناخ.

اهتم الدوق بغوته وافتتن به من أول مقابلة ودعاه إلى زيارته في مدينة فايمر. وفعلا احتفلت فايمر التي لم يزد عدد سكانها في ذلك الوقت على ٦٠٠٠ نسمة فقط، بقدوم الشاعر المحبوب، الزائر الذي ما لبث أن أصبح بما يعادل رئيس وزراء في الإمارة، ويتمتع بثقة الدوق الكاملة. وحيث إن الدوق لم يهدف بإحضار غوته شراء شاعر بلاط، بل كسب مستشار عبقري متعدد النواحي، لم يبخل عليه بالهدايا، وحرص على الدفاع عنه أمام الغيورين

والدساسين في القصر، هؤلاء الذين نفوا عن القادم الجديد غوته كل مؤهل، بل واستهانوا بقدرته على سرعة التعلم، لكنهم سرعان ما سكتوا.

بدأ غوته في فايمر حياة جديدة مختلفة، فقد أصبح مسؤولا حكوميا مكلفا بتصريف الشؤون المالية والمناجم والحرب والجيش وهندسة الشوارع وإدارة المسارح، كما حمل مسؤولية رئيس لجنة الحرب. وقام مع الدوق بأسفار دبلوماسية، واشترك معه في الحروب أيضاً.

لا شك أن العديد من الأصدقاء والصديقات الجدد في فايمر أثروا بشكل أو بآخر على حياته. أحدهم هو الشاعر فيلاند مربي الدوق الشاب، الأديب الذي قدّر غوته كل التقدير. إلا أن أكبر تأثير مورس عليه في فايمر في السنوات العشر الأولى كان بلا منازع من سيدة ذكية اسمها شارلوته فون شتاين.

كانت شارلوته تكبر غوته بسبع سنوات، ذات اهتمام كبير بالأدب، وتعمل مع زوجها في بلاط الدوق، لكنها لم تكن سعيدة في حياتها الزوجية. وما إن تم أول لقاء بين يوهان فولفغانغ فون غوته وشارلوته فون شتاين حتى ربطتهما علاقة صداقة قوية، كادت الأدوار تكون فيها موزعة بينهما. هو مندفع يزيل كل ملل من حياتها، وهي هادئة تجمع بين الرقة والصلابة، وتكبح جماح اندفاعه. وأصبحت شارلوته مركز حياته في العشر سنوات الأولى في فايمر. كان يسميها في تدويناته الخاصة شمس، ويرسل لها الفواكه والهدايا، ويكتب لها رسائل لا حصر لها بلغت حتى رحلته السرية إلى إيطاليا في عام ١٧٨٦، والتي سببت الضربة الكبيرة

الأولى لعلاقتهما، ١٦٠٠ رسالة، أحيانا لا تتعدى الواحدة منها ورقة صغيرة مع بعض الملاحظات، لكنها دائما شاعرية وفياضة بالحب.

لكن إلى أي مدى وصلت علاقة حبهما، أو إلى أي مدى اقتربا من بعضهما، هذا ما حير الألباب قديما، وما زال يحيرها إلى يومنا هذا. لكن المؤكد هو التأثير العظيم لشارلوته فون شتاين على الشاعر حتى فراقهما الذي تبعه شجار وجروح نفسية في عام ١٧٨٦. هذا ولم يعودا إلى صداقتهما إلا في سن كبيرة.

لكن ما الذي دفع غوته إلى السفر إلى إيطاليا كالهارب؟ ما هي الإشارة التي أراد أن يلوح بها للدوق ولنفسه وللفايمريين بغيابه الطويل والذي دام من أيلول/سبتمبر ١٧٨٦ وحتى تموز/يوليو ١٧٨٨؟ الجواب جاء عدة سنوات لاحقة أثناء استرجاعه لماضيه: الإحساس بأن السنوات العشر الأولى في فايمر لم تكن إلا سنوات ضائعة... جواب ربما يدعو إلى الدهشة ونحن نعلم كثرة ما تقلد من مناصب وما شغل من مهام أثناء هذه المدة، لكن من يولد شاعرا يسعد قلبه وروحه بولادة قصيدة ناجحة سعادة تفوق سعادته بنجاح مهمة دبلوماسية.

مما لا شك فيه أن غوته أنجز الكثير في السنوات العشر الفايمرية الأولى، ففيها اكتشف لنفسه مجالات العلوم الطبيعية وادارة الحكومة والتنظيم، واشتغل عليها كلها على أحسن وجه، حيث دأب على دراسة الملفات، وقام بعمل الأبحاث في مجالات علم المعادن والجيولوجيا والتشريح وعلم النبات. بالمقابل بقيت أعماله الأدبية مهملة ملقاة. وربما لم تكن أبحاثه في العلوم

الطبيعية الا محاوله منه للفرار من مجتمع البلاط، لا بل وللانتقال من زوايا فايمر وأركانها الصغيرة الهادئة إلى نقاط التوجه الكونية. ومع أن غوته استطاع التوصل إلى بعض النتائج الهامة في أبحاثه العلمية والتي منها اكتشاف العظمة العرضية في فك الانسان، فانه لم ينل اعترافا في مجال العلوم الطبيعية.

بناء على ذلك يمكن تسمية السنوات العشر السابقة لهروبه إلى إيطاليا بعقد الأعمال الأدبية المنقوصة، ففيها أنتج جبلا من مسودات وقطع أدبية تنتظر التكملة، حيث إن ثقل مهام أعماله الإدارية في فايمر لم يدع له مجالا لتحقيق ما ترنو إليه نفسه كما كان الحال في فرانكفورت وشتراسبورغ وفيتسلار. مع ذلك كتب في هذه الفترة أجمل قصائده الوجدانية القصصية ملك الجن، وأناشيد الليل والقمر، وأشعار الحب إلى شارلوته، والأعمال التمثيلية الاخوة وافيجني على تاورس. كما كتب المسودة الأولى من فيلهلم مايستر تحت عنوان فيلهلم مايستر رسالة مسرحية. بالإضافة إلى ذلك قام بتجربة الأوبريت الغنائي، وشرح العلاقة بين الكلمة والصوت بالتفصيل، بغية الوصول إلى كيفية جعل الشعر قابلا للتمثيل والغناء. لكن مجهوداته في هذا المضمار لم تعط الثمرة التي تمناها.

تسلق غوته بسرعة في الإمارة الصغيرة ووصل إلى أعلى الوظائف فيها بفضل اجتهاده الشديد وعلاقاته الدبلوماسية مع الآخرين، إلا أن رضاه عن نفسه كان دائما ذا أجل قصير، ففي أعماقه كان يكمن تذمر يفصح عن نفسه ما إن ترى عيناه أدراج مكتبه مكدسة بأعماله الكبيرة غير المكتملة مثل، تاسو، فاوست

وفيلهلم مايستر واجمونت. وعلى حد قوله، إنه عاش في هذه الفترة «حياة مزدوجة» لأنه أراد أن يكون منصفا تجاه مهامه المتنوعة ويعطي كل منها حقه، لكن ما جدوى هذه الحياة المزدوجة واليوم ليس فيه إلا ٢٤ ساعة! النتيجة تعب جسماني ونفسي.

لهذا كله كان الهرب مطلبا ضروريا لا بد منه، نشد غوته من خلاله التحرر من حياة البلاط الخانقة والعودة إلى الإنتاج الشعري من جديد، وراوده الأمل أن يكون الابتعاد المكاني مساعدا له على تخطي الأزمة... هذا هو الدافع لفراره، وقد ظهر دليل صحته من خلال إشارات غوته الواضحة: إنه لم ينوِ ترك فايمر والعودة إلى فرانكفورت على سبيل المثال، لا، بل وحتى عندما استقال من عدة مناصب فور عودته من إيطاليا، بقي في فايمر.

لا شك أن رحلة إيطاليا أمدّت غوته بطاقة إنتاج ضخمة لم يعرفها من قبل، وبإمكانيات خلق جديدة غير محدودة، وبقلم مرهف معطاء، ففتحت طورا جديدا في حياته وفي إبداعاته. وقد وصفها بنفسه في رسالة إلى عائلة هيردر بأنها «**ميلاد جديد**»، وكتب عنها بعد أربعين عاما أي في عام ١٨٢٨ «**من خلال رحلتي إلى إيطاليا أصبح دافع حياتي اللاحقة ثابتا واتخذ شكلا معينا**». وبتعبيرنا الحاضر يمكن أن نقول إن غوته بهذه الرحلة أنقذ نفسه من الفوضى ومن القلق الروحي.

إن رحلة إيطاليا فتحت عينيه على بلاد جنوب أوروبا، طبيعتها، فنونها، وعلى شعوب أخرى تعتمد في أساليب حياتها على الطبيعة المحيطة بها، ليس هذا فحسب، لكنها ساعدته

بالدرجة الأولى على الرجوع إلى ذاته وتقييم طريقه في الحياة حتى ذلك الحين. وهناك تحت سماء إيطاليا الصافية، أنهى بسعادة ونشوة كثيرا من أعماله السابقة غير المكتملة وبدأ أعمالا جديدة براحة نفسية وعزيمة جبارة. من ناحية أخرى كان غوته مثله مثل بقية السائحين، أعمى عن الأوضاع السيئة في البلاد . . كانت عيناه موجهة إلى زرقة السماء وليس إلى بؤس غالبية السكان. بلى. . سحرته إيطاليا وانشغل بنفسه فقط إلى درجة أنه لم يعر أي انتباه إلى الآخر. وكم فزع عندما زار إيطاليا مرة ثانية بعد عدة أعوام.

وكما ذكرت سابقا، كان غوته قد جمع كثيرا من أعماله المنقوصة وأخذها معه في رحلته الأولى. وفعلا وجد هناك وقتا كافيا ليعالج نصوصها من جديد ويكملها، فرصة أتاحت له أن يعيش داخليا ونفسيا كثيرا من مواقف حياته الماضية مرة أخرى. وهكذا أنهى في إيطاليا كلا من فيجني واجمونت وتاسو. كما عاد إلى كتابة الأوبريت وبدأ أعمالا جديدة. وفي إيطاليا أيضاً عرف فاوست، مشروع حياته، أول توسع له. . فيا لها من إنجازات جبارة تلك التي حققها غوته هناك، حتى أنه لم يكن مبالغا حين قال إن رحلته هذه فتحت صفحة جديدة في حياته. فقد تبدل أيضاً أسلوب تشكيل مادته تبدلا عميقا راديكاليا إذ تحول من التفكير والإحساس والخيال، إلى التقاط الأشكال والأشياء بالعين المجردة، مراقبتها بدقة مع محاولة إنكار الذات بالقدر الممكن، ثم استيعابها بنقاء.

أحس الشاعر بالألفة في إيطاليا منذ اليوم الأول، حتى أنه

كتب بعد أسبوع واحد فقط: «**أشعر وكأني ولدت ونشأت هنا وكأنني الآن عائد من رحلة إلى جرينلاند، ومن رحلة صيد الحيتان. إنني أحس بالألفة تجاه كل شيء هنا.**»

وبعد عودته إلى فايمر أعفي من مناصب عدة بناء على طلبه، واكتفى رسميا بمهام ثقافية مختلفة مثل: الإشراف على مدرسة الرسم، وعلى معاهد الفن والعلوم الطبيعية. ورئاسة كل من لجنة بناء القصر، والمناجم، ولجنة التحكيم في حركة الطلاب في عام ١٧٩٠، ومسرح البلاط الفايمري (ابتداء من كانون الثاني/ يناير ١٧٩١) وجامعة ينا. ومع أنها وظائف كثيرة لكنها أقل من نصف ما شغله قبل رحلته إلى ايطاليا.

ثم حدث ما لم يحسب غوته حسابه، ولو أن من يسلك طريقا خاصا به يجب أن يضع مثل هذا الاحتمال نصب عينيه: اتسعت الهوة بينه وبين أصدقائه القدامى في فايمر وزاد اغترابه عنهم يوما بعد يوم، وأحس بعزلة لم يعشها من قبل، فقد بات من الصعب عليهم فهمه، وقابلوا كل ما قام به في إيطاليا من تجارب ودراسات وأبحاث وخبرات بالرفض بل والاستهتار.

حتى الأشعار العاطفية التي خطها أثناء إقامته في إيطاليا وبعد رجوعه منها مباشرة لم تحز الإعجاب الكافي. وتأجل نشر كل من المراثيس والابيغرامات لسنوات عدة، وعند نشرهما وصفتا بالدعارة والخروج عن المألوف والافتقار الى الذوق.

ومما ساهم في اتساع هذا الجفاء أيضاً أن غوته بقي في نظر الكثيرين مؤلف فيرتر لا غير. بينما أعماله الجديدة التي بذل مجهودا كبيرا في إنهائها، لم تحظ بانتباه أو تقدير. هنا تصرف

غوته كما يتصرف بعض المؤلفين الذين يخيب ظنهم بقرائهم عندما يبخلون عليهم بالتعاطف، فتجنى على شعبه الألماني واتهمه بالفظاظة، وبعدم النضج لفهم الأدب الرفيع، وبالسعي إلى تجاهله بغض النظر عما وماذا وكم أنجز من الأعمال.

في بداية التسعينات تأزم الوضع السياسي في فرنسا، وأصبح هائجا كالبركان، حتى انتهى بالثورة الفرنسية الدموية في عام ١٧٩٢. أحداث أفزعت هذا الرجل القلق وزادت مزاجه سوءا، فأعرض عنها ووجه كل اهتمامه ووقته إلى أبحاث العلوم الطبيعية. لم يفهم المجتمع تصرفاته ولم يقبلها، حتى أن محيطه اعتبره بالتدريج غريب الأطوار.

بعد رجوعه من إيطاليا مباشرة تعرّف على الشابة الجميلة كريستيانا فولبيوس، وبدأت قصة حب بينهما أدت إلى فراق نهائي مع شارلوته فون شتاين. أعرب الكثير ممن حوله، سرا أو علانية، عن استيائهم من علاقته مع كريستيانا التي أخذها تعيش معه دون زواج، لا سيما وأنها عاملة بسيطة. والتهبت ألسنة الإشاعات في فايمر مع هذه المادة الغنية، إلا أن غوته أحب كريستيانا التي بقيت سنده الوحيد في عزلته. هذا وأصبحت كريستيانا بعد ذلك زوجته ووالدة ابنه أوغست، الوحيد الذي عاش من بين أطفاله والمولود عام ١٧٨٩.

باتت العلوم الطبيعية في نظر غوته ذات تأثير عالمي يفوق تأثير الأدب على المدى الطويل. وكان أثناء رحلته قد جمع كثيرا من الملاحظات حول علوم الجيولوجيا والمعادن والتشريح. فهذه البلاد الدافئة بطبيعتها الجميلة المتنوعة أثارت حبه للملاحظة

والتمعن، وفيها ولد علم الألوان الذي رغم تعجرفه لا يزال يتمتع باعتراف حتى اليوم.

اتخذ غوته موقفا عنيفا ضد نظرية نيوتن الفكرية حول العالم، لأنه رأى فيها موقفا عدائيا للطبيعة. بينما هو، بتفكيره ذي الطراز القديم والإنساني، رأى العلوم على النقيض من ذلك ليست إلا مجهودات لإيجاد قانون الحياة الذي ترتبط على أساسه كل الأحياء مع بعضها البعض سواء في النمو أو في الفناء. وتعمق غوته أكثر وأكثر في أبحاثه العلمية الفلسفية، وتوصل إلى نظريات حول استمرارية عملية النشوء والارتقاء في الطبيعة، كما نشر عملا يدور حول شكل النباتات ونشأتها تحت عنوان مورفولوجيا، ثم ما لبث أن توصل إلى نتيجة مماثلة لعملية النشوء والارتقاء في عالم الحيوان أيضاً. كل هذه الدراسات تركت بلا شك آثارها على قناعات غوته، بأن تغيير المجتمع وتحقيق نموه لا يتم إلا من خلال تطور بطيء وليس طفرة واحدة من خلال ثورات دموية. ولهذا السبب لم يستقبل غوته الثورة الفرنسية مرحبا كما استقبلها شيلر وكلوبشتوك وهيردر وفيلاند، بل اهتز كيانه منها، وزاد انعزاله.

في هذه الفترة ابتلع النشاط العلمي الفلسفي وقت الشاعر وتوقف عن الإنتاج الشعري . . . فترة تعسة استغرقت أربع سنوات كاملة حتى جاء يوم السعد والفرج، اليوم الذي تعرّف فيه غوته على الشاعر فريدريش شيلر، هذا الذي دأب بتصميم ومثابرة على قحط جليد المرارة الذي يعيشه زميله، دون أدنى شعور بغيرة أو حسد، حتى وجد غوته فعلا طريقه إلى الشعر مرة أخرى وتحدث عن «ربيع جديد». أليس هذا سببا كافيا للامتنان لشيلر!

إن الصداقة الفريدة الوطيدة بين غوته وشيلر لهي شهادة ودليل على صحة نظرية النشوء خلال التحول. فقبل تعارفهما، كان كلا الشاعرين يعرف عن وجود الآخر، لكن دون اهتمام أو استلطاف متبادل، نظرا للتباين الكبير في آرائهما. لكن عندما تطور كل منهما وتغير، غوته بعد رحلة إيطاليا، وشيلر بعد أن تبنّى بالتدريج أفكار الفيلسوف كانت، أصبح لقاؤهما ممكنا وأحسا بأهمية كل منهما للآخر. فعمل شيلر، بقوة أفكاره العقلية، على خطف غوته من العلوم الطبيعية بالتدريج، بينما عمل غوته، بحسه وواقعيته، على التأثير على شيلر ليصبح أكثر اعتدالا في مثاليته. ثم جاءت خطوة شيلر الحاسمة عندما انتقل نهائيا إلى فايمر عام ١٧٩٩. وفيها كتب مسرحياته ماريا ستيوارت، عروس ميسينا، فيلهلم تل، وغيرها.

وتعاون الثنائي غوته وشيلر، وبتشجيع من الدوق الذكي، جعلا من فايمر الصغيرة مركزا للثقافة، وأضحت هذه المدينة هدف كثير من المثقفين من أمثال فيلهلم وألكسندر فون هومبولد، يوهان جوتليب فيشته، وفريدريش فيلهلم شيلينج، وجان باول، وأوغست فيلهلم، وفريدرش شليجل، لودفج تيك، ونوفاليز، وفريدرش هيجل. فانتقل بعضهم إلى فايمر وحافظ البعض الآخر على اتصال مكثف مستمر مع الشاعرين.

ولما كان غوته وشيلر من عشاق اليونان، لم يكن غريبا أن يغلب الطراز الكلاسيكي على إنتاجهما سواء في الرسم أو الشعر أو المسرح خلال تلك الحقبة، ولم يختفِ هذا الطراز إلا عندما وضع الرومانتيكيون نهاية له في وقت لاحق.

وبالرغم من روعة وإنتاجية الصداقة بين العملاقين غوته

وشيلر، إلا أن نظرتهما إلى كثير من الأمور بقيت مختلفة متباعدة، مما أعاق نمو ألفة كاملة بينهما. لقد ربطتهما ضرورة من نوع خاص شبيهة بارتباط السالب والموجب. لكن مهارة الشاعرين كمنت في قدرتهما الفائقة على تخطي أي فجوة قد تنشأ بسبب هذه الاختلافات، وذلك من خلال التقدير العميق والاحترام الشديد الذي كان يكنه كلا منهما للآخر. من هنا مثّل موت شيلر السريع في عام ١٨٠٥ خسارة لا تعوض لصديقه غوته، الذي وصف حاله بعد شيلر بأنها «**حالة جوفاء**».

وفي تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٠٦ تعرض غوته لهزة أخرى جديدة، عندما انتصر نابوليون على الجيش البروسي في معركة فاصلة في المنطقة بين يينا وفايمر، وجاب على أثرها شوارع فايمر جنود فرنسيون سكارى، ونشروا العنف والفزع فيها. وكان بيت غوته من بين البيوت التي قاموا بانتهاكها، وكاد أن يكون هو نفسه ضحية لهم، إذ لم يعرف كيف يدافع عن نفسه، ولم ينقذ حياته إلا تدخّل صديقته الشجاعة كريستيانا، التي تزوجها بعد هذا الحادث زواجا كنسيا أمام الجميع كعرفان لجميلها.

ورغم محنة الهزيمة والإهانات التي سبّبها الاحتلال الفرنسي لم يَنْمُ في نفس غوته أي كره قومي حيال الفرنسيين لحظة واحدة، لا هذه المرة ولا تلك المرة عندما احتلوا فرانكفورت وهو شاب صغير. بل على العكس، لقد احتقر هذا الكره القومي لأنه «**يوجد دائما على أشده وأقواه في أدنى درجات الثقافة**». وأحس بنفسه يختلف عن الآخرين، لأنه تجاوز الشعور القومي وأحس بالالتئام والمحبة مع كل الشعوب، يفرح معهم ويحزن للمصاب الذي يلم

بهم. لقد تحلى غوته بهذه الصفة منذ طفولته وظل محتفظا بها، حتى وهو في حوالى الستين عندما قابل نابوليون عدة مرات، حيث كان الاحترام والإجلال متبادلا بينهما، بل وكم تأثر غوته من كلمات المديح والمجاملة التي سمعها من الفرنسي المشهور الذي كان قد قرأ بعض أعماله بتمعن.

وعندما بقيت الأحوال غير مستقرة، عاد غوته ودفن نفسه ثانية في العلوم الطبيعية، فعكف على العمل على علم الألوان، حتى نشره أخيرا في كتاب ضم أكثر من ألف صفحة عام ١٨١٠. لم تقابل آراؤه بالاستحسان، بينما وجدت نظريات نيوتن تأييدا متزايدا، فأصيب غوته بخيبة أمل جديدة قاسية، إلا أنها لم تثنيه عن الكتابة، وواصل عمله على الجزء الأول من فاوست وأنهاه بطريقة مبدئية عام ١٨٠٦، كما باشر بصياغة جديدة لقصة فيلهلم مايستر. أما عمله الروائي الرائع التجاذب الاختياري فبمجرد نشره عام ١٨٠٩ تفجرت مناقشات حادة حوله. في عام ١٨١١ وبعد تفكير عميق بدأ غوته بكتابة سيرته الذاتية الشاملة الشعر والحقيقة، وأنهى الأجزاء الثلاثة الأولى منها في وقت قصير.

في مرحلة ما بعد موت شيلر أصبح غوته يكثر من التردد على منتجعات الحمامات المعدنية المختلفة وقضاء الفترات الطويلة فيها، أملا في تحسين صحتة. واستطاع في أجوائها الهادئة أن يعمل براحة بعيدا عن السياسة اليومية، وتعرف فيها على عدد من الشخصيات الجديدة المثيرة مثل امبراطورة النمسا ماريا لودوفيكا ولويس بونابرت وغيرهم.

وفي هذه المرحلة نفسها تزامن صعود الرومانتيكيين، الذين

لم يفهم غوته إفراطهم في الحساسية، واستهان بهم وحكم عليهم أحكاما خاطئة. وبالتالي لم يحظ روادهم أمثال أخيم فون أرنيم وكليمنس برونتانو والأخوين شليجل وأتو رونجة أي انتباه منه، وحتى بتهوفن عبقري الموسيقى المعروف لم يستطع أن يجلب انتباهه، هذا مع أن بتهوفن نفسه أبدى اهتماما بأعمال غوته. هكذا انعزل غوته من جديد وزاد من انعزاله موت كثير من أقربائه وأصدقائه الحميمين. فبعد شيلر توفيت كل من الدوقة أنا أماليا أكثر المشجعين له، ووالدته عام ١٨٠٨، ثم فيلاند عام ١٨١٣.

في عام ١٨١٤ قام غوته برحلة إلى جنوب ألمانيا.. رحلة منحته من جديد قوة وطاقة، حتى أنه تحدث عن «شباب جديد». وفيها تعرف على ماريانا فيليمر زوجة أحد أرباب المال، والتي ما إن خبر ميلها العاطفي له حتى بادلها شعورها وتفجرت نيران الشعر العاطفي في صدره.

فالمرأة في جميع أعمال غوته الشعرية العظيمة هي مصدر الإلهام والابداع، فريدريكه بريون هيّجت عنده حب شعر الطبيعة. وحبه لشارلوته بوف أوحى له بإنتاج فيرتر، والأشهر السعيدة التي قضاها مع ليلي شونمان كانت الدافع لكتابة المسرحية التمثيلية ستيلا، وشارلوته فون شتاين حبيبته في السنوات العشر الأولى في فايمر، احتذى بها كمثال لشخصية إفيجيني في توريس وللأميرة لينورا دي استة في مسرحية توركاتو تاسو. وفي نهاية الأمر ماريانا فيليمر باسم زليخا في الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي، وهي بذلك الحبيبة الوحيدة التي كتبت الشعر وبادلته إياه ممثلا في أشعار الديوان التي تحت اسم زليخا، والتى قام غوته بنقلها فقط.

حظي الديوان الشرقي الذي كان غوته قد باشر بكتابته قبل الرحلة مباشرة، على اهتمام وحماس شديدين منه فاقا توقعاته الشخصية، فوضع فيه طاقة جبارة. أما استعمال الكلمة العربية ديوان، التي تعني الكتاب الذي تُجمع فيه القصائد أو المكان الذي يجتمع فيه الناس، فلم يكن صدفة بل نتيجة تأثر غوته بالشاعر الإيراني حافظ الذي كان قد عاش في وقت مضطرب أيضاً. ومن الطريف أن الطبعة الأولى كانت تحمل على غلافها العنوان باللغة العربية الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي وليس الديوان الشرقغربي كما سمي بعد ذلك باللغة الألمانية، وهو لا شك عنوان صائب لأن الديوان يتضمن أشعار شاعر غربي بإحساسات شرقية. أما ما يدعو للاستغراب هو عدم اختيار غوته لكلمة شاعر، بل لكلمة مؤلف التي تستعمل لكاتب النثر في العادة.

في السنة التالية قام غوته بزيارة البيت الريفي لعائلة فيليمر عدة مرات وقابل حبيبته ماريانا. وهناك تم تأليف كتاب زليخا، أحد أجزاء الديوان، الذي ضم بعد ذلك كتب حكم وأقوال وحكايات وأشعار طبيعية. وفيها جميعا يظهر بوضوح شعار غوته مت وكن!

أحس غوته في رحلاته إلى جنوب ألمانيا - فيزبادن، فرانكفورت، هايدلبيرج - بسعادة تكاد أن تكون «**إيطالية الطابع**» كما وصفها، إلا أن هذه الرحلات انتهت على حين غرة بوفاة زوجته في عام ١٨١٦. هذا بالإضافة إلى تشاؤمه عندما حدث وتعطلت عربته بالقرب من فايمر نتيجة كسر في محورها، وكان ذلك في بداية رحلته الثالثة إلى جنوب ألمانيا، فقرر العودة إلى البيت وعدم مغادرة فايمر مرة أخرى.

ثم حدث أن دسيسة إحدى الممثلات أدت إلى استقالته من منصب إدارة مسرح البلاط في فايمر. مما جعل الشاعر يستاء من صديقه والمتيم به سابقا الدوق كارل أوغست، والذي كان له دور في هذه الإقالة الشائنة بعد عمل وصداقة استمرا أربعين عاما. ولا شك أن غوته كان محقا في غضبه.

هنا انطوى شاعرنا على نفسه، وعكف على الاشتغال بهدوء وبجلد على أعماله مدة عشرين سنة أخرى في بيته في فايمر. عدا ذلك لم يحدث الكثير في حياته. وهكذا أنهى بمثابرة فائقة إنتاج روايته سنوات ترحال فيلهلم مايستر. ومع ابتداء عام ١٨٢٥ راح يعمل يوميا على الجزء الثاني من إنجاز حياته فاوست.

وهكذا ختم عدة إنجازات منها الجزء الأول من الرحلة الإيطالية عام ١٨١٦، وأحداث في فرنسا عام ١٨٢٢، والرحلة الإيطالية بالكامل عام ١٨٢٩. فوق ذلك أصدر غوته مجلتين كاد أن يكون محتواهما مكتوبا بقلمه فقط، إحداها تدور حول العلوم الطبيعية بوجه عام وعلم المورفولوجيا بوجه خاص، والأخرى حول الفن والتراث.

بجانب أعماله الشعرية وأنشطته في النشر والتوزيع، أكمل غوته علم الألوان وتراسل مع شخصيات كثيرة، وعلاوة على ذلك كتب مذكراته اليومية. لم يعد الشاعر منعزلا ولا وحيدا كما كان بعد رجوعه من إيطاليا، فكم من الناس أصبحت تأتي لزيارة غوته المشهور، الذي لم يعد يسافر ويقوم بالرحلات، بل يترك بابه مفتوحا للعالم. لذلك كان من الطبيعي أن يضطر أحيانا إلى تحمّل إزعاج بعض زائريه، ونراه يشكو من ذلك في حديث له مع

الدبلوماسي الروسي الأمير سترونجانوف في عام ١٨٢٧: «**الشهرة يا سيدي الشريف غذاء رائع للروح: فهي تقوي وترتقي بالذهن كما تنعش الوجدان. من الممكن أن قلب الإنسان الضعيف يحب أن يشبع نفسه منها، لكن الإنسان عندما يكون على طريق الشهرة ينجح بسرعة في إهمالها وعدم احترامها. إن الرأي العام يقدس أناسا ويكفر آلهة، يمدح الأخطاء التي نخجل منها ويسخر من الأخلاق التي نفخر بها. صدقني يا سيدي أن الشهرة جارحة كالسمعة السيئة. منذ ثلاثين عاما وأنا أكافح ضد ضيق الحياة. وستفهم هذا الضيق لو يكون بإمكانك أن تراقب عن كثب بضع أسابيع قليلة فقط، كيف يأتي إليّ يوميا أعداد من الأغراب الذين يودون إظهار إعجابهم بي مع أن كثيرا منهم لم يقرأ كتاباتي أبدا.**»

إلا أن أحد معجبي غوته وقارئ عاشق لكتاباته يوهان بيتر أكرمان عوضه الكثير عن هذا الإزعاج بأن دوّن كل مقابلاته وأحاديثه ومناقشاته معه منذ أن بدأ عام ١٨٢٣ بزيارته بانتظام. واعتُبرت هذه التسجيلات بمثابة توضيح كبير للتطورات المختلفة في حياة غوته، ولمواقفه، ولردود فعله. كما أن تحليل هذه الأحاديث ودراسة انعكاساتها عن بعد، يعد مساعدة لا يمكن الاستغناء عنها لفهم الشاعر، خصوصا أن أكرمان نفسه كان موضع ثقة المعلم الكبير ومساعده المطيع، رغم أن غوته كان بخيلا تجاهه وعامله في كثير من الأحيان بجلف وقساوة. استهان الكثير من الأجيال التالية بأحاديث أكرمان المكتوبة، أولا لأنه لم يكن أديبا، بل عصاميا علم نفسه الأدب بنفسه، وثانيا لأن أكرمان وجد دوما تبريرا مناسبا لكل ما فعله غوته، وعرضه بطريقة منسقة. كان

يقدس غوته، وبالتالي ليس من المستبعد إن كان ذر غبار على عينيه أحيانا. ولم يجد كتابه محادثات مع غوته في السنوات الأخيرة من حياته تقديرا من كثير من علماء الأدب لفترة طويلة، بينما اعتبره معاصرو غوته وأقرباؤه كتابا دقيقا وصادقا. أما الفيلسوف العبقري نيتشه فقد وضعه تحت أهم ما نُشر من النثر الألماني.

التقى غوته عام ١٨٢٣ بالشابة أولريكه ليفيتسوف أثناء إقامته في أحد مصحات النقاهة، وتطورت علاقته معها لتصبح آخر قصة حب عاطفية له. كان في الرابعة والسبعين وهي في التاسعة عشر، وأراد أن يتزوجها، إلا أن أولريكه ترددت مما اضطره أن يتراجع عن عرضه بمرارة. في هذا الوقت أنتج أشعار اليجيه مارينباد.

هنا تبدأ الحقبة الأخيرة من حياة الشاعر، وفيها كثف دراسته حول الأدب الأوروبي، فالأدب الشرقي كان قد درسه عن قرب أثناء تحضيره للديوان. ثم بحلول عام ١٨٢٠ ركز على دراسة الأدب الهندي والصيني بالتفصيل. أما الكتّاب المفضلون لديه فهم: لورد بيرون، وفالتر سكوت، والكسندرو مانتسوني، وفيكتور هوجو.

رأى غوته بأن فن الشعر ملك لجميع البشر، حيث عبّر عن ذلك في مقال نشره في مجلته في عام ١٨٣٠. كما كان غوته أول من صاغ اصطلاح «**الأدب العالمي**».

كما تمتع بالحكمة، لكن إيمانه لم يعانِ من ذلك، بل ازداد اتساعا ليصل إلى أديان أخرى احترمها. إنه لم يصبح ملحدا ولكن مشركا، فالآلهة عنده كلها متكافئة.

وفي كبره لم يجد غوته تواصلا مع الشعراء الشباب، ولم تستطع أنشطته الكثيرة أن تمنع هذا الواقع. في عام ١٨٢٨ ألمّ به الحزن الشديد بموت الدوق الكبير كارل أوغست، وفي عام ١٨٣٠ حزن حزنا أكبر بفقد ابنه الحبيب أوغست إثر مرضه بحمى أثناء رحلة في إيطاليا. هنا لاذ غوته بصمت رهيب، وهرب من كل الاحتفالات الخاصة بتكريمه وإجلاله، وعكف فقط على إكمال أعماله الأدبية حتى يتحمل حزنه. «**يجب أن أجبر نفسي على العمل، (. . .) حتى أبقى واقفا.**»

وجاء العام ١٨٣١ وفيه أنهى كلا من الجزء الثاني من إنجاز حياته فاوست، والكتاب الرابع من الشعر والحقيقة.

في ٢٢ آذار/مارس ١٨٣٢ توفي غوته عن اثنين وثمانين عاما. . الشاعر الذي صاغ الثقافة الألمانية كما لم يصغها أحد قبله أو بعده.

وأصبح الآن بنفسه دليلا على موضوعه الرئيس عن الموت والكونية.

إنه مات وعانق الكون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اعتمدنا أثناء الترجمة فيما يخص بعض الاستشهادات الشعرية والنثرية من أعمال غوته، على المصادر التالية، أحياناً مع بعض التحوير (م):

- غوته: آلام فيرتر - ترجمة د. نظمي لوقا، روايات الهلال، ١٩٧٧.
- غوته: مختارات شعرية ونثرية - ترجمة: أبو العيد دودو، منشورات الجمل، ١٩٩٩.
- غوته: فاوست -٢- ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الإعلام في الكويت، ١٩٨٩.
- غوته: فاوست -٣- ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الإعلام في الكويت، ١٩٨٩.
- غوته: النور والفراشة، (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) د. عبد الغفار مكاوي، الناشر أبوللو، ١٩٩٩.
- جيته: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

هذا الكتاب

كانت حلم محل أساطير وخرافات، فكثير من قصص الشاطئ العربي تحكي عن غرابة أطوار سكان هذه الجزيرة، بل وتؤكد تحالفهم مع الشيطان تحالفا يجعلهم لا يهزمون...

ودّع توما الجميع في الجزيرة وشق طريقه الطويل إلى برلين حيث قضى هناك سنة كاملة، جمع خلالها كل ما توفر له عن الأدباء والشعراء والمفكرين الألمان...

في الليلة الأولى بدأ توما حديثه: إنه لشرف لي أن اعرّفكم على أحد أعظم المفكرين الألمان الشاعر يوهان فولفغانغ فون غوته. إن حياته غنية ومتعددة النواحي، حتى أن تجسيمها وتوضيحها لكم نوعا ما يحتاج مني سبع ليال كاملة على أقل تقدير.

مكتبة
t.me/soramnqraa